كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حلمـــى التـــونـــى

التاريخ الذى أحمله على ظهرى

(الجزء الثانى)

ماء الحياة

●

بقلم

الدكتور سيد عويس

●

دار الهلال

السفر الى الخارج طلباً للعلم

فى يوم ١٥ من شهر ابريل عام ١٩٤٠ تكونت أول هيئة تنفيذية « لمكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » . وقد روعى فى تكوينها تمثيل وزارة الشئون الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة واحد المستشارين القانونيين واحد رجال التربية ومديرة المكتب . وقد مثل اعضاء هذه الهيئة السادة الاستاذ محمد عبد الخالق حسونه « وكيل وزارة الشئون الاجتماعية » والسيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة والمستشار محمد فتحى والاستاذ اسماعيل القبانى والسيدة الزا ثابت « مديرة المكتب » . واصبحت السيدة الزا منذ ذلك الحين مديرة المكتب . واستمرت فى هذا المنصب حتى يوم ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ عندما عينت مديرا لهذا المكتب فى أول ينساير عام ١٩٤٤ . ولن أنسى ماحييت هذا اليوم . وكم من الايام التى لا انساها منذ أن مات ابى وتركت مدرسة الخديوية الثانوية ثم اشرفت علي وكالة ابى بعد وفاته وعندما تركتها للتفرغ للدراسة وعند حصولى على شهادة البكالوريا ثم يوم تعيينى بمصلحة الحدود ويوم التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ويوم استقالتى من مصلحة الحدود لأعمل بمؤسسة الزفاف الملكى ثم تركها مضطرا لأعمل مديرا لمعسكر الاطفال بكوم امبو ويوم عودتى الى المؤسسة ، ويوم حصولى على دبلوم الخدمة

الاجتماعية ، وهأنذا اترك المؤسسة لكي اعمـــل مـديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . ايام من أيام عمري لا يمكن أن انساها تركت آثارها في نفسي كما تركت بصماتها على شخصيتي . وبدات عملي الجديد وكان لا يختلف اختلافا جذريا عن عملي بالمؤسسة . ولم يكن عمل المكتب غريبا على في اثناء عملي بالمؤسسة ، حيث كانت الصلة بين المؤسسة وبين المكتب فى شخص السيدة مديرته والسادة الزملاء اخصائى المكتب صــلة وثيقة . واذكر من هؤلاء الاخصائيين الاعزاء الاســتاذ محمود فهمي والاستاذ احمد مرزوق والاستاذ توفيــق عمار والاستاذ واصف يوسف . ومع ذلك فالبيئة الجديدة غير بيئة المؤسسة ، والاوضاع غير الاوضاع . كنت فى المؤسسة اعمل فى مجال تطبيق « طريقة خدمة الجماعة» وانا الآن فى المكتب اعمل فى مجال تطبيق « طريقــة خدمة الفرد » وفي مجال تطبيق « البحــث العلمى الاجتماعى فى ميدان الجريمة والجناح » . وبدات عملى فى المكتب من حيث انتهت السيدة الزا أول مديرة له . كانت اهدافى فى أول الامر ان ادرس دراسة موضوعية ماهو كائن حتى اعمل فى سبيل تحقيق مهام المــكتب واغراضه التى وضـــعت فى خــلال الفترة السابقة مااستطعت الى ذلك سبيلا . وقد تضمن نشاط المكتب الاجتماعى الطبى النفسى فى ذلك الحين مايلى :

ـ القيام ببحث دقيق لحالة كل حدث « يحول من محكمة الاحداث بالقاهرة » وببحث دقيق للبيئة التى يعيش فيها وعلاقة هذا كله بأعمال التشرد أو الاجــرام التى تصدر عنها . ويشفع مثل هذا البحث الاجتماعى ببحث عن حالة الحدث الصحية والنفســية ولذا يكون

فى متناول القاضى المعلومات الدقيقة التى يستعين بها فى فهم حالة كل حدث .

ــ اقتراح الحل الملائم لكل حالة تعرض سواء فيما يتعلق بالتربية او المعالجة النفسية أو بتغيير بيئة الحدث أو بالحاقه باحدى المؤسسات التى تلائم حالته الخاصة .

ــ المساعدة فى تنفيذ العلاج المقترح وبوجه خـاص مراقبة الحدث وأسرته اجتماعيا « فى حالة أعادة الحدث الى أهله اى الحكم بالتسليم » والتأثير الصالح فى كل منهما .

وكانت مهام المكتب واغراضه التى كان على وزملائى بالمكتب تحت اشراف الهيئة التنفيذية القيام بتحقيقهـا مايلى :

ــ الاقتصار على مشروع الخدمة الاجتماعية فى محكمة الاحداث بالقاهرة دون سواها فى الوقت الحـاضر ، واعتباره تجربة اذا نجحت أمكن تعميمها . « تيسـر لمحافظة الاسكندرية انشاء مكتب للابحاث الاجتماعية على غرار مكتب القاهرة فى عام ١٩٤٣ » .

ــ ان تكون الهيئة التى تشرف على هذا المشروع هيئة خاصة « الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية » الى ان يثبت نجاحه وفائدته للبلاد .

ــ السعى لدى وزارة العدل لتقديم المعاونة فى تنفيذ هذا المشروع بنجاح ، حيث أن سـماح السيد النائب العام باجراء بعض الابحاث فى محاكم الاحداث قد افاد كثيرا . ولكنه لم يكن سـوى خطـوة أولى فى هـذا السبيل .

وفى ضوء تحديد هذه المهام والاغراض رات الهيئـة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحـداث

بالقاهرة الاهتمام بدراسة بعض الموضوعات الآتية :

ـ الاعتراف الرسمي من وزارة العدل بالخدمات الاجتماعية لمحاكم الاحداث كمشروع تقوم به هيئة خاصة.

ـ الاعتراف الرسمي بمؤسسة الزفاف الملكي كمأوى مؤقت وببعض المعاهد التعليمية الاخرى كملجأ الحرية مثلا .

ـ عقد جلستين اخريين أسبوعيا بمحاكم الاحداث وتعيين وكيل نيابة آخر .

ـ سرية الجلسات التى تعقد بمحاكم الاحداث .

ـ اصدار قانون اسقاط السلطة الابوية .

ـ تخصيص مكان فى الاصلاحيات لقبول الاطفال المحكوم عليهم .

ـ بدء تعاون مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة مع مكتب الآداب بشأن الاحداث المتهمين بالتشرد والتسول وجمع الاعقاب .

ـ الاهتمام بانشاء شرطة خاصة بالاحداث .

ـ طلب الاعتراف بمؤسسة الزفاف الملكى لالحاق الاحداث الذين تحت اشراف المكتب بها بدلا من ارسالهم الى الاصلاحيات .

ـ الاهتمام بانشاء مكان خاص لحجز الاحداث فى خلال فترة المحاكمة ، اى انشاء دار للملاحظة .

ـ طلب الاعتراف بملجأ السيوفية الخاص بالفتيات لاقامة الفتيات الاحداث اللائى تحت اشراف المكتب .

ـ الموافقة على قيام المكتب بحفظ كل حالة حدث يودع فى مؤسسة . « اى اقتصار عمل المكتب على القيام بالمراقبة الاجتماعية للحدث واسرته اذا اقتضت الضرورة ذلك او بعد الحكم على الحدث بالتسليم » .

ـ الاهتمام بتعديل قانون تشرد الاحداث .

ـ الاهتمام ببذل بعض الجهود لدى وزارة العدل على استقرار قاضي محكمة الاحداث بمنصبه حتى يتمكن من دراسة مشاكل الاحداث وفهم نفسياتهم لطول خبرته بهم على ان يحصل على كل ترقياته مع وجوده في نفس المركز .

ـ الاهتمام بانشاء مؤسسات لضعاف العقول وذوى العاهات من الاحداث .

ـ الاهتمام بتكوين اتحاد يضم الهيئات المهتمة بالاحداث الجانحين ويشرف على أعمالها وينسقها بحيث لا تتعارض مع بعضها .

ـ طلب مساهمة وزارة العدل في توسيع نطاق أعمال المكتب وتدعيمه ماليا .

وظل مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٨ يعمل على تحقيق مهامه واغراضه وأن تعددت . وقد تحمل هذا المكتب في خلال هذه الفترة عبئا كبيرا جدا . وقد اضطر الى ذلك اضطرارا على الرغم من وجود بعض الظروف المواتية التي مهدت السبيل الى وجوده . ان المكتب في هذه المرحلة كان رائدا في ميدان علاج الاحداث الجانحين . وقد تحمل العبء وحده . لقد بدأ كما يلاحظ القارىء كجهاز للمراقبة الاجتماعية في محيط الاحداث الجانحين في مدينة القاهرة . فأغراضه على المستوى النظرى تدل دلالة واضحة على ذلك . وعمله كان يقوم على اساس تقديم البحوث الاجتماعية والطبية والنفسية الى المحكمة لتنويرها . وفي حالة صلاحية البيئة المنزلية لتسليم الحدث اليها يطلب

المكتب من المحكمة الحكم بالتسليم ، ثم يقوم المكتب بعد ذلك بالمراقبة الاجتماعية للحدث وأسرته فترة من الزمن . اى ان عمل المكتب كان فى حالة الحكم بتسليم الحدث ، اى اطلاق سراحه ليعيش فى بيئته المنزلية ، هو القيام بمراقبته والاشراف عليه فى هذه البيئة فترة من الوقت ، وفضلا عن ذلك كان يقوم بالبحوث اللازمة السابقة على الحكم .

واذا كان لكل شيء تاريخ ، فالملاحظ ان مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى ضوء خبرة السيدة الزا اول مديرة له ، وهى خبرة سويسرية فرنسية ، قد حاكى أول ماحاكى الاعمال التى كانت تقوم بها المكاتب التى على غراره فى سويسرا وفى فرنسا فى ذلك الحين . والواقع انه حاكى اعمال « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين » . وكانت اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين فى ضوء المشروع الذى قدمته السيدة ألزا الى مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية فى يوم ١٣ من شهر مارس عام ١٩٤٠ ، هى نفس اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة عند انشائه والملاحظ ان المكتب الاول مثل المكتب الثانى كان تابعا لاحدى الهيئات الاجتماعية الاهلية هى « جمعية الخدمة الاجتماعية للطفولة المعرضة للتدهور الخلقى » .

وكنت اعمل فى خلال الفترة من شهر يناير عام ١٩٤٤ حتى آخر عام ١٩٤٨ بلا توان . كانت السيدة الزا عضوا فى الهيئة التنفيذية التى تشرف على المكتب ، كما كانت عضوا « مؤسسا » للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومن ثم فقد كانت ترى احيانا وهى بهاتين الصفتين فضلا

عن انها كانت اول مديرة للمكتب ان تتحكم فى بعض تصرفاتى . وكنت حريصا على ان تكون هذه التصرفات حرة طليقة مادمت قد أصبحت المسئول عن ادارة المكتب. وكانت تحدث بينى وبين السيدة الزا بعض ما كنت اتوقعه من خلافات . ولكن الظروف اصبحت غير الظروف . لقد تفرغت لادارة بيتها فلم يكن لديها الوقت لتلبى ما كانت تطلبه هى من مقابلات ثنائية معى . وموظفو المكتب اصبحوا غير الموظفين القدامى . بقى « واصف يوسف » « أقدم اخصائى بالمكتب » ولكن اضيف اليه « عبد العزيز فتح الباب » الذى الح على الالحاح الشديد لكى ينتدب من وزارة الصحة التى كان يعمل بها ليكون معى بالمكتب كما كان معى فى المؤسسة من قبل . وكان هذا الشاب يعيش وحده مع اخيه « حميدو » ضعيف العقل . وكان موضع تكريم امى وحبها التى كانت تعتبره اخا بل شقيقا لى ، وكان قد تعود زيارة منزلى زيادة فى الالحاح لكى ينتدب او يعار الى المكتب . وقد اعير عبد العزيز فتح الباب فعلا الى المكتب وصار زميلا لواصف يوسف . وضم اليهما « توفيق عمار » الذى مالبث ان تركنا ليعمل فى ميدان تخصصه ويترك مهنة الخدمة الاجتماعية لمن يسعد بها . وكان توفيق عمار اخا شقيقا للاستاذ الدكتور عباس عمار استاذ الجامعة الذى صار وزيرا للشئون الاجتماعية فيما بعد . وضم « افنيس عطا الله » اخصائية اجتماعية حديثة ايضا ، ثم « خيرية باور » ذات الخبرة فى ميدان الخدمة الاجتماعية والتى لم تتح لها الفرصة لتستكمل دراستها . وحتى اعضاء الهيئة التنفيذية للمكتب قد تغير اعضاؤها كذلك لانتقال الاعضاء القدامى الى مواقع عمل اخرى او لعوامل اخرى . واصبح الاعضاء الدكتور محمد صلاح الدين

والاستاذ الدكتور محمد عوض محمد والمستشار محمد فتحي والسيدة الزا ثابت وقاضي محكمة الاحداث بالقاهرة ثم مدير المكتب . وكانت لكل هذه التغييرات آثار على العلاقات التي بيني وبين زملائي وعلى العلاقات التي بيني وبين اعضاء الهيئة التنفيذية وعلى العلاقات التي بيني وبين السيدة الزا . أنني كنت حريصا الحرص كله على أن يكون أعضاء المكتب من الزميلات والزملاء اسرة واحدة . فقد كانوا اخوات واخوة لي فعلا وحقا . وكان الهم الاكبر الذي يشغل بالي هو أن تؤدي واجباتنا كل في موقعه . حاولت ان نعمل جميعا عملا جادا في ظل الحب والاحترام اللذين كانا يسودان علاقاتنا . وعلى الرغم من الاعباء العديدة والظروف غير المواتية وبخاصة عندما كان يتغير قاضي المحكمة أو وكيل النيابة ، أي عندما يستبدل بمن عرفنا وعرفناه وفهمنا وفهمناه واحترمنا واحترمناه ، آخر لضرورة النقل لا يعرف عن وظيفة المكتب ولم يسمع عن مهنة الخدمة الاجتماعية وعلاقتها بالمحكمة شيئا . كنا نبدأ من جديد : نقيم على شرف القاضي الجديد او وكيل النيابة الجديد أو كليهما « حفل شاي » للتعارف . وكنا حريصين على ذكر اسم أحدهما متبوعا بلقب « بيه » . فقد أخذنا من الماضي درسا قاسيا عندما كنت او كان احدنا نذكر « الاستاذ فلان » مجردا من لقب « بيه » ! كان تأثير ذلك على العمل الذي بيننا رهيبا ، والاحداث وذووهم كانوا هم الضحايا . فاذا قال تقرير المكتب « يمينا » حكم القاضي « شمالا » والعكس بالعكس . وكانت أمهات الاولاد عند الاختلاف ، وبعضهن كن لا يحرصن على الاخلاق القويمة ، أسلحة في يد القاضي احيانا او في يد وكيل النيابة احيانا أخرى ضدنا . وقد يحدث العكس عند الصفاء فنجد القاضي يشكو لي من

ان وكيل النيابة الشاب يحرص على ان تمكث فى مكتبه « أم فلان (احد الاحداث) الوسيمات » فترة طويلة تثير الشبهات . وكنت لا ارد ولا اصد . وكان زميلاتى وزملائى يحرصون معى على القيام بعملنا وعلى ان نكون صابرين « فالصبر مفتاح الفرج » ، و « اصبر على الجار السو لا يرحل يالبجى له داهية » . وقد تعلمت درسا لا انساه . فقد كنت حريصا جدا على توقير رجال القضاء واحترامهم وامامى الدكتور محمد صلاح الدين والمستشار محمد فتحى وغيرهما قدوة صالحة ، ولكن ماكان يحدث بين المكتب وبين المحكمة اكد لى ان الناس ومنهم رجال القضاء بشر يخطئون كما يصيبون .

ومهما يكن من الامر فانه على الرغم من الاعباء العديدة والظروف غير المواتية ، كما ذكرت آنفا ، فقد كان شعار الاخصائيين الذين كانوا يعملون بالمكتب فى ذلك الحين : الابتسام امام المشاكل ، والتفاؤل بالمستقبل على الدوام . كنا نعمل من اجل ان نعيش ، ولكننا كنا كذلك نعيش من اجل ان نعمل . كانت مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة حديثة فى بلادنا لاتزال . وكنا نحاول ما استطعنا من جهد ان نؤكد الحاجة الماسة الى ادوارها الاجتماعية فى كل ميدان وفى كل لحظة . ولم يقف فى سبيل تحقيق ذلك فى ميدان المراقبة الاجتماعية بالمحاكم او غيره من الميادين اى شىء . ذلك لاننا آمنا ايمانا صادقا بأن المجتمع المصرى فى ذلك الحين كان فى مسيس الحاجة الى هذه المهنة الانسانية والى ادوارها الاجتماعية العديدة .

وارجو ان يلاحظ القارىء ان ماذكرته عن خلافات حدثت بينى وبين السيدة الزا لم يمنع ابدا التقارب الانسانى الذى حدث بينى وبينها . لقد كانت خلافات

كما قلت من قبل متوقعة . وكنت فى ضوء خبراتى السابقة اعتبر حدوثها امرا عاديا . ولكن الذى حدث فعلا هو التفاهم الذى كان منذ ايام مؤسسة الزفاف الملكى بل منذ ايام المحاضرات فى مدرسة الخدمة الاجتماعية فى القاهرة ، والذى استمر بعد ذلك حتى كتابة هـذه السطور . ان السيدة الزا بزواجها حرمت من العمل الاجتماعى فى اى ميدان الا أن تكون متطوعة . لقد رفض زوجها أن تعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية ، وهى الاخصائية الاجتماعية المحترفة ، بأجر . وانتهزت الفرصة لكى تتعلم اللغة العربية حديثا وقراءة وكتابة . وكنت أحد مدرسيها . وكنا نتقابل فى المكتب ساعات محددة فى الاسبوع . وكان مكان المقابلة يعقد احيانا بمنزلها تحت سمع زوجها وبصره . واذ كنت اقوم بتدريس اللغة العربية للسيدة الزا فقد كانت هى أيضا تساعدنى فى اتقان اللغة الانجليزية . وكانت فوق ذلك تمدنى ببعض الكتب لكى اقرأها ويتسع فى ضوء هذه القراءة أفق تفكيرى . كنت أقرأ كتب علوم الاقتصاد والتاريخ والفلسفة وكانت كلها باللغة الانجليزية التى لا ادعى اننى كنت اتقنها فى ذلك الحين ، ومن ثم كان يساعدنى الاستاذ راؤل مكاريوس على فهم ما أقرأ ، وهو أحد اقرباء زوجها ، فى الكثير من الاحيان . كما كان يساعدنى زوجها فى بعض الاحيان . كانت العلوم التى أقرؤها ذات موضوعات لم اسمع عنها من قبل . وكانت تشغل تفكيرى وانا اقرؤها وبعد أن اقرأها . وكنت أحس بأن العلاقات الاجتماعية والسياسية تبدو أمام عينى واضحة وضوحا لم اكن اعهده قبل قراءة هذه الكتب . ولم اكن فى هذه الفترة استسيغ الاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية فآلت السيدة الزا على نفسها أن تيسر لى هذا الاستماع

والاستمرار فيه حتى سعدت به ومازلت حتى الآن . كانت تدفع لى مايوازى ثمن التذكرة لكي أحضر حفلات فى قاعة « ايوارت » حيث بعض الفرق الموسيقية العالمية تقيمها ويحضرها من الناس يملئون القاعة ويزيدون . وتذكرت الاستاذ يعقوب فام الذى كان يطلب من معلم الموسيقى ابراهيم افندى قنديل ان يحضر مثل هذه الحفلات « على حساب المؤسسة » لكى تزداد ثقافته الموسيقية مما يعود على أولاد مؤسسة الزفاف الملكى بالفائدة . كانت السيدة الزا تفعل معى ومع زملائى الاخصائيين الاجتماعيين بالمكتب من حيث الاهتمام بالاستماع الى الموسيقى العالمية ما كان يفعله استاذى يعقوب فام مع معلم الموسيقى . ولم يكن زملائى يهتمون بالاستماع الى الموسيقى العالمية بتشجيع السيدة الزا فقط بل كانت تشجعهم أيضا على القراءة فى العلوم التى كنت اقرؤها . وكنا جميعا والسيدة الزا معنا تذهب الى المتاحف محاولة منها أن نستوعب بعض ماتعكسه اللوحات المعروضة فنتذوقها ومن ثم يرتقى مستوانا فى حب الجمال والاستمتاع بتذوقه . كانت لا تعمل عملا مهنيا قالت السيدة الزا أن تصنع بعض الرجال من ابناء الشعب المصرى فى شخص بنات وابناء المكتب وبخاصة الذين كانوا يمتهنون مهنة الخدمة الاجتماعية . وعلى الرغم من مشاغل السيدة الزا فى بيتها فى ذلك الحين فانها كانت تحرص على وجود الوقت لتقوم بكل هذه النشاطات . واننى أذكر جيدا أنها كانت حريصة على زيارة بيوتنا جميعا . وقد زارت هذه البيوت فى المناسبات « فى العيد أو فى شهر رمضان مثلا » وفى غير المناسبات . ولم يمرض واحد منا أو احد اقاربه الا وكانت يد السيدة الزا تمتد بالمساعدة

العاقلة الضرورية . وكانت لا تتورع فى نقل المريض او المريضة فى عربتها « وكانت عتيقة ولكنها تعمل » الى المستشفى . او تعيد المريض او المريضة من المستشفى الى البيت ، وقد يكون موقع هذا البيت فى حارة « درب المقشات » بقسم الدرب الاحمر مثلا ! وهى الحارة التى كانت تسكن فيها اسرة عبد العزيز فتح الباب عندما كانت والدته مريضة فى ذلك الحين .

وكانت كل هذه الخدمات التى كانت تقوم السيدة الزا بها لى او لزميلاتى وزملائى تقابل بالامتنان . فنحن كاناس مستضعفين نتعامل ، فى ضوء قيمنا مع الذين يجاملوننا ، بالجميل . ومن ثم ازدادت الرابطة الانسانية التى كانت تربطنا بالسيدة الزا . وكان اعجابى بها وبما تقوم به اعجابا يفوق الوصف . فهى عند اعضاء اسرتى ملاك للرحمة وللحب وللخير . وهى عندى الملاذ الذى الجأ اليه اذا ما المت بى مصيبة من المصائب . ولن انسى ابدا وقفتها معى عندما مرضت امى ، وجاء معها الدكتور عبد العزيز عسكر والدكتور حليم مترى . جاءا ليريا ما اصاب امى دون أن يتوقع احدهما اجرا منى . كانت السيدة الزا ومازالت تفعل الخير بانماطه دائما وكانت ومازالت تخدم الانسانية لذاتها .

وعندما فكرت السيدة الزا فى انشاء جمعية اجتماعية لكى تشغل فيها وقت فراغها الذى بدأ فى عام ١٩٤٧ وكأنه يطول ، اقترحت عليها ان نجمع أولاد المؤسسة الذين تخرجوا فيها ويعيشون فى احد احياء القاهرة — وكانت فى ضوء خبرتها فى المؤسسة وفى المكتب تعلم عن هؤلاء الاولاد الكثير على ان نجعل من العدد الذى نجده من الاولاد فى الحى الذى نختاره نواة لنادى اجتماعى ثقافى . وقد لاقى هذا الاقتراح قبولا عند السيدة

ألزا . وكان قد أبداه الزميل واصف يوسف . وبعد تجارب قمنا بها وجدنا ان حى بولاق هو الحى المناسب ، فهو حى شعبى لا توجد فيه خدمات اجتماعية الا القليل فضلا عن ان عددا يزيد على العشرين من ابناء مؤسسة الزقاف الملكى كانوا من الحى كما كانوا ومازالوا فى ذلك الحين على علاقة متينة بى وببعض الاخصائيين الاجتماعيين الذين كانوا يعملون بالمكتب . وفى غضون شهر يونيو عام ١٩٤٧ تأسست « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » التى كانت السيدة الزا أول رئيسة لها وأصبحت مديرة لها حتى كتابة هذه السطور . وقد أكد تأسيس هذه الجمعية العلاقات الانسانية الكريمة بينى وبين السيدة الزا . واصبحت هذه العلاقات فى ضوء تجارب الحياة ، الحلوة والمرة على السواء ، علاقات انسانية كريمة لا انفصام لها .

وفى خلال عام ١٩٤٨ « أوائل شهر فبراير » اتيحت لى الفرصة لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم محاكمة الاحداث وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية، وسافرت فعلا الى المملكة المتحدة ، وانتهت دراستى فى شهر سبتمبر من نفس العام . كانت هذه الفرصة ، فرصة السفر الى الخارج فى نظرى فى ذلك الحين معجزة لم اكن اتوقعها وان تمنيتها . ولم اكن مستعدا لنفقاتها من حيث بعض الامور اهمها شراء ملابس وحقيبة ومايلزم لهذه الرحلة الى بلاد غير البلاد والحياة مع أناس غير الناس الذين أعيش معهم . وجاء اجتماع الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث . وكان الرئيس الدكتور محمد صلاح الدين ، وكسكرتير لهذه الهيئة كنت أجلس بجواره ، وقد حضر من الاعضاء الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد والدكتور عبد العزيز

عسكر والسيدة الزا ثابت وقاضى محكمة الاحداث الذى كان فى هذه الفترة الاستاذ حمدى حافظ . ولما عرض موضوع طلب قرض لى حوالى خمسين جنيهـــا مصريا من الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعيـــة ، انبرى الدكتور محمد عوض معترضا على اساس انه لاداعى لهذا القرض فالمجلس البريطانى « الداعى » سيتكفل بـكل المصاريف . فعندما ذكرت اننى فى حاجة الى هذا المبلغ لكى أستعد لشراء بعض الملابس التى ارى أنها ضرورية ، ذكر الدكتور عوض انه لاداعى لذلك فهو لديه « معطف» قديم ومستعد أن يعطيه لى ، وان الحاجة الى هـــذا المعطف هو كل ماهو ضرورى من الملابس . ولابد ان وجهى قد احمر خجلا عندما سمعت ماقاله هذا الدكتور ، ولكن الدكتور محمد صلاح الدين الذى كان يجلس بجوارى ضغط بيده على ساقى القريب منه وكأنه كان يقـــول « تجلد ولا تقل شيئا » ثم أردف سيادته مقترحا تأجيل هذا الموضوع الى جلسة قادمة . وتأجل الموضوع وعرضه الدكتور محمد صلاح الدين على مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية الذى وافق على منحى القرض على ان ادفعه على اقساط شهرية ، ولكن السيدة زاهية مرزوق « عضو مجلس الادارة وتقوم مقام أمين الصندوق الذى كان مسافرا خارج القطر » ذكرت أن ميزانية الجمعية لاتسمح باعطاء قروض لاحد . ثم جاء دور الدكتور محمد صلاح الدين الذى كتب مذكـــرة يطلب اعطاء القرض على أن يكون هو نفسه ضامنا لى . فتقهقرت السيدة زاهية ودفع المبلغ واشتريت الملابس الضرورية وبعض مايلزم للرحلة ، ولم يكن من حسن حظى معطف الدكتور محمد عوض محمد القديم من نصيبى . وهنا اقف وقفة لكى اقرر حقيقة ذكرها لى الدكتور عوض

من تعاسة الحال التى كان يعيش فى ظلها وهو صغير ثم وهو شاب حتى حصل على درجته العلمية . وانا اذ اذكر هذه الحقيقة كما ذكرت لى اعجب اشد العجب من تصرفه نحوى ولم اكن اعيش حياة الغنى والرفاهية . لماذا فعل هذا الرجل مافعل ؟ وعندما سالت هذا السؤال اجاب الاستاذ الدكتور عبد العزيز عسكر الطبيب النفسى « ان الدكتور عوض وامثاله معذورون ، فان اول مايستقبل فى الصباح يستقبل وجهه . فانظر الى وجهه . انظر الى وجهه مليا تجدالاجابة ياعويس » . واذا كان الامر كذلك فماذا عن موقف السيدة زاهية ؟ اننى حتى الآن لم اجد تفسيرا .

والملاحظ كما يرى القارىء ان السفر الى الخارج لكى استكمل تعليمى العالى كان رغبة قديمة . كان رغبة ابى ورغبة امى ورغبتى . وقد فاتنى السفر الى الخارج قبل هذه المرة ثلاث مرات . الاولى وكنت وزميلاتى وزملائى مازلنا طلابا بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فعندما جاءت المنحة الدراسية للسفر الى الولايات المتحدة الامريكية للمدرسة اختير لها شخص لم يكن طالبا بالمدرسة . اختير لهذه المنحة عبد الحميد زكى وكانت الحرب العالمية الثانية على الابواب فاقتنصها وسافر فى الوقت المناسب . وعاد الى مصر بعد ان وضعت الحرب اوزارها وتحت احد ابطيه درجة الدكتوراه وتحت الابط الثانى زوجة اميريكية . ثم اصبح عميدا للمدرسة عندما آثرت برتا فهمى ان تشارك زوجها فى اعماله التجارية ، وتركت العمادة من اجل التجارة . فعندها فى ضوء قيمها الاجتماعية الاميريكية ان النجاح كل النجاح هو النجاح المادى . تركت السيدة برتا عمادة المدرسة بعد عودة عبد الحميد زكى فورا . اما المرة الثانية

فقد كانت الدفعة الاولى قد تخرج اعضاؤها . وعندما جاءت المنحة الدراسية الثانية للمدرسة للسفر الى الولايات المتحدة الامريكية اختارت ادارة المدرسة الزميل بدراوى محمد فهمى الذى كان منتدبا من وزارة الاوقاف العمومية فى ذلك الحين ليعمل مساعدا للسيدة العميدة برتا فهمى . فكانت الادارة تعرفه وكان هو بالضرورة يعرف اعضاءها . كان بدراوى أحد خريجى المدرسة وكانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها فكانت الفرصة للسفر مواتية . فسافر للدراسة وعاد الى مصرنا العزيزة بعد خمس سنوات حاملا درجة الدكتوراه ، واصطدم بما حدث فى نظام المدرسة ولم يجد له مكانا بها وسعى الى الانتقال الى وزارة الشئون الاجتماعية التى كانت قد انشئت فى شهر اغسطس عام ١٩٣٩ ينتظر الوقت المناسب لكى يعود ادراجه الى المدرسة ليكون عميدا لها . وبعد انتهاء الحرب اعلنت وزارة المعارف العمومية عن بعثتين دراسيتين للتخصص فى مهنة الخدمة الاجتماعية وعلومها . وكان أملى فى واحدة منها كبيرا ، كنت الثانى على الدفعة الاولى وكانت خبراتى كبيرة فى مجالين من مجالات طرق مهنة الخدمة الاجتماعية وهما « مجال تطبيق طريقة خدمة الجماعة » . « مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد » . وكانت تجاربى فى « ميدان الجريمة وجناح الاحداث » التجارب الاولى لاول اخصائى اجتماعى مصرى محترف . وكذلك كانت تجاربى « فى مجال تطبيق البحث العلمى الاجتماعى فى هذا الميدان « من التجارب الرائدة . وتوقعت كما توقع غيرى ، المنافسون وغير المنافسين ، أن تكون من نصيبى احدى هاتين البعثتين . وكان أستاذى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى يكاد ان يؤكد لى تحقيق هذه الامنية . فقد

كان يعمل بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة اخصائيا نفسيا عندما كنت اعمل بالمؤسسة وكانت العلاقة بين المؤسسة وبين المكتب علاقة مهنية يمليها وجود العديد من الاحداث الذين يشرف المكتب عليهم ومن لم يقوم بدراستهم نفسيا الدكتور القوصى . وكان الدكتور يهمه تتبع حالة كل حدث قام بدراسته من الذين ارسلوا الى المؤسسة . وعلى الرغم من استقلال المؤسسة عن المكتب اداريا واستقلال المكتب عن المؤسسة اداريا فان حرص الدكتور القوصى على تتبع الحالات التى قام بدراسة أعضائها من الاحداث الذين ارسلوا الى المؤسسة كان حرصا شديدا . وكنت فى ضوء اقتناعى بما كان يقوم به اقوم بتيسير مهمة الدكتور القوصى وكنت أقابله فى « معهد التربية » : محل عمله ، او فى منزله ، لهذا الغرض مرة او اكثر فى كل اسبوع . اننى كنت اؤمن بالعلم . وانا اذ اساعد الدكتور القوصى اسهم فى تحقيق اجراء التجارب العلمية فى محيط السلوك البشرى غير السوى . وكنت افعل مالافعل عن طواعية ولكن من وراء ظهر الاستاذ يعقوب فام المشرف على المؤسسة فى ذلك الحين . كنت اعلم مدى ماتفعله « الغيرة المهنية » بين العلماء . وكان أستاذى يعقوب فام عالما مافى ذلك من شك ، وكان استاذى الدكتور القوصى عالما مافى ذلك شك ايضا ، ولكن حدسى من حيث هذه الغيرة لم يجىء عبثا . كان الواحد منهما يعتز بما حقق من أمجاد . وكان الدكتور القوصى لانه كان يحمل درجة الدكتوراه حديثا ولانه كان مازال فى المرحلة الاولى فى العمل الميدانى اكثر طموحا وماحققه كان اقل . ومع ذلك فانه فى ضوء خبرتى كان اتصال الدكتور القوصى بأحد اخصائى المؤسسة يثير عند

الاستاذ يعقوب الفرع . فقد كان يرى رحمه الله ان المسالة مسالة مبدا . فاذا كان الدكتور القوصى يريد شيئا فليدخل البيوت من ابوابها .

ومع ذلك فقد رشح لكل من البعثتين الزميل محمد محمد شلبى « وكان من الدفعة الاولى » والزميل محمود فهمى (وكان من الدفعة الثانية) . واذكر انى اصبت بغصة عندما علمت بهذا الترشيح ولم ابرا منها الا عندما رشحنى المجلس البريطانى فى شهر فبراير عام ١٩٤٨ لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم محاكمة الاحداث واساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية . ووجدت نفسى بعد حوالى عشرة ايام اخوض البحر فى احدى السفن الانجليزية . ابحرت من ميناء بورسعيد الى ميناء « ليفربول » ، ومنها الى مدينة « لندن » . وعشت هذه الايام مع ضابطين طيارين مصريين واحد المهندسين واحدى الانسات من موظفى وزارة الشئون الاجتماعية فى ذلك الحين . كنا خمسة اشخاص نجتمع على مائدة الافطار ومائدة الغداء ثم مائدة العشاء . فقد راى المسئولون عن التنظيم فى السفينة ان تفرد لنا نحن المصريين الخمسة مائدة واحدة نتقابل سويا عليها . ولعل هذا كما راوا ان يكون افضل فالعادات تكون بيننا بالضرورة متقاربة ، واللغة التى نتحدث بها واحدة ، وربما كانت افكارنا وموضوعات احاديثنا غير متباينة .

ومن العجيب ان كل هذه التوقعات لم تصب كبد الحقيقة . فقد كان كما يقال : كل له غرض يسعى ليدركه . بانت ظاهرة « الفردية » واضحة ونحن مازلنا على المركب فى عرض البحر . ولم اكن اعجب كثيرا فقد علمتنى الحياة باننا بشر . وان الناس فيها يعشقون مذاهب . ولكن الذى فاجانى اننى وجدت ماكنت اتوقع

فى سرعة مذهلة . فلم تحظ الآنسة التى شاركتنـــا الرحلة باهتمام احد الاهتمام الذى تتوقعه انثى مصرية من شبان مصريين . فعلى الرغم من ذكائها ورشاقة قدها واتقانها الفائق لتحسين وجهها « بالمكياج » ، فان الشبان الاربعة لم يهتموا بها الاهتمام الذى تتوقعه انثى مصرية من شبان مصريين . ومع ذلك كانت تجتمع معهم ثلاث مرات على الاقل يوميا وربما اكثر من ذلك . وكـــانت تتحدث مثل مايتحدثون فى مواضيع لايعرفون عنهـــا شيئا . وكانت تحدثنى اكثر مما تحدث الآخرين . فالمشاركة فى العمل يسرت الاستمرار فى الحديث . وبدا لى ان هذه الآنسة لا هم لها الا ان تتزوج . وكان كل الشبان الذين معها متزوجين قالت لى مرة ان سنها قد بلغت السابعة والعشرين وانها ان لم تتزوج قبل سن الثلاثين ستنتحر . وقد فزعت جداً لما قالت ولكنى لم اعلق على ماقالته بشىء .

كنت لاول مرة اركب سفينة كبيرة لها ادوار متعددة . وفيها اناس من كل الجنسيات ، وقد اسعفتنى لغتى فى الحديث مع كل من يتحدث معى . فقد كنت طالبا بالمعهد البريطانى اتعلم اللغة الانجليزية منذ اللحظة التى تركت فيها المؤسسة اى منذ شهر يناير عام ١٩٤٤ . وقـــد امتحنت قبل السفر فى امتحان « الدبلوم العام العالى فى التربية » الذى تعقده جامعة لندن فى كل عام « يمتحن فى هذا الدبلوم على مرتين ، وقد امتحنت فى عـلوم المرة الاولى فى اواخر عام ١٩٤٧ » وهاانذا انتظـــــر النتيجة . وكانت الحرب قد انتهت ولكن رائحتهـــا مازالت تزكم الانوف . وكانت الحرب فى فلســطين على قدم وساق . وكنا نسمع عن الحكومات العربية ومايفرق بينها . كما كنا نسمع عن موقف الانجليز من القضـــية

الذى كانت تؤازره دول الغرب الاخرى . ولاول مرة كنا نسمع كلمة « لاجئين » وعندما كنا نقرؤها فى الجرائد الانجليزية لم نكن نعلم معناها ، فكلمة كنت كلمة جديدة على قاموسنا فى ذلك الحين . والواقع عندما اقول « كنا » فانا اقصد « كنت » فانا منذ دخولى ميدان الخدمة الاجتماعية اصبحت اهتماماتى كلهـا منصبة على الاصلاح الاجتماعى . وكنت ارى ان هـذا قدرى . فالحاجة فى ضوء خبرات طفـولتى وشـبابى ومهنتى الى تغيير المجتمع المصرى فى ذلك الحين الى الافضل كانت ماسة . كنت اردد ان السياسة لا يمكن ان تكون خطبا ومظاهرات او تكسير الترام والفـوانيس فقط . ان السياسة لابد ان تكون معرفة الواقع الحى ، معرفة ماهو كائن ، موضوعيا ، لكى نغيره الى مايجب ان يكون او الى مايمكن ان يكون . اعتبرت ان عمـلى الاجتماعى فى ذلك الحين قدرى . واننى فى حقيقة الامر اعمل بالسياسة . فالسياسة يجب ان تكون كمـا كنت اقول فى ذلك الوقت محو الامية والقضـاء على الفقـر ومكافحة الامراض بكل انواعها جسمية كانت او نفسية او عقلية . كنت بعيدا عن السياسة بالمعنى الذى كنت أفقهه قبل ان اقتحم العمل الاجتماعى ولكنى لم أكن اسخر من الذين يعملون بصدق فى السياسة . كنت كلما تذكرت الزعماء مصطفى كامل ومحمد فـــريد ومن قبلهما عرابى وعبد الله النديم كان تذكرى هذا يشجعنى وكنت كلما اتذكر هؤلاء الزعماء وغيرهم اتذكر ابى وهو يجلس مع اصدقائه الوطنيين عندما كانوا يتحـدثون حديث السياسة ويذكرون مدى التضحيات التى بذلها الزعماء عن طواعية فى سبيل مصرنا الخالدة .

وفى ميناء ليفربول وقفت السفينة ونودى على اسمين

كان اسمى بينهما ، اما الاسم الثانى فقد كان أسم الآنسة التى كانت ترافقنا . وطلب منا ان ننزل الى المدينة حيث توجد حفلة اجتماعية مقامة بقصد جمع التبرعات للعجز والعجزة فى المدينة . ولما كنا « الانسة المرافقة وانا معها » مهتمين بالعمل الاجتماعى فقد دعينا لنحضر هذه الحفلة ثم نبيت فى المدينة ومنها نذهب الى مدينة لندن فى صبيحة اليوم التالى .

وهانذا فى مدينة لندن . كان ذلك فى منتصف شهر فبراير عام ١٩٤٨ . وهانذا ابلغ سن الخامسة والثلاثين من عمرى . فترة طويلة مرت حتى تحقق الحلم . مدينة واسعة مزدحمة . الناس فيها غير الناس الذين اعرفهم . وبدا لى بل تحقق ان العلاقات الاجتماعية مختلفة عما كنت اعرف وامارس . كنا فى السفينة ولاول مرة فى حياتى تاكل على المائدة باسلوب يختلف عن الاسلوب الذى كنت امارسه فى بيتى فى القاهرة . كانت أمامى ملاعق وشوك وسكاكين مختلفة الاحجام والاغراض . فهذه ملعقة « الشوربا » وتلك ملعقة « الحلو » وهذه « شوكة لا تستعمل الا اذا كان الطعام سمكا » وهذه سكين يمكن ان تستعمل لقطع اللحوم ، وهناك سكين لا تستعمل الا اذا كنت تاكل فاكهة معينة . ولكن هناك نوعا ثالثا لا يستعمل الا اذا كان الشخص منا ياكل سمكا ايضا ، فاكلة السمك لها شوكة خاصة كما ان لها سكينا خاصة كذلك . لقد كنت اعلم بعض هذه الاشياء منذ ان كنت تلميذا بالمدرسة الابتدائية . وعندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية . ولكن هذا الزمن كان قد ولى ، واصبحت آكل كما كانت امى وزوجتى تاكلان ، وكما كان اعضاء اسرتى الآخرون وحتى اصدقائى ياكلون . وعندما ذهبنا « الانسة المرافقة وانا معها » الى الفندق ، وجدنا

أوضاعا أخرى مختلفة . وكان أهم مالفت الانظار الطقس البارد والثلج الذى بدأ ينهمر فنحن فى شهر فبراير . ولم أكن قد رأيت الثلج من قبل عيانا بيانا الا فى أفلام السينما ، وهأنذا أواجهه وجها لوجه . ونحن لم نختر الفندق الذى وصلنا اليه ، بل اختاره لنا ، مسبقا كما تأكد لنا بعد ذلك ، مندوب المجلس البريطانى الذى استقبلنا على محطة لندن . فكان وجود هذا المندوب رحمة أكرمنا الله بها وبلسما مر على نفوسنا التى كان يملؤها مزيج من القلق والحيرة من المجهول فبدد كل ذلك بسحر لقائه غير المتوقع . وعرفت غرفتى فى الفندق كما عرفت الانسة المرافقة غرفتها ، وكان الوقت موعدا مناسبا لتناول طعام الغداء ، فجلسنا على مائدة واحدة . وحرصت على أن أصحب الآنسة المرافقة على المائدة فى مواعيد الوجبات الثلاث . وظن البعض أننا زوج وزوجة . فقد كنت ترى احدى الانجليزيات تقتحم جلستنا على المائدة فتتحدث مع الآنسة المرافقة حديثا عابرا وفى خلال هذا الحديث تحاول أن تشبع فضولها بالسؤال عما اذا كنا زوجين ، ولم يكن يهمها فى قليل أو فى كثير مضمون الاجابة عن هذا السؤال الفضولى . كنا شابين وكان من المحتمل أن تكون هذه الآنسة زوجتى وأن أكون أنا زوجها لولا أننا لم تكن كذلك . وكنا نجلس فى احدى حجرات الفندق لقراءة الجرائد أو للتحدث أو التعليق على ماكنا نرى من ظواهر وعلاقات اجتماعية وأنماط السلوك . ولم تكن فى الفندق الوحيدين . كان معنا العديد من الناس . كان بعضهم من أهل البلاد وكان بعضهم أجانب مثلنا . وكانت المملكة المتحدة قد خرجت من الحرب مثخنة بالجراح . وكنا نرى آثار ذلك فى الطعام وفى الشراب

وفي الملابس وفي الشوارع حيث البيوت المهدمة ـ وكان انقطاع التيار الكهربائي يحدث اكثر من مرة في اليوم . ولكن الناس كانوا يعلمون سلفا الوقت الذي سينقطع فيه التيار ، وبدات احس بقيمة الانسان في هذا المجتمع تجسدت امامي صورا عديدة من المواطنة . فانا اذكر « نحميس » الموظف في المعهد البريطاني بالقاهرة الذي ما ان علم بسفري الى لندن حتى أرسل على عنوان منزلي « بطانية » من الصوف اعطيها لاخته التي تعيش وتعمل في لندن . والملاحظ ان هذا النحميس على الرغم من انه يهودي ، وهذا في حد ذاته في ضوء قيمي في ذلك الحين وحتى الان لا غبار عليه ، كان موظفا متعسفا يتلذذ فعلا وواقعا بعذاب الاخرين والاشتراك في تعذيبهم سواء كانوا طلبة او موظفين يعملون تحت امرته . كان موضع ثقة المسئولين عن المعهد من الانجليز المسيحيين او اليهود فان علم ذلك عند ربي . وانا اذكر ايضا « مس ديفونشير » احدى الذين اسهموا في انشاء الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وكانت تعيش في مصر ، انها عندما علمت بسفري الى لندن طلبت مني ان آخذ معي « بلوفر » من الصوف لكي اعطيه لاحدى السيدات اللائي يعشن في لندن ، وارسلت معه خطابا موجها الى فيه عنوان المرسل اليها ومرفق به ورقة بخمسين قرشا مصريا كمصاريف بريد اذا اردت ان ارسله بالبريد . ولعل من اهم مظاهر المواطنة ماقام به مندوب « المجلس البريطاني » من اجراءات تتعلق بالاجانب الوافدين الى المملكة المتحدة ، وكان اهمها في ذلك الحين الدفتر الذي عن طريق « كوبوناته » يصرف الشخص منا نصيبه الاسبوعي من الوان الاطعمة مثل

اللحم والجبن والسكر والبيض والفاكهة « كان لا يباع الموز الا لمن هم فى سن الثامنة عشرة فاقل » وكل أنواع الحلوى وبخاصة « الشيكولاته » والملابس « كان لايمكن شراء منديل الا اذا دفع المشترى ثمنه مع عدد معين من الكوبونات » .. الخ . ولا يمكن ان انسى ابدا عندما احسست ذات مرة بالجوع ورأيت ان اشترى قطعة من الشيكولاتة لأسكت بها صراخ معدتى . وذهبت الى المحل الذى يبيع الحلويات ومنها الشيكولاتة فوجدت « طابورا » وقفت فى اخره وجاء الذى بعدى فوقف من ورائى حتى وجدتنى وجها لوجه امام البائع فطلبت قطعة معينة من الشكولاتة وسألت عن الثمن فذكره وقال وبالاضافة الى النقود تعطينى وذكر عبارة سمعتها « رشن كوينز » — Russian Coins وترجمتها عندى « نقود روسية » . فقلت والطابور من ورائى يطول « اننى هنا فى لندن ولست فى موسكو فكيف أحصل على نقود روسية ..؟ وفطن الرجل الى ما انا فيه من حرج لولا أن اخرج الشخص الذى كان من ورائى دفتره الخاص بشراء الحلوى وأعطى البائع ما طلب من كوبونات . ان البائع لم يطلب منى نقودا روسية ، فهو لم يذكر العبارة التى اعتقدت اننى سمعتها ، انه ذكر عبارة — Ration Points والذى تفضل الشخص الذى كان يقف خلفى فى الطابور وتطوع باعطائها للبائع حتى احصل على بغيتى . ولولا ذلك ماكنت احصل عليها . فالكل فى هذا المجال سواء والا فالقانون يقف للمخالف بالمرصاد . وانا لا اعنى هنا ان مواطنى المملكة المتحدة ملائكة . فقد رأيت من بعضهم ما يؤكد صورا عديدة من التعصب العنصرى والتعصب الثقافى . ولكنهم كانوا يفعلون مايفعلون بأساليب غير مفضوحة ،

فيكفى ان عينى سوداوان ولم تكونا زرقاوين لاعامل معاملة غير منصفة . وسائق « التاكسى » اذا طلبت منه الذهاب الى السفارة المصرية مثلا يعـــاملنى معاملة فظة ويصر اصرارا على طلب « البقشيش » الذى يوافق عليه . اما اذا كان ذهابى الى المجلس البريطانى فالمعاملة تبدو معاملة كريمة واذا أعطيته « بقشيشا » يأخذ ما اعطيتـــه دون ان ينبس ببنت شفة . كنا نحن المصريين نعلم ذلك . وكنا نحن المصريين نتحمل ذلك من أجل ان نحصل على مانريد انظر الى بائعة الفاكهة وانا اشترى منها فى ذلك الحين « والحرب مازالت رائحتها تزكم الانوف » وادفع ثمن ما أشترى تنسى « لانها تجهل » أن النقود التى أدفعها هى نقود امتصها الانجليز المستعمرون من دماء الشعب المصرى الذى يكدح ليجعل من ارض مصر مزرعة للقطن الذى تغزله وتنسجه مصانع « لانكشير » . انظــر الى هذه البائعة وهى تزمجر فى وجهى قائلة « أنتم الاجانب تأتون الينا وتأكلون أقواتنا » . انها لاترفض البيع لى ولكنها بقولها لى ذلك أجد حلقى مرا . انظر ايضا وانا الحريص على ان اكون فى الوقت الذى حدده لى أحد المسئولين فى المجلس البريطانى لمقابلته ، فذهبت مبكرا حوالى الساعة . وعندما مررت فى الشارع وجــدت سينما لا تعرض الا الاخبار . فقلت ادخل هذه السينما لارى الاخبار حتى يحين موعدى . وكـان من ضـــمن الاخبار « الامير عبد الله » امير الاردن فى ذلك الحين وهو يصلى فى المسجد الحرام . وعندما كبر للصـــلاة « وكان هو الامام » سمعت همهمات انسانية تملأ القاعة المزدحمة ، ولما ركع صارت الهمهمات ضحكات ، وانقلبت الضحكات صيحات ساخرة عندما سجد . وانتهت الصلاة وانتهى العرض . وخرجت ساخطا متعجبا مفكرا . كان

ماحدث وانا فى قاعة السينما مفاجاة لى لم اكن اتوقعها من شعب متحضر . اننى كثيرا ماذهبت الى الكنيسة فى القاهرة ، وكنت اجلس جادا واشاهد ما اشاهد وانا فى رهبة . كنت ، ومازلت ، لا افرق بين دخول مسجد من المساجد او كنيسة من الكنائس . انها أماكن لها سمات خاصة وتعيش فى ظل مناخ ثقافى يدعو الى التامل والتفكير الجاد . اما مارأيت فى قاعة « سينما ستوديو واحد » اى القاعة التى عشت فيها اول تجربة لى عندما كان الامير عبد الله يصلى فى المسجد الحرام فقد كان امــــرا غير متوقع . وقد دعانى هذا الامر الى التفكير كثيرا . ولم اصل الا الى اننى ذكرت انه اذا كانت النيات حســـــنة فالثقافة التى يعيش فى ظلها المواطنون فى المملكة المتحدة متباينة . هم يقدسون امورا قد لا نقدسها ، ونحن نقدس امورا قد لا يقدسونها . ولكننى فى ضوء خبراتى الماضية وحتى ذلك الحين وبعد ذلك الحين وحتى كتابة هـــذه السطور اجدنى أقرر ان النيات لا تكون حسنة على الدوام وان المصالح ، مصالح الناس ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، اى ان كل او معظم مايصدر عنـــا من انماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك .

— Hull

وكنت جالسا بعد الغداء مع الآنسة المرافقة عنـــدما جاء مندوب المجلس البريطانى الذى ابلغنا بأن البرنامج قد أعد . فكل الدارسين سيذهبون الى ميناء « هل » غدا ، وكنا فى الأسبوع الرابع من شهر فبراير . وبعد قضاء اربعة أسابيع سيوزع الاعضاء الى مواقع عمل كل فيما يخصه . وعرفت لاول مرة أننـــا لسنا وحدنا بل سيكون معنا دارسون آخرون . ولـما كان تخصصى وهو « دراسة نظم محاكمة الاحـــداث

وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية » ، فان هذا يعني ان اتصالى بالآنسة المرافقة لن يدوم . وقد كان ذلك لى املا ، كنت ادعو الله وانا ساجد ان يتحقق . فقد تركت امي وزوجتي واحمد وسمير وتيسير « التى شرفتنا فى يوم ٢٣ من شهر ابريل عام ١٩٤١ » ومسعد « الذى شرفنا فى يوم ١١ من شهر ابريل عام ١٩٤٣ » . وهم الاعزاء الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم وكانوا يعيشون معي . كانوا قطعة مني وكنت قطعة منهم . لا ارى سيدة عجوز الا وذكرت أمي ، ولا ارى شابة فى الثلاثين او اكثر بقليل الا وذكرت زوجتي . واطفالى احمد الذى اصبح الآن فى سن الخامسة عشرة وآمال التى اصبح سنها احدى عشرة سنة وسمير الذى بلغ من العمر تسع سنوات ، وتيسير التى اصبحت فى سن السابعة من عمرها ومسعد الذى لم يعد الخامسة من عمره . انهم اجزاء من حياتى التى عشتها ولولا أن حرمني جدى من اكمال التعليم وانا فى السنة الرابعة الثانوية فى مدرسة الخديوية الثانوية غدرا ، ولولا امل ابى الذى كنت فى صدق ابغى ان احققه ، ولولا شغفى بالعلم الذى كان يزداد يوما بعد يوم – ماتركت هؤلاء الاعزاء ، الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم ، وكانوا يعيشون معي . كنت فى الغربة ولكن مشاعرى نحو هؤلاء الاعزاء كانت تجعلنى لا احس مرارتها . وكان لى من تدينى الدفين وجاء يحميني من النزوات ومن التفكير فيها .

ركبت القطار الى ميناء « هل » وكان المناخ عاصفا . والثلج من السماء ينزل غزيرا غزيرا . ويبدو أن الدارسين كانوا يركبون نفس القطار . ولكني لم أكن اعرف احدا منهم سوى الآنسة التى كانت ترافقنى . وما ان وصلنا الى الميناء حتى وجدنا عديدا من الاشخاص سيدات

ورجال واقفين ينتظرون . واذا بهم بعد ان علموا من نحن « اقصد الدارسين جميعا » يرحبون بالجميع . كان البرد قاسيا وادخلنا في مبنى فيه قاعة في احد اركانها مدفاة فاذا بنا نلتف حولها وكأننا « كتاكيت » تلتف حول « دجاجة » تلتمس الدفء من جسدها . كنا عشرين شخصا من بلاد متعددة . كان بعضنا من فرنسا ومن بلجيكا ومن ايطاليا ، وكان البعض الآخر من المانيا الغربية ومن الدانيمارك ومن اليونان فضلا عن زميلتي وانا. وجلسنا على موائد كان يجلس عليها الذين استقبلونا . كان ممن يجلسون نساء ورجال او نساء فقط . وطلب منا ان يجلس كل واحد منا على احدى الموائد . وكان عدد الموائد عشرين . فجلست على واحدة منها ، وجلس كل دارس على مائدة ايضا . وعرفنا أن الجالسات والجالسين على الموائد كانوا كلهم من اهل الميناء ، وكانوا على وفرة من الرزق لكي يستضيفونا . وكان نصيبي ان اذهب مع السيدة التي كنت اجلس معها على المائدة التي لم أختر الجلوس عليها ولكنني جلست لمجرد وجود كرسي خال أمامها . ذهبت مع السيدة ضيفا على اسرتها كما ذهب زميلاتي وزملائي ضيوفا على أسر من استضافوهم . وكانت فرصة مزدوجة لكل من الضيوف والمضيفين . كنا نحمل ثقافات متعددة . وكانت الفرصة مواتية لكي نتبادل عناصر ثقافة كل واحد منا .

وعرفنا نحن الدارسين البرنامج الدراسي الذي سنتبعه ونحن في ميناء هل . كان يتضمن دراسة نظم الخدمة الاجتماعية في هذا الميناء . وكان برنامجا حافلا على الرغم من انه كانت تتخلله فترات تناول الطعام الجماعي وبعض الحفلات التي كانت تقام على شرفنا . وانني اذكر انه بعد مرور اسبوع ونحن في الميناء اذا بالزميل جمال نصوحي

والزميل احمد كمال ينضمان الينا . وقد وجدا فى التو باسرتين استضافتاهما واستكملا معنا البرنامج الذى استغرق اربعة اسابيع . وجدت فى خلالها حياة الطبقة الانجليزية ذات المستوى المادى الرفيع كيف تعيش . وكنت حريصا وانا اعيش فى الاسرة التى قدر لى ان اعيش مع اعضائها على أن الاحظ مايبدو لى من علاقات اسرية بين الزوج والزوجة وبين الام والابنة « وحيدة الاسرة » وبين الاب والابنة ، وبين الجميع والخدم والحشم الذين يحيطون بهم . كانت اسرة فيها النعيم المادى واضحا جدا ، ولكنها كانت بيئة لم اطق ان اعيش فيها الا لكى الاحظ وادرس واتعلم . كنا نتحدث احيانا فى العلوم الاجتماعية التى كنت الم بها : وكان صاحب البيت « الزوج » مهتما بالسياسة وبعلاقة مصر بانجلترا ومايجب ان تكون ، وكانت صاحبة البيت « الزوجة » ، وكانت تبدو فى الخمسين من عمرها ، تهتم اهتماما بالغا بزينتها وبموعد طبيب الاسنان وبالذهاب الى « الحمام التركى » الذى يوجد فى ميناء « هل » . اما ابنة الاسرة الوحيدة فقد كانت شابة فى العشرين من عمرها وربما اكثر من ذلك ، وكانت قد تخرجت فى مدرستها رفيعة المستوى ، المدرسة التى يذهب اليها من كانوا من طبقتها ، Public School — وقد بدا لى انها متوقعة ان تتأهل فى القريب العاجل ، وان خطيبها فى رحلة عمل وينتظر ان يعود قريبا . ولما عرفت هذه الاسرة اننى Egyptian — ظنوا أننى Gypsy — وشتان بين مضمون كل اسم . فاعضاء الاسرة على الرغم من الثراء فى المال وفى « الثقافة » لم يستطيعوا ان يفرقوا بين معنى الاسم الاول وهو

« مصرى » وبين معنى الاسم الثاني وهو « غجرى » . اى شخص يستطيع أن يقرأ « الطالع » مثلا . ولما كنت اعرف قليلا فى « قراءة الكف » تركت اعضاء الاسرة وبخاصة الزوجة والابنة والزوج يثقون فى هذه المعرفة على الرغم من تاكيدى لهم جميعا ثقتي فى عبارة « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وجاءنى الجيران وبخاصة النساء من كل مكان لاقرأ لهن « الكف » . واصبحت سمعتى فى هذا المضمار فى محيط الاسرة التى اعيش معها وجيرانها سمعة عالية لم اتخلص منها الا عندما إتم الدارسون وانا منهم « برنامج دراسة نظم الخدمة الاجتماعية فى ميناء هل » .

ومن ميناء هل ذهبنا الى لندن وعشت فى نفس الفندق الذى كنت اعيش فيه قبل ان اتركه للذهاب الى ميناء هل . لم اعد الى الفندق وحدى ولكنى كنت فى صحبة الزميلة المرافقة والزميلين جمال نصوحى واحمد كمال . وبتنا ليلتنا كل فى حجرته ، وفى الصباح وجدنا الزميل صالح الشبكشى جالسا فى احدى غرف الاستراحة فى الفندق . وكانت فرصة رائعة ان نعيش فى بلد اجنبى وكأننا كنا نعيش فى بلدنا . ومالبثنا ان تفرق الجمع . ذهب كل واحد منا الى الموقع الذى سيتدرب فيه . ولما كان اهتمامى هو دراسة نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم فقد اختير لى ان اذهب الى« وولفش» حيث يقع مكتب للمراقبة الاجتماعية بالمحاكم فيها . ونصحنى المجلس البريطانى ان انتقل الى احدى الاسر التى تقع بالقرب من هذا المكتب . وذهبت فعلا الى أسرة « مستر بريموكوم » ، حيث وجدت زوجته وابنه وخطيبة ابنه وبعض الدارسات والدارسين ممن يتحدثون اللغة الفرنسية اما لانهم فرنسيون او جاءوا من بلاد

يتحدث أهلها اللغة الفرنسية . وقد جاءوا الى اسرة
مستر بريموكوم لكى يتدربوا على التحدث باللغـــة
الانجليزية . اى ان هذه الاسرة كانت ، وربما مازالت ،
مدرسة لتعليم الحديث باللغة الانجليزية عن طـــريق
الممارسة ، وبخاصة وان ربة الاسرة « مسز بريموكوم »
كانت فرنسية الاصل . ومهما يكن من الامر فان هــذه
الوظيفة لم تكن لتهمنى فى شيء . فقد جئت الى الاسرة
لكى ابيت واتناول وجبات الطعام لقربها من المكتب الذى
وقع الاختيار عليه لاتدرب فيه على نظام المراقبة الاجتماعية
بالمحاكم . وقد وجدت بمرور الزمن أن عددا من النزلاء
كانوا فى الاسرة من اجل نفس الغرض اى لمجرد المبيت
وتناول وجبات الطعام فحسب . وبقيت فى موقعى ادرس
واتدرب . ادرس الحياة واتدرب فى مكتب المراقبـــة
الاجتماعية بالمحاكم . وكانت خبرتى تسمح لى بالمقارنة
الموضوعية بين ما كنت أعمـــل فى مـــكتب القـــاهرة
وما أراه فى مكتب وولتش . ومرت الايام سراعا وابلغت
موعد الانتهاء من التدريب فى هذا الموقع على ان اكون فى
مدينة « كارديف » « ويلز » فى الاسبوع الاول من شهر
مايو عام ١٩٤٨ ، لاتدرب فى مكتب المراقبة الاجتماعية
بمحاكم كارديف لفترة شهرين [illegible]
[illegible]
بعض المراقبات الاجتماعيات والمراقبين الاجتماعيين [illegible]
الذين يعملون او سيعملون فى مكاتب المراقبة الاجتماعية
فى انجلترا او ويلز . وكما كنت الشخص الوحيـــد
المدرب فى مكتب وولتش اصبحت فى كارديف الشخص
الوحيد أيضا . واذا كانت وولتش احدى ضواحى لندن
حيث يقع بالقرب منها خط « جرينتش » المشهور فان
كارديف عاصمة مقاطعة ويلز . وهى فى حقيقة الامر ميناء

كبير ونشاطاته التجارية يعرفها القاصي والداني .
عشت فى « ريتشموندهاوس » وهو بيت تديره صاحبته « مسز بوينر » لتساعد زوجها الذى يعمل فى أحد المصانع فى بلد قريب لمواجهة الحياة والصرف على تربية ابنهما الوحيد الذى يدرس فى أحدى الكليات . عشت فى هذا البيت لفترة شهرين ونصف شهر تقريبا . جئت فى الاسبوع الاول من مايو وكنت وحدى وتركته الى القطار فى منتصف شهر يوليو وكان معى مسز بوينر وزوجها وابنها مودعين . وعلى الرغم من انني كنت مستغرقا فى دراساتى الاجتماعية فقد كانت الامور السياسية تجتذبنى . فانا اقرأ الجريدة فاقرأ ضمن ما اقرأ ماكان يحدث فى فلسطين قبل شهر مايو عام ١٩٤٨ وماحدث فى اثناء هذا الشهر . وكنت أحاول ان اتخيل ماسيحدث بعد ذلك فى فلسطين التىاصبحت « اسرائيل » . ومع ذلك فان التفكير السياسي عندى لم يكن ذا بال لانه لم يكن عميقا . وكنت أرى فى ذلك الحين ان مهنة الخدمة الاجتماعية فى محيط الاحداث الجانحين هى قدرى . ولكن رأيتنى اذ اترك القراءة فى السياسة اعود فاقرأها . وبدأت اطالع صحف «التيمز» و « الديلى اكسبرس » و « الديلى ميل » فضلا عن « الديلى وركر » . وكنت أجد الاعلانات عن الكتب فى الجريدة الاخرى وامنى نفسى بشرائها فى يوم من الايام . وكنت أجد الاعلانات عن المحاضرات وموضوعاتها التى كانت تجتذبنى وانذر فيما بينى وبين نفسى اننى عند عودتى الى لندن سأحضرها . اننى كنت أحضر الصلاة فى الكنائس واسمع المواعظ فيها وفى الاذاعة ، وانا المسلم الذى مازلت أؤمن بأن الدين هو المعاملة ، فما على لو ذهبت الى محاضرة من المحاضرات او كل

المحاضرات التى تنشر عنهـــا وتعلن عن موضوعاتها ومواعيدها صحيفة الديلى وركر ؟ اننى اريد أن اتعلم . الم يكن هتافىمع آخرين وانا فى القاهرة امام مكتب وزير المعارف العمومية فى النصف الاول من الثلاثينات باعلى صوت ، « نريد ان نتعلم » ؟ وهاهو ذا العلم يرحب بى أفلا ارحب به ايضا ؟ الم اسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ؟ ان الدراسات السياسية مازالت بعيدة على الرغم من اشواقى اليها . ولكن عام ١٩٤٨ ، شهر مايو ، وانا فى الغربة ، عام التقسيم ومذبحة « دير يسن » وقيام دولة اسرائيل قد زاد من هذه الاشواق الى الدرجة التى جعلتنى اشعر بالذنب لتقاعسى عن محاولة فهم مايدور حولى فى دائرتى الضيقة وفى بلدى وفى العالم اجمع ، ان هذا العام قد فعل فى نفسى الكثير والعظيم ولعله أن يفعل الاكثر والاعظم . وسرعان ما تذكرت ماكان يحدث من نقاش بين تلاميذ اسرة البريموكوم . كان من بينهم وطنيان من فيتنام ، وكانا يتحدثان كثيرا عن « هوشى منه » : تعاليمه وأهدافه نحو تحرير وطنه من المستعمر الفرنسى « الفـــربى » والاساليب التى يتبعها فى سبيل تحقيق هذا المأرب . كانا يذكران لى ، وقد علما أننى مصرى وان مصر مازالت تحت نير الاستعمار الانجليزى ، فى الصراع الافى العلانية كل ذلك ، وكانا يضيفان نبذات من تاريخ حياة « هوشى منه » . وكان كل ماسمعته منهما جديدا على اجتذب انتباه افكارى . وعلمت ان ضروب المعرفة الوان شتى . وأن القضايا الانسانية متعددة . وان النظر الى كل قضية قد يحتمل اكثر من راى ومن اتجاه ومن هدف .

وعلى الرغم من اهتمامى الشديد بكل الامور المتعلقة بتدريبى وأنا فى كارديف ، فاننى تركت جانبا للتفكير

فى الامور الاخرى . وعزوت عزوفى عن عدم الإهتمام الكافى بالامور السياسية وانا الذى نشأت فى حضن افكار مصطفى كامل ومحمد فريد ومن قبلهما عبد الله النديم الى عدم الوعى الكافى عندى . اننى لم افرق فى ذلك الحين بين مفهوم « المصلح الاجتماعى » ومفهوم « المصلح السياسى » ومفهوم « المفكر » . وكنت افرق بين المصلح الاجتماعى والمصلح السياسى مع العلم بأن اهداف كل واحد منهما تكون أو لابد ان تكون واحدة . كنت افرق بين الدورين . ولم اكن أعلم شيئا عن مفهوم المفكر ودوره . وقد حدست فى ذلك الحين ، وكانت سنى قد زادت على الخامسة والثلاثين ، ان مفهوم المفكر غير مفهوم المصلح سواء كان هذا المصلح اجتماعيا أو سياسيا . وأن دور المفكر لا يمكن أن يكون سوى أن يرشد المصلح ، انه لا يصلح ولكن يرشد المصلحين وينشر الوعى بين القادرين على استيعاب هذا الوعى . وتساءلت فى صدق وفى روية « ماهو قدرى » ؟ ولم استطع الاجابة عن هذا السؤال فى ذلك الحين . ولكنى اكدت لنفسى اننى مازلت ، على الرغم من أننى كنت قد تصورت اننى بدأت فعلا ، فى البداية . وامامى ماوسعنى الزمن مصدران من المعرفة الانسانية المنتظمة منها وغير المنتظمة وهما الدراسات الاكاديمية ودراسات المجتمعات الانسانية : دوائر المعارف الحية التى احيا بين أعضائها من الناس سواء أكانوا افرادا ام كانوا جماعات . وتذكرت فى حسرة اننى حتى الان لا اعرف الا القليل القليل عن تاريخ مصرنا الخالدة منذ عصر ماقبل التاريخ وحتى الآن اننى لا اعرف عن المجتمع المصرى المعاصر شيئا هاما ، ولا اعرف عن ثقافته ومصادرها سواء اكانت فرعونية أم فارسية ام يونانية ام رومانية ام مسيحية ام عربية

اسلامية ام مملوكية ام تركية ام غربية الا الشذرات .
فاذا كنت أريد ان ابدأ فمن هنا يجب ان ابدأ .

وفى منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ عدوت الى لندن لاكون ضمن جماعة من الدارسات والدارسين البريطانيين لتلقى دراسات اكاديمية عن موضوع التخصص الا وهو نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم . وانا لا اذكر امورا كثيرة عن ميناء كارديف . ومن الامور التى اذكرها انني كنت احذر من الذهاب الى حى بعينه بعد الساعة السادسة مساء . وكنت لا اذهب الى هذا الحى بعد السادسة مساء ، ولكنى كنت ، حبا فى الاستطلاع ، اذهب الى هذا الحى نهارا جهارا . وكنت سائرا ذات يوم متجها نحو البحر فاذا بشاب يتحدث من ورائى بصوت عال قائلا باللغة العربية : « والله العظيم الجدع ده مصرى » ، وقد لفتت سمعى كلماته فالتفت اليه فاذا به يضحك جذلا مسرورا . كان مصريا من ميناء « بورسعيد » قذفته امواج المقادير الى ميناء كارديف حيث اقام وتزوج وانجب ، ولكنه مازال فى صميم كيانه مصريا . وكانت لحظة انسانية اذكرها على الدوام .
واذكر ايضا اقامتى مع أسرة بوينر . فقد كانت اقامة طيبة . اعتبرت واحدا منهم . وفى فترات العطلات الرسمية عدا عطلات الاسبوع كنت ارافق اعضاء الاسرة فى رحلاتهم القصيرة التى يختلسونها من الزمن ترويحا عن النفس او اداء لواجب من الواجبات . ومن هذه الواجبات زيارة ام مستر بوينر التى كانت تعيش بسبب كبر سنها فى « دار ضيافة » للمسنين والمسنات . وذهبت مع اعضاء الاسرة لزيارة الام ظانا انها تعيش فى بيت عادى . ولما وجدتها مع غيرها تعيش فى دار ضيافة اهتز جهاز قيمى . انها تعيش حياة سعيدة مافى ذلك

من شك ،حياة مشتركة فى مكان جميل نظيف هادىء يشع المشاعر الانسانية التى تصدر عن قلوب صافية قلوب المرضات والمشرفات والاطباء وغير هؤلاء من العاملين . وكانت السيدة العجوز فى غرفتها عندما وصلنا الى الدار ، واستقبلنا ابنها وزوجته وحيدها ثم أنا . وما ان علمت بأننى مصرى تهللت أسارير وجهها الذى تملؤه الغضون وقالت « مصر » انها ذكرت فى « الكتاب المقدس » . وكانت معلومة جديدة على لم أكن اعرفها من قبل اليوم . وجلسنا فترة من الوقت ، وعندما آن وقت الرحيل رحلنا ، واذا بى اذكر امى وانا أسأل نفسى ماذا يكون الامر اذا مافعلت لامى مافعله مستر بوينر لامه ؟ ورددت على ذلك توا وكأننى اتحدث « مستحيل .. مستحيل » .

كان الدارسون من النوعين ، وكان معظمهم من البريطانيين ، ولم اكن الاجنبى الوحيد بينهم بل كانت معنا آنسة من الملايو . كانوا يعيشون ويتعلمون ويتدارسون فى مكان مخصص لذلك فيما عداى والمواطنة الوافدة من الملايو . ان الدارسات والدارسين البريطانيين سيعملون معا فى نفس الميدان كل فى موقعه . واريد بحياتهم المشتركة ان يكون التعارف بينهم على أسس وطيدة . فالعمل فى ميدان الاحداث الجانحين وبخاصة فى مجال تطبيق نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم يحتاج الى التعاون بين العاملين فى هذا الميدان ، حتى ولو كانت مواقع العمل متباعدة . فالذى يعمل فى لندن قد يحتاج لمن يعمل فى كارديف والعكس صحيح . ان الاحداث هم أبناء الوطن ورعايتهم انى وجدوا مسألة لايشك فيها احد من الدارسات والدارسين .

واذا كانت الحياة فى ميناء هل بالنسبة لمن حضروا

البرنامج الدراسى لنظم الخدمة الاجتماعية فى هذا الميناء وانا منهم حياة محددة ، فان الحيـــاة فى وولتش وفى كارديف ثم فى لندن كانت بالنسبة لظروفى اكثر حرية. كنت اذهب واروح فى غير اوقات العمل الرسمية كيفما أشاء . وعندما كنت فى لندن فى المرة الاخيرة اى فى خلال الفترة من منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ حتى نهاية شهر اغسطس عام ١٩٤٨ ، كانت نشـــاطاتى الحرة وكأنما بلا حدود ففضلا عن ذهابى الى المحـــاكم بدرجاتها ومستوياتها « محاكم الاحداث ومحكمة اولدبيلي المشهورة مثلا » والى مؤسسات الاحداث ودور الضيافة التى يودع فيها الشبان وغيرها ، ذهبت ايضـــا الى البرلمان البريطانى وحضرت احدى الجلسات ، وذهبت الى المتحف البريطانى ورأيت المـــكان المخصص للآثار المصرية وتفقدتها فى حسرة وكأننى غريب عنها . وذهبت الى مكتبة لندن ورأيت المكان الذى كان يجلس فيه «كارل ماركس » يقرأ ليكتب ويكتب ليقرأ دون انقطاع . ولم اترك يوم احد الا وذهبت الى « هايد بارك » . وأتيحت لى الفرصة لاشترى الكتب التى ارغب فى شرائهـــا . وحضرت المحاضرات التى كانت جريدة الديلى وركـــر تعلن عنها ، وزرت كنائس لندن وسمعت المواعظ . وكان ينبوع المعرفة متدفقا فشربت وشربت ولكنى لم ارتو . ومهما يكن من الامر فان دراستى فى المملكة المتحدة فى خلال الفترة فبراير – سبتمبر ١٩٤٨ لدراسة نظـــم محاكمة الاحداث واساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية كانت اول دراسة علمية وعملية لى فى الخارج . وكانت اتاحة الفرصة لهذه الدراسة فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية السابقة عليها امرا كنت آمل ان يتحقق ولكنى لم اكن اتوقع تحقيقه فعلا ! ومن اجله تركت الاعـــزاء

من أهلى وزملائى . وكانت آثار هذه الفرصة فى نظرتى نحو الحياة آثارا عميقة للغاية . وظهرت عن طريقهـا امامى بجلاء ووضوح مصـادر العلم وتقاليـده تتلألا وتشع بنورها وهديها . وبدا حرصى واعيا . كل ذلك بقصد الفهم الموضوعى لما ارصد من ظواهر المجتمعـات الانسانية التى اعيش فيها ، وبخاصة المجتمع المصرى ، او بعض المواقف الاجتماعية التى بدات ان اراها او بعض العلاقات الاجتماعية الجديدة او القديمة التى لم أكن أجدها امامى على الدوام .

وفى ضوء خبراتى الجديدة التى حصلت عليهـا فى خلال دراستى لنظام المراقبة الاجتماعية بالمحـاكم فى المملكة المتحدة فى خلال عام ١٩٤٨ ، تبين لى بعض الفروق فى النظامين المتبعين فى مصر وفى المملكة المتحدة . وعلى الرغم من العبء الكبير الذى حمله مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى خلال الفترة التى مرت بعد انشائه ، وعلى الرغم من العقبات التى صادفت اعماله فى خلال هذه المدة ، فقـد لفت نشاطه أنظار الكثيرين المهتمين بشئون الاحداث الجانحين ويعتبر عام ١٩٤٩ ، فى ضوء خبرات المكتب القديمة المتجددة ، عاما طيبا بالنسبة للاحداث المصريين الذين تدفعهم الظروف الى ارتكاب جريمـة من الجرائم أو اذا وجد احدهم فى حالة من حالات التشرد فى صورة المتعددة وذلك بصفة عامة ، ثم على مكتب الخـدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة بصفة خاصة . وذلك لان وزارة العدل كانت قد شكلت لجنة فى يوم ١٥ من شهر مايو عام ١٩٤٨ لدعم مكاتب الخدمة الاجتمـاعية لمحاكم الاحداث فى مصر من السادة الاسـتاذ محمد حسن العشماوى والدكتورمحمد عوض محمد والاستاذ

محمد فهيم وقاضى محكمة الاحداث بالقاهرة فى ذلك الحين ، وقد اشتركت فى اعمال هذه اللجنة بعد عودتى من المملكة المتحدة بوصفى مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وقد اهتمت اللجنة ببحث حالة كل من مكتبى القاهرة والاسكندرية . وانتهت من دراستها ورفعت تقريرها الى وزير العدل وطلبت اعتماد مبلغ ٨٠٠٠ جنيه مصرى سنويا لمكتب القاهرة وتمت الموافقة على هذا المبلغ على ان يصرف للمكتب مبلغ ٤٥٠٠ جنيه مصرى سنويا له ويصرف مبلغ ٣٥٠٠ جنيه مصرى لانشاء دار للملاحظة تلحق بالمكتب .

واذا كنت قد بدات العمل فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى اول شهر يناير عام ١٩٤٤ فانه عندما عقدت العزم على ان استكمل دراساتى العليا فى الخارج لكى احصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع تخصص علم الاجرام فى اوائل شهر فبراير عام ١٩٥١ ، راى المسئولون على الكتب فى ذلك الحين أن اتركه . اننى لم اقدم استقالة لاننى لم اكن ارغب فى ترك المكتب الذى صار جزءا من كيانى وصرت جزءا من كيانه . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى عندما عقدت العزم على ان استكمل دراساتى العليا لم أكن متسرعا . لقد كان هذا الموضوع شغلى الشاغل منذ أن عدت من المملكة المتحدة فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . اى بعد أن رأيت مارايت من ضروب المعرفة وعناصرها فى مدينة لندن وفى غيرها . عدت الى القاهرة وانا اكثر ثقة فى نفسى وكانت ثقتى فى العودة كبيرة لا تتزعزع . وكنت قد ارتبطت معنويا بمواثيق مع أبى ان لا اخيب ظنه فى وان احقق حلمه لكى استكمل دراساتى العليا . وكانت امى تشاركنى معنويا فى هذا الارتباط . ولكن ! فى شهر

يناير عام ١٩٥٠ ، في يوم ١٩ من شهر يناير ، أى بعد عشرين عاما من وفاة ابى ، ماتت أمى . واصبحت مقيدا بمواثيق ابى ومواثيق أمى حتى لا اخيب ظنهما ولكى أحقق حلمهما . انها لم تمت فجاة . ولكنها مرضت واحضرت لها الاطباء وماتت بعد أيام من اعلان مرضها الذى يبدو أنها كانت تخفيه عنى حتى لا تزعجنى . وقد حضرت لحظة وفاتها ولكنى كنت فى غرفتى فلم أرها وهى تموت . ولكن ابنتى تيسير التى كان عمرها فى ذلك الحين لا يعدو التاسعة كتبت فى مذكراتها ماسمعت ورأت . قالت تيسير :

عندما احاول ان اتذكر ذكرياتى مع هذه السيدة الحبيبة اجدنى عاجزة عن ان اوفيها حقها من الوصف لانها تمثل الحنان كله والحب كله .. والدفء كله ، لقد عشت معها طفولتى المبكرة .. بعض منها اتذكره واحسه ولا انساه ، والبعض الاخر احسه فقط ، ولكنه ترك اثرا فى نفسى لاينسى .. وهى انها احن واحسن انسانية خلقت على الارض ..

ومن هذه الذكريات :

ـ احب واحسن منظر رؤيتى لستى « جدتى » فى الصباح الباكر عندما استيقظ فأجدها تفطر « لقمة وحبة دقة » لتقم ريقها قبل شرب قهوة الصباح . كانت هذه من اهم ماتتميز به .. وكنت اجلس بجانبها واعيش معها لحظات بهجة وحب وحنان .

... فى يوم التقط بابا لنا صورة انا وهى ومسعد . انا فى حضنها .. ايديها ايديها الحنون تلفها حولى وانا امسك يدها .. ومسعد يجلس على حجرها .

ـ كنت انام معها على سرير واحد انا ومسعد ، انا فى ظهرها ورجلى ويدى تلتفت حولها .. ومسعد فى

حضنها .. وكانت تقول انني « البد » في ظهرها ..
ــ كانت هذه السيدة تعيش معنا وتساعد والدتي في كل شيء في المنزل من عجين وغسيل ــ وطبيخ . وكان « تقرص » العيش ونطلب منها « سمير ومسعد وانا » ان تعمل لكل واحد منا « حنون » لترضينا جميعا .
ــ كانت ستى طيبة واميرة وكريمة تعيش معنا وكأنها لا تعيش . كانت مثل الملائكة .. مثـــل النسيم .. والطريف كانت دائما تخرج لتزور اخواتها بالمنشية « حي الخليفة » وبيت عويس .. كانت روحها هناك .. وكانت تأخذنا معها في بعض الاحيان . وخصوصـــا في بعض المناسبات السعيدة مثل فرح احد ابناء اخواتها . ولكنها كانت في كثير من الاحيان تهرب منا فلا نراها وهي خارجة متسللة بملاءتها السوداء . وعندما نشاهدها وهي قادمة من بعيد قلبنا يدق .. ونعرفها على الفور .. وكانت تحضر عند الغروب .. وكنت واخي سمير واخي مسعد نقابلها بهتاف : ستى جت .. ستى جت . ستى جت . وكانت تحضر معها الفاكهة مثل التفاح والمـــوز وكذا الحلويات . وكان وجودها معنا يضفي على الحياة متعة حلوة وطعم جميل وبهجة طيبة افتقدناها برحيلها عنا ..
ــ منظر لم ولن انساه مهما حييت الا وهو عندمامرضت هذه السيدة العظيمة الحبيبة . وكنت لا اعي شيئا مما سيترتب عليه مرضها هذا .. وكنت العب وفـــرحانة بالضيوف الكثيرة وهن سيدات يلبسن الملابس السوداء ومعظمهن اخوات ستى . وقد كانت ستى على فـراش الموت ودخل ابى عليها وكانوا اخواتها يعملون له الف حساب . وقد سألها عن صحتها فتحاملت على نفسها وقالت انها بخير . ثم اسلمت الروح .
ربما اذكره الان انني بعد عودتي من رحلتي الدراسية

فى المملكة المتحدة الى القاهرة ، كان استقبالى من الزميلات والزملاء حسنا .. وكان هذا متوقعا . اما ماكان غير متوقع فقد كان حرص السيدة زاهية مرزوف والدكتور محمد عوض محمد على مقابلتى . قابلتنى الاولى فى مكتبها فى وزارة الشئون الاجتماعية وكانت كما يقول المصريون « سمن على عسل » ، ودهشت لذلك كثيرا وحاولت تفسيره فلم استطع فى ذلك الحين ولا بعد ذلك الحين . ان هذه السيدة لان اسمها « زاهية » كان الآخرون يتداولون اسمها فيما بينهم لا بقصد التفاخر به او اضفاء المديح لصاحبته ولكن على العكس من ذلك تماما الى الدرجة انهم كانوا يستبدلون باسم زاهية اسم « داهية » اما الدكتور عوض فقد كان موضع الاحترام فقد كان عالما مرموقا مافى ذلك من شك . كان صاحب مدرسة تفخر مصرنا الخالدة بأبنائها حتى الآن وعندما ذهبت اليه لمقابلته حدد موعد هذه المقابلة فى منزله . وذهبت الى الموعد وانا فرح للغاية كما اذكر الان . وكانت هذه الزيارة فاتحة زيارات عديدة جاءت بعدها . كان لطيفا ينم حديثه على الثقافة العميقة الواسعة الارجاء . ولكنى فى احدى الزيارات ربت معه ماشوه الصورة الرائعه التى حفرت فى دماغى عنه . لقد روى لى بعضا من تاريخ طفولته وشبابه وبعضا من الكفاح فى سبيل التحصيل العلمى . ثم ماجرى له فى لندن عندما ذهب اليها ليدرس دراساته العليا . عندما وضع أمتعته فى احد البيوت التى توافق على ايواء الاجانب بأجر تم الاتفاق عليه ، وعندما ذهب مستريح البال ليرى معالم المدينة ، ولما عاد عند الغروب فوجد امتعته على درجات سلم البيت الذى استأجر احدى غرفه بعد موافقة صاحبته . واتضح له ان جيران صاحبة

البيت عيروها لانها وافقت على تأجير احدى غرف بيتها لا لاجنبى ولكن لاجنبى اسمر اللون . وكان يحكى لى القصص التى تدل على المعاناة التى واجهها فى حياته الاولى وعلى قوة الارادة التى يسرت له مواجهتها . ولكنى فى احدى الزيارات رأيت منه ماشوه الصورة الرائعة التى حفرت فى دماغى عنه . كنت معه وحدنا . ودق « جرس » الباب فقام ليفتحه فاذا بى اسمع صوته وهو يزمجر صائحا « انا مش هنا » ! وعرفت أن الزائرين من بلدته جاءوا على غير موعد فرفض الا ان يكون اعتذاره لهم باسلوب الحديث الذى مازال صدى كلماته يرن فى اذنى الى قلبى وعقلى حتى الآن . ومع ذلك فقد ظل احترامى لعقله واتساع آفاق علمه باقيا . ولعل مافعله امامى ، كما قلت لنفسى مبررا ، نزوة من نزوات العلماء . او لعله ان يكون درسا لمن جاء على غير موعد ولغيرهم من المعارف ودرسا لى فى نفس الوقت . وكان الدكتور عوض فى اواخر عام ١٩٥٠ رئيس الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة اى انه كان رئيسى المباشر . وذلك لان الدكتور محمد صلاح الدين كان قد اصبح فى ذلك الحين وزيرا للخارجية فى وزارة الوفد ، ولم يكن وقته ليتسع فيحضر جلسات الهيئة التنفيذية . فذهبت الى الدكتور عوض وانا احمل معى طلب أجازة من المكتب بدون مرتب لكى اسافر الى الخارج والى لندن بالذات لاستكمل دراساتى العالية واحصل على درجة الدكتوراه . وتوقعت منه الترحيب والتشجيع . ولكنه لم يقل لى شيئا يدل على ذلك . وكان كل ماقاله ان الطلب سيعرض على الهيئة التنفيذية للبت فيه .. وجاء موعد اجتماع الهيئة وتحدث الدكتور عوض تليفونيا معى للحضور

قبل الاجتماع بساعة واخبرني بأن مكان الاجتماع سيكون « معهد الدراسات الافريقية » الذى كان له مديرا فى ذلك الوقت ، وذهبت فى الموعد الذى حدده الدكتور عوض . فبدأ حديثه هادئا عذبا . بدأ يذكر اهتمامه الشخصي بى لاننى شاب كفء ، وان مسألة الدراسات العليا فى موقع عملى غير ضرورية ، وان السفر كل عام لمدة محددة الى الخارج هو كل مايمكن ان يوافق عليه . وماكدت أن ارد على ماقال ، اذا بى اراه يزمجر قائلا وهو يسخر « انت عاوز تأخذ دكتوراه علشان تبقى زيى ؟ » فأسرعت بالاجابة قائلا : « نعم فأنت مثلى الاعلى الم تذكر فى احدى مقالاتك ان شر الامور الوسط ؟ » وكان هذا المقال قد نشر فعلا فى جريدة الاهرام منذ فترة غير قصيرة . فرد والسخرية تظهر على ملامح وجهه وحركات جسمه « اننى ما قصدت بهذا المقال الا مجرد المداعبة » . وصار الدكتور عوض بعد ذلك امامى شخصا آخر . بدا شخصا تشع عيناه الغيظ والكمد ، وازداد وجهه القبيح قبحا . وتذكرت فى التو ما ذكره الدكتور عبد العزيز عسكر عن اول شىء يراه الدكتور عوض بعد ان يستيقظ من النوم . ولكنى أضفت الى ذلك مايكنه هذا الرجل اقصد الدكتور عوض من الحقد الدفين نحو المجتمع الذى عاشه وهو طفل ثم وهو صبى ثم وهو شاب . انه الحقد الذى لم يبرأ منه عندما كان لا يأكل الا وجبة واحدة فى اليوم وهو الشخص الذكى فى حين يرفل غيره فى الحياة الناعمة بألوانها وقد كانوا من الاغبياء . لقد تبلور فى قلب هذا الرجل الحقد منذ الصغر وبقى دفينا حتى كبر . واذا كان الحقد حقدا نحو المجتمع فانا عضو من اعضائه . كنت على عكسه تماما . كانت طفولتى سعيدة وكان

صباى طيبا ويملأ صدرى الحب ويفيض وبقى دفينــا وسيبقى أن شاء الله .

وأود هنا ان اذكر وانا احنى راسى شاكرا لما فعلتــه السيدة الزا ثابت من أجلى لكى يتحقق لى مــرادى فى الدراسة والتعليم . انها لم تترك جهدا نحو تحقيــق هذا المراد الا وقامت به مشكورة . واننى أؤكــد هنا انه لولا جهودها الجبارة المستمرة لما استطعت ان اسافر فى فبراير عام ١٩٥١ الى لندن . والجهود التى بذلتها السيدة الزا كانت جهودا تهدف الى تحقيق كل ماهــو معنوى وكل ماهو مادى يحقق آمالى . ويكفينى منهــا انها كانت تثق فى وفيما يمكن لو اتيحت لى الفرص ان قوم به . كانت صلتى بالسيدة الزا متصلة ، فهى رئيسة جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق ، وانا فى ذلك الحين كنت امين الصندوق . وكانت مقابلاتى معها تزيد الروابط التى بيننا وتؤكدها . ولا غرو فقد كانت استاذتى واستمرت استاذة لى وانا اعتبر حتى تلك اللحظة أننى غرس يديها ويشترك معها فى ذلك الامــام الشيخ محمود خطاب والاستاذ يعقوب فام . كان هؤلاء الثلاثة مع ابى وامى قد أضفوا على من العلم والمعــرفة والخبرة والاهتمام الانسانى الكريم ماجعلنى ما كنته فى ذلك الحين وربما ما ســاكونه فى المستقبل القــريب والبعيد . اجمعوا الثلاثة على اعادة تنشئتى كل فيمــا يختص به .. وفى الفترة الاخيرة كان للســيدة الزا النصيب الكبير .

واجهت مشكلة ترك اسرتى الصغيرة : زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد دون أن تكون أمى معهم . وكيف اترك احمد وآمال وقد اصبحا فى فترة المراهقة وفى مسيس الحاجة الى وجودى بينهم ؟ وحتى الصغار

فقد كانوا كذلك فى مسيس الحاجة الى وجودى بينهم .
انني شخص أعمل فى ميدان الاحداث الجانحين ، فانا اذن
اولى الناس بادراك الاثار المترتبة على انفصال الاب عن
أعضاء الاسرة وبخاصة اذا كانوا مازالوا فى حاجة الى
الرعاية والحماية . كانت فكرة السفر الى الخارج
لاستكمال دراستى العليا متسلطة على كل شيء . انها
امل تبنيته ثقافيا عن ابى وعن امى التى آزرت ابى
وعرفت مدى ماعصف بى الدهر عندما قرر جدى لأبى
حرمانى من اكمال تعليمى واستئصالى عنوة من مدرسة
الخديوية الثانوية وانا فى السنة الرابعة الثانوية . لقد
اصبح هذا الامل آمال فرد . ولم يدر فى خلدى أبدا
أن تصبح آمال هذا الفرد « الذى هو انا » آلاما لجماعة
« اسرتى الصغيرة » . لم يدر في خلدى ابدا ان أحقق
آمالى ورغباتى على حساب جماعة لا ذنب لهم سوى انى
ابوهم . كانت اهدافى ارفع من ذلك واعلا مقاما . كانت
أهدافى ان اؤهل نفسى لكى اكون اهلا لاعمل عملا
صالحا لابناء وطنى . وفى ضوء تكوين شخصيتى لم
اكن الطفل المدلل وان كنت الطفل المحبوب ولم يكن لى
شباب أتمتع به ، وكنت جادا احاول ان اعمل صالحا .
وقد كان هذا عزائى . وبررت كل تصرفاتى على هذا
الاساس ، وافترضت اننى دعيت الى « الجندية »
لاحارب من أجل عرض وطنى وشرفه لسنوات ، كما
يفعل ابناء البلاد الاخرى . وقلت اننى لم اظلم احدا
لاننى انا نفسى كنت قد ظلمت ومازلت مظلوما . وان
المحك الرئيسى هو ان انجح فى مهمتى وان احصل على
درجة الدكتوراه تتويجا لجهودى الثقافية ودراساتى
الاكاديمية وغير الاكاديمية . والى ان وصلت الى هذه
النتائج استراح ضميرى وعزمت العزم الاكيد لكى اختار

الاغتراب فى خارج بلدى بدلا من ان يكون فى داخلها . وما اصعب الاغتراب وانت بين بنى اهلك ووطنك . كان عزمى اكيدا مافى ذلك من شك . والدليل على ذلك اننى فى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ركبت القطار الى بورسعيد لالحق بالسفينة التى وصلت الى لندن بعد تسعة ايام فقط . تاركا ورائى اعضاء اسرتى الصغيرة زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد ، ولم اكن ابغى لهم ابدا الا ما أملت من الخير . اننى لم افرض سلطانا على احد منهم او عليهم جميعا . ولكن سلطان تحقيق آمالى فى الدراسات العليا التى كنت فى ضوء تاريخى المدرسى والتحصيلى استحقه عن جدارة ، هذا السلطان هو الذى فرض علينا جميعا . كانت الاهداف سامية وتحتاج الى بذل التضحيات وكنت اول الباذلين بذلت من وقتى الشاب ومن صحتى ومن راحتى الكثير عانيت الاغتراب المادى والمعنوى ولم اجأر بالشكوى لمخلوق . كنت مع الله ومن أجل الله اعمل وابذل . ولكن كان حرمانى من أعضاء أسرتى الصغيرة العظيمة : زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد حرمانا عظيما . ولم اكن ادرى فى ذلك الوقت اننى فى حقيقة الامر كنت ثائرا فى دور التكوين ! لقد ثرت دون أن أدرى على حياتى الماضية ثورة عارمة . وكانت هذه الثورة تعنى ثورة على الاوضاع الثقافية الاجتماعية والاقتصادية جميعا . كانت ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا . وكنت فى حقيقة الامر ، دون أن ادرى ، وحدى ، احارب فى جبهات عديدة . كانت اسلحتى ايمانى بالله وبالوطن العزيز وحب امى ودعواتها .

السفر الى الخارج مرة اخرى استئنافا لطلب العلم

وفى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ، اليوم الذى يوافق عيد ميلادى الثامن والثلاثين ، كنت على السفينة فى عرض البحر الابيض المتوسط ، فى طريقى الى لندن. واذكر اننى عندما خطت قدماى ارض السفينة فى اول لحظة حاولت ان انسى ماكان وان اتذكر ما سيكون. جاءت الريح برائحة السفينة التى ايقظت فى كيانى الحقائق التى واجهتها فى الماضى عندما سافرت لاول مرة . القلق والاغتراب والدوار الذى يأتى به البحر ثم استيقظت ذاكرتى على ازدحام مدينة لندن ومناخها القارس « وبخاصة ونحن الآن فى شهر فبراير » ، وعلى الدراسة والكتب وتحضير الطعام . وعشت لحظات متذكرا صحتى ومرضى ، والمرح الحلو مع الزميلات والزملاء والمناقشات الشابة التى كانت تدور بيننا ، فضلا عن الاحساس بالضياع . وجاء من اعماق نفسى شعورى العميق بالشك فى الامل الذى اصبو الى تحقيقه . وكان شكا مريرا حقا . وسرعان مانبذت هذا الشك وغيره من الشكوك التى كانت تمكن ان تحوم حول شخص مثلى . ونظرت الى المستقبل المشرق ؛ مستقبل العب من العلوم والمعرفة الذى ينتظرنى فى لندن .

لم يكن معى أحد على السفينة من المصريين سوى سيدة . كانت ضخمة الجثة فارعة الطول ، فلازمتنى منذ ان ركبنا « اللنش » فى طريقنا الى السفينة . كانت

ترافقها سيدة قد بدا عليها انها تعمل لديها . وارتقيت السلم الى ارض السفينة بعد ان ارتقته قبلى وتركتنا السيدة المرافقة تعود ادراجها الى ميناء بورسعيد ارض الوطن . بدت امامى السيدة المسافرة انها فرحة لان فى لندن ينتظرها ابنها الذى يدرس الدروس العسكرية. وهى فرحة أيضا لانها كامرأة ستجد من الانجليزيات من هن فى طولها فلا تشعر بالاسى الذى تشعر به وهى تعيش بين النساء المصريات . وقد علمت ونحن على السفينة الكثير عن حياة هذه السيدة . كان اسمها « مدام طبوزاده » ، وكانت تحمل معها ديوان الشاعر « محمود سامى البارودى » فهى عضو من أعضاء أسرته . وكانت تعلم ماخفى عن أحوال السراى : الملك فاروق والملكة زوجته وغير ذلك . وكانت تعلن بعض ماهو خاف ، وتكتم البعض الآخر .. وكان كل ماتعلنه معروفا للناس وانا منهم . وكنا نتناول وجبات الطعام معا . وكانت تأكل بنهم وشراهة كنت أتقزز منهما ، فانا على السفينة او على غير السفينة آكل اكل الاشخاص العاديين الذين يرون ان الطعام باق ومن ثم فيكون الاكل منه بتؤده أولى وافضل ، فهو أى الطعام لن يطير . وعلى السفينة لم اكن أستطيع ان آكل الا كما تأكل العصافير . وقد لاحظت مدام طبوزادة ذلك فنصحتنى ان اهتم بعلاج كبدى عندما اذهب الى لندن . لانه كان فى رأيها وبما كان ذلك صحيحا أن « سد النفس » عن الطعام مرجعه الى خلل فى الكبد ، والله اعلم ، وعلم الطب وعلماؤه بعد الله يعلمون كذلك .

كنا نتحدث عن سامى البارودى . فى الواقع كانت هى التى تتحدث عن هذا الشاعر الثائر . وكنت أسرح بخيالى أبحث منقبا عن تاريخ الثورة العرابية . وكان

كبريائى يعلو الى الآفاق كلما تذكرت عرابى راكبا على حصانه وهو فى ساحة عابدين . وكان كبريائى ينخفض كلما تذكرت ما كان يحدث بين الثوار المنفيين وهم فى جزيرة « سيلان » . وكانت تتحدث وصورة الشهيد البطل « محمد عبيد » تداعبنى فيزهـــو قلبى تارة ويتحسر كمدا تارة اخرى . اما عبد الله النديم فقد كان ملء سمعى وبصرى . كنت أعيش معه حياته منذ طفولته وكيف نشأ وكيف أصبح خطيبا للثورة . كنت اذكـر ما كان يكتبه فى مجلاته التى كان أبى يحتفظ بها ويحرص عليها . فأنا اذكر اننى على الرغم من طفولتى . فقـد استطعت ان افك رموز مابين سـطور ما كان يكتب هذا الرجل العظيم . كانت فرصة ان أصحب سيدة مثـل مدام طبو زاده . وكانت هى فى واد وكنت انا فى واد آخر ومع ذلك فقد جمعتنا السفينة ، كما جمعتنا المائدة التى كانت لا تترك صحنا به طعام الا وقذفت مافيه فى معدتها . وكانت عندما تتحدث عن سامى البارودى أو عن شعره اشعر بالسرور الجاد فعلا ، اما عنـــدما تتحدث عن الخيل وركوب الخيل فتجد الشـــقة بينى وبينها قد بعدت أميالا وأميالا . انها فى بعض الاحيــان كانت قريبة منى وانا فى محيط افكارى عنها بعيـد . كانت اذا انفرجت أساريرها اذا ابديت رأيا يتضـمن الدعابة البريئة تبعد الشقة على الرغم ممـا يبـده من سعادتها فتقول مثلا « انتو يامصريين شـــكلكم زى النسانيس ولكن دمكم خفيف » . تقـــول ذلك وهى تقصدنى فأنا المصرى ، اما هى فقد كانت تعترف ضمنا وصراحة بأنها غير مصرية . وقد كانت هى كذلك فعلا . وكنت اسمع عبارتها التى كررتها مرارا ، حتى افترقنا فى لندن الى غير رجعة ، فتملأ الغصة حلقى ويزداد

اشمئزازى ونفورى منها . كانت من اعضاء عائلة « محمد على » وهذا يكفى . وعندما سمت الى الحديث عن مقابلاتنا فى لندن لم احرص ابدا على اخذ عنوان محل اقامتها . واعتذرت عن اعطائها عنوان محل اقامتى لاننى لم اكن اعرف هذا العنوان حتى تلك اللحظة . كنت اواجه المجهول . وكل الناس يواجهون المجهول فى كل الاوقات ولكننى كنت احس بالعبء ثقيلا على الرغم من تفاؤلى الذى عاش معى فى الماضى ومازال يعيش فى ذلك الحين ولا يزال يعيش حتى كتابة هذه السطور . اننى كنت اخشى المجهول ولكنى لم أكن اعزل من سلاح اليقين فى الله والثقة بالنفس ورفعة الهدف .

ولما كنت اعرف لندن فاننى تركت حقائبى فى المكان المخصص لذلك فى محطة السكة الحديد ، وذهبت ومعى حقيبة يد صغيرة وتوجهت الى حى « هولاندبارك » الذى اعرفه جيدا . فهو الحى الذى يقع فيه الفندق الذى نزلت فيه لاول مرة عندما حضرت الى لندن فى عام ١٩٤٨ ، اى منذ ثلاث سنوات . وكنت فى بعض الاحيان، وكانت قليلة جدا لان حرية حركتى فى لندن فى الفترة الاولى عند حضورى اليها لاول مرة كانت محدودة . كنت اذهب الى « نادى لندن للموسيقى » اما لمجرد الجلوس وكان متيسرا او للحضور لسماع الموسيقى نظير نقود قليلة . فذهبت الى النادى قبل ان اذهب الى الفندق وكانت تدير هذا النادى سيدة انجليزية هى « مسز آرمسترنج » وكنا ندعوها « مسز ايه » فقط ، وهى سيدة كانت قد بلغت سن الستين ولكن حيويتها وعشقها للموسيقى والموسيقيين ينمان على النشاطات العديدة التى كانت تؤديها بالاستعانة ببعض العاملين والعاملات . وعلمت وكان ذلك لاول مرة أن النادى به

حجرات للنوم يمكن ان يستاجرها من يرغب فى ذلك . فآثرت ان استاجر غرفة نوم فى النادى الذى يوفر ايضا لنزلائه وجبات الغداء والعشاء . ونمت ليلتى وفى الصباح ذهبت لاحضر حقائبى التى اودعتها فى غرفتى . بعد ان احضرتها فى تاكسى . وفجاة واجهت الحياة الجديدة ، واجباتى فيها ومسئولياتى . وكان السؤال الذى واجهنى كيف ابدا ؟ فانا لم احجز لى مكانا فى كلية او فى معهد دراسى وهاهو ذا شهر فبراير عام ١٩٥١ قد انتهى او كاد . وجلست افكر . وطرأ فى ذهنى ان ابدا بفعل ماكنت ارغب فى ان افعله عند حضورى الى لندن فى عام ١٩٤٨ . وذلك بأن اشترى « راديو » لاطل على « البانوراما » الثقافية الاجتماعية للمجتمع الانجليزى بعامة ومجتمع لندن بخاصة ، واشترى « اسطوانات » موسيقى كلاسيكة ، حتى تتعود اذنى عليها لكى ارتفع بذوقى الموسيقى ، وآلة لكى اديرها. كلما عن لى ذلك ، واخيرا اشترى خريطة لمدينة لندن لاعرف اين انا واين اذهب وكيف اذهب . وبدات توا بشراء هذه الاشياء الهامة او التى كانت هامة عندى فى ذلك الحين . ثم جلست افكر . هانذا شخص قد ترك بلده واعيش فى بلد آخر . املك شبابى ووقتى وبعض المال ، والمهمة التى انا بصددها مهمة نبيلة وتحقيقها لا يحتاج الى اكثر مما املك فى الوقت الحاضر . اننى متفرغ لها املك وقتى من الصباح المبكر حتى المساء المتاخر لا يشغلنى عنها شاغل آخر الا ماكان ضروريا لكى اعيش . فلأتدبر امرى واشغل نفسى فى سبيل تحقيق ما ارجوه وما اصبو اليه . هانذا املك الشباب والوقت والمال الذى ارجو من الله ان يبارك فيه حتى اتم ما انا على وشك ان ابدا به . فالمال كما يقولون

« عصب الحياة » او هكذا تعلمت . وبدون المال فى بلد اجنبى يعنى الدمار النفسى وبخاصة لشخص مثلى . ومع ذلك فقد كنت على الرغم من كل شيء متفائلا ، ويبدو ان تفاؤلى هذا كان ساذجا . فلم ار امامى فى ذلك الحين سوى الجانب الطيب من الحياة . لم ار سوى كل ماهو وردى . كان امامى ان اسلك طرقا عـــديدة منها ان استكمل دراستى لاحصل على « الدبلوم العام العالى فى التربية » « جامعة لندن » ، واســـير فى الطريق حتى احصل على درجة الدكتوراه من هـــذه الجامعة . ومنها ان اطلب العلم للعلم وان اخـــدم الانسانية لذاتها واحاول ان اكون دائرة معارف صغيرة تمشى على الارض تحيا لتحيى وتستنير لتنير . ومنهـــا ان ادرس مهنة الصحافة لاضمن عندما أعـــود الى الوطن ان اجد سبيلا لتحقيق اهدافى نحو الوطن كما اجد موردا للرزق تعيش عن طريقه اسرتى الصغيرة حيـــاة كريمة . ومنها ان افعل كل ذلك . فاكون مثـــلا طه حسين وسلامة موسى « او مصطفى صادق الرافعى او عباس العقاد » والصحفى الكبير امين الرافعى جميعا . وكان أهم ما يجب ان افعله هو ان ابدأ . كـــان امامى ان التحق بمعهد من المعاهد مثل « كلية البولتيكنيك » لادرس دراسة منتظمة وانا فى طريقى الى درجـــة الدكتوراه ، وفعلت ذلك توا . وكان أمامى ايضـــا ان استعين بالدروس الخصوصية وبخاصة لادرس عـــلوما لم اعرفها من قبل او اعرف عنها القليل مثـــل علم الاقتصاد وعلم المنطق . وفعلت ذلك ايضا . وكان من حظى ان يدرس لى علم المنطق الاستاذ « ترى نيومان » احد اساتذة كلية « البوليتكنيك » . اما الدكتور « جون لويس » فقد قام مشكورا بتدريس « علم الاقتصاد » .

كنت اذهب الى الاستاذ الاول فى منزله وكان الدكتور لويس يحضر الى فى منزلى . ومع كل هذه الدراسات العلمية رايت ان التحق باحد معاهد الصحافة بالمراسلة « مدرسة لندن للصحافة » . وقد تم لى ذلك كذلك . وكنت اعمل ليل نهار نهما لا يشبع من العلم والعب من مناهله حيثما تكون هذه المناهل ، وكنت لا اخرج من منزلى الا لكى اذهب الى منهل البوليتكنيك او الى منزل ترى نيومان او الى شراء كتاب من مكتبة « فويلز »ومكتبة « كوليت » بحى « شيرنج كروس » او من احدى المكتبات التى تبيع الكتب القديمة النادرة . وكان من حظى السعيد ان قابلت احد المواطنين الانجليز الذى جمعنى واياه بعض المصريين فى القاهرة فى اثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان مجندا فى الجيش الانجليزى . قابلته فى « ممر الانفاق » المشهور بلندن صدفة . وذكرنى بنفسه لاننى لم اره وان كان هو قد رآنى وترك لى عنوان منزله فى حى « برم روز » بلندن . وذهبت فى الموعد المحدد فوجدت اسرة كانت تعيش كلها فى القاهرة فى يوم من الايام او فى فترة من الفترات . وكان الحديث يجرى باللغة العربية تارة وباللغة الانجليزية فى معظم الاحيان . ومن هنا عرفت انواع الكتب التى كان يرى اعضاء هذه الاسرة من واجبى ان اشتريها وعرفت منهم ايضا المكتبات التى اجد هذه الكتب معروضة للبيع فيها . كانت كتب « ولفرد بلنت » و« ج. هـ . ويلز » و « روزشتين » و « كارل ماركس » و « انجلز » و « جون لويس » وغيرها وغيرها اول ماحرصت على اقتنائها . وقد اكد ضرورة اقتناء هذه الكتب وغيرها جون لويس وبخاصة عندما اقترح على ان التحق « بكلية مورلى » حيث كان احد اساتذتها

لادرس « الفلسفة الحديثة » و « العلم الحديث : نشأته ومنهجه » . وانا اعتبر الدكتور لويس احد اساتذتي الذين اثروا في تفكيري تأثيراً كبيراً . لقد ترك هذا الرجل بصمات تفكيره على اسلوب تفكيري الذى انظر الى الدنيا حولى عن طريقه حتى هذه اللحظة . كان رجلا عالما ذا بصيرة نفاذة . وكان يتبنى التفكير الماركسي وان لم يكن شيوعيا . كانت زوجته شيوعية ولها نشاطات عديدة في الحزب الشيوعى الانجليزى . ولكن جون لويس كان يكتفى كما بدا لى ، ومازال يبدو ، بأن يفكر ويصنع المفكرين . وكنت ارى سعادته عندما كان يحضر الى لاعطائى درس الاقتصاد . كان يتعاطى القهوة « التركى » التى اجيد صنعها بنهم . وكان بعد الانتهاء من الدرس يمكث ليتحدث معى حديثا حرا . كان يؤكد لى ان الفلسفة الغربية مدينة بدين لايمكن ان يقدر للفلاسفة المسلمين وخاصة « ابن سينا وابن رشد » . كان يذكر لى تاريخ ابن سينا وكأنه دارس مسلم متفانى كان يعرف عنه أنه ولد فى مدينة « بخارى » حيث كان بها ٣٦٥ مسجدا . وكان يعرف تاريخ مولده فى عام ٩٨٠ ميلادية . وكان يذكر لى وكأننى كنت اعرف لاول مرة ان ابن سينا اشتغل بالطب فكان من أعلام فنه فى العالم أجمع . وانه قد عرض فلسفة « ارسطوطاليس » عرضا خاصا قويا . قال ان المادة ازلية وانها لم تخلق وان كانت تكتسب صورتها بفضل العقول التى هى انبثاقات من الله . وذكر لى أن « البرت الكبير العالم الاسكولائى فى العصور الوسطى » كان تلميذا لابن سينا وأنه راح يؤكد ان فكرة خلق المادة لا يمكن البرهنة عليها فلسفيا . وكان استاذى جون لويس يتحدث عن « ابن رشد » فى نشوة . كان يعرف أنه ولد فى عام

١١٢٦ ميلادية فى مدينة قرطبة وان جده كان قاضيا لها . وقد علق وشرح ابن رشد ارسطوطاليس . وقد طور مذهبه الفلسفى بطريقته الواضحة الابداعية الخاصة . ان ابن رشد لم يكتف بأزلية المادة ، بل راح يؤكد انه فى مقدور الجنين ان يتطور بفضل قوته الكامنة الذاتية . وان ابن رشد قد دافع بقوة عن ابن سينا فى وجه المفكرين الدينيين المحافظين الذين كانوا ينتقدونه . وكما أعلن البرت الكبير ان فكرة الخلق يجب ان تقبل لاسباب دينية وان كان لايمكن البرهنة عليها فلسفيا ، كذلك نرى ابن رشد ، الذى كان يحيا فى عالم تسوده العقيدة الدينية الى حد بعيد ، نراه لا يستطيع أن يقول أكثر من ان الدين من شأن جمهور غير المتعلمين ، بينما المعرفة الاستدلالية من شأن الاقلية المتعلمة . وهكذا نجح فى التمييز بين نوعين من « الحقيقة » : حقيقة الوحى وحقيقة العقل . ويعلق على ذلك الدكتور لويس فيقول : ونحن فى وقتنا هذا لا يسعنا ان نقبل الموقف . ورغم ذلك فعلينا ان نعترف ان ابن رشد نجح فى القرن الثانى عشر فى تحرير العلم من سلطان الدين ، وفى اقامة دعائم عالم خاص به .. عالم كان من الممكن ان تقبل حقائق العلم فيه رغم كونها خاطئة من الناحية اللاهوتية . وكنت اسمع مايقوله الدكتور جون لويس فى بيتى ، وما كان يقوله فى المحاضرة فى كلية مورلى ، وانا مبهور حقا ، فكر جديد . عالم فكرى لم اكن اعرف عنه شيئا . بل على العكس من ذلك كان يحرم علينا ان نطرق بابه ، وقد ذكرت من قبل عند التحدث عن « الجمعية الشرعية » وماكانت ترى وهى تؤهل وعاظها وتقدمهم الى المجتمع دعاة لها ان يكون مركز الواحد منهم « فوق مركز

الطبيب الحاذق الذى يعطي من الادوية لكل مريض ماينا سبه بمقادير خاصة لا ينقص ولا يزيد عليها شيئا . وان الجمعية اذ تبيح له ان يغدو ويروح فى ان يبتدىء بغرس العقائد فى نفوس من يباشر تعليمهم ، مراعيا مذهب اهل السنة والجماعة ، بعيدا عن المشاغبات الكلامية والبراهين المنطقية لصعوبتها على افكار العامة من الناس . ثم .. » . وهانذا يواجهنى الدكتور جون لويس بهذه الافكار الجديدة وغيرها وبخاصة ماتعلق بأفكار الفلاسفة من « افلاطون » و « ارسطوطاليس » و « الافلاطونية المحدثة » و « الثورة الكوبرنيكية » و « ديكارت » و « لايبنتز » و « سبينوزا » و « هيوم » و « بركلى » و « لوك » ثم « كنت » و « هيجل » .. أين كنت من عوالم افكار هؤلاء واين كانوا من عالمى الفكرى الضئيل . ان استاذى جون لويس قد دق على الباب وهانذا افتحه لارى الآفاق الواسعة واتحرر من القيود التى كانت تكبلنى . وكنت كلما قرات هؤلاء لكى افهم وافهم هؤلاء لكى اقرا اكثر اتذكر الفزع الذى اصابنى عندما قرات كتاب « هـ . ج . ويلز » عن « تاريخ موجز العالم » « طبعة ١٩٥١ » ، وبخاصة ماذكره عن النبى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على صفحة رقم ١٧٧ من هذا الكتاب . كان الموضوع عن « محمد والاسلام » . وكان ماذكره عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على تلك الصفحة وما بعدها قد هز كيانى هزا . كان مفاجأة لى . ولكن كم فى الدنيا من مفاجآت ؟ كنت فى مدينة لندن ولم يكن قد مر على وجودى بها أيام عديدة . وقرات ما كتبه ويلز فتذكرت ماحدث لى فى سينما « ستديو واحد » عندما كنت

اشاهد الاخبار وكان الامير عبد الله يصلى فى المسجد
الحرام وموقف المشاهدين الآخرين من ركوعه وسجوده
وتساءلت عن الصراع الفكرى السائد بين الناس ؟ من
يثير هذا الصراع ؟ ولمصلحة من هذا الصراع ؟ وكنت
أعلم فى ذلك الحين ان الصراع الفكرى لا يكون الا فى
محيط العلوم الانسانية . اما فى محيط العلوم المادية
فالناس فى كل بقاع الارض ، على اختلاف ايديولوجياتهم
ومذاهبهم وعقائدهم ، على وفاق . ان العالم «البوذى»
يحنى راسه للتجربة العلمية الناجحة التى قام بهـــا
« العالم المسيحى » او « العالم المسلم » أو (العالم
اليهودى) ، وان العالم « فى القاهرة » يحنى راســه
للتجربة العلمية الناجحة التى قام بها العالم « فى
لندن » او العالم « فى موســكو » او العــالم (فى
نيويورك) .. الخ . ان الاتفاق هنا فى منطقة العلوم
المادية سائد ، فلماذا يكون الصراع اذن فى منطقة العلوم
الانسانية ؟ سؤال انبثق من تعاليم استاذى الدكتور
جون لويس عندما استقيت منه افــكاره الفلسفية
والعلمية فى اثناء تدريسه لى فى منزلى احيانا وفى
كلية مورلى احيانا اخرى . والسؤال عندى مازال
مستمرا حتى ذلك الحين . وكان سؤالا ملحــا فى
حياتى الفكرية التى كنت اناجيها فى ضوء تربية أبى
وامى وتعاليم الامام الشيخ محمود شلتوت والسيدة
الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام واخيرا استاذى الدكتور
جون لويس .

كنت احاول ان اعيش دنياى فى لندن بكل لحظاتهــا
ولكنى انا بشر ، فقد كنت اتذكر اسرتى الصغيرة فى
بعض الاحيان . ان اعضاءها الآن كلهم فى المدارس ،
ورعايتهم المدرسية مسألة بالغة الاهمية . ان المــوارد
المادية التى تركتها تكفى الحياة الكريمة لهم . وهاهم

قد استقلوا واصبح للأسرة بيت خاص كنت قـد اضطررت الى استئجار شقة فيه فى شهر يونيو عـام ١٩٤٠ ، عندما عدت الى مؤسسة الزفاف الملكى للمره الثانية . كانت الحياة فى « بيت عويس » ، الذى ولدت فيه وعاشت أمى فيه منذ ان دخلته زوجة لابى ، لاتطاق وكان ان وجدنا البيت الذى يليق بالاسرة وكان قريبا من مبنى المؤسسة . وقد بدا لى عندما اتخذت هذه الخطوة الشجاعة ان امى كانت غير راغبة فيها ولـكنها اضطرت الى ان تخطوها معى ومع باقى اعضاء الاسرة على ان تترك حرة فتذهب الى حيث شاءت لتزور من تحب ان تزور من الاقارب والجيران والمعـارف التى عاشت أكثر من نصف عمرها معهم وبالقرب منهـم . كنت اتذكر اعضاء اسرتى الصغيرة فأكتب لهم ويكتبون لى . كنت اكتب لـكل فـرد خطـابا خاصـا يتضمن كلمات التشجيع وفوق كل ذلك كلمات الحب والاحترام لكل واحد منهم . وكانوا يكتبون لى مايحدث لهم من علاقات فى البيت او فى المدرسة او حتى فى الحارة . واخبار المكتب الذى تركته بعد ان تم الاتفاق مع على ماهر باشا رئيس جمعية الدراسات الاجتماعية فى ذلك الحين عندما قابلته مع السيدة الزا فى موعد حدده لها لاستقبالها واستقبالى ، على أن امنح أجازة بدون مرتب لمدة سنة قابلة للتجديد . وقد وافق على ماهر على ذلك وبارك آمالى ورجا لى التوفيق — لم اعرف عن اخبار المكتب شيئا . كان لا يكتب لى احد ولم اكتب انا ايضا لاحد . وقد فوجئت ولم تـكن المفاجأة غير سارة بأن عبد العزيز فتح الباب عـين بتوصية الدكتور محمد عوض ليكون مديرا للمكتب من بعدى . كان واصف يوسف اقدم الباحثين بالمكتب فى

بعثة الى الولايات المتحدة ليدرس هناك . وقد منحته هذه البعثة السفارة الامريكية . وذهب واصف منذ عام ١٩٥٠ الى الولايات المتحدة تاركا أسرته التى كان هو عائلها الاكبر بعد وفاة أبيه ولم يعد حتى كتابة هذه السطور . لا يعرف احد عنه شيئا . ولم يرغب هو فى ان يعرف أحد عنه شيئا . وعين عبد العزيز فتح الباب مديرا للمكتب فى مكانى الذى لم اتركه . لقد أراد الدكتور محمد عوض أن يرينى قوته وسطوته والنفوذ الذى كان يستطيع أن يستخدمه كرئيس للهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . انه كان وكأنه يقول لى وانا بعيد عنه بعد القاهرة عن لندن بل ربما ابعد من ذلك اذا كانت المقارنة بين ما يشغل تفكيرى وما يشغل تفكيره ـ ان المكتب بعويس أو بدون عويس يسير فى سبيل تحقيق اهدافه . ولكن الزمن خطا هذا الرجل . فالمكتب بمرور الزمن وبتنوع الاهداف قد انهار او كاد . وفى الخدمة الاجتماعية وفى غيرها من مواقع العمل لا يمكن أن نتوقع النجاح الا باختيار العاملين الصالحين والمخلصين الذين خلقوا للعمل الذى يعملون فيه . أحبوه فأحبهم وعطوه فأعطاهم . انها الحقيقة الناصعة تؤكد أن عبد العزيز لم يكن مرءوسا سويا فكيف يكون رئيسا سويا ؟ كان لايرى فى ضوء ظروف طفولته وصباه وشبابه وانا اعذره ، الا مصلحته . لايمكن لشخص مثل هذا ان يواجه رئيسا مهما كان مركزه الا بما يرضى هذا الرئيس ولو كان ذلك على حساب مصلحة العمل واتقانه وتحقيق هدفه . ان مايقنع هذا الرجل ، وأمثاله كثير، انه لا يمكن أن يقف فى سبيل رغبة رئيس ولو كانت تهدم المبادىء والاسس التى تحقق رفعة العمل ولا يكون

العمل عملا الا بها خشية ، كما كان يقول لي ، أن يأمر بنقله خارج القاهرة . وماذا بعد ذلك يفعل وظروف أخيه « حميدو » مازالت هى الظروف ، وفوجئت مرة اخرى عندما اخبرت بأن عبد العزيز فتح الباب الذي عين مدير للمكتب بدلا منى قد وافق له بتوصية الدكتور محمد عوض على السفر فى بعثة الى الولايات المتحدة « جامعة بوستن » ليحصل على درجة الماجستير .. وسافر فعلا وكنت لا ازال فى لندن . عدت الى القاهرة من لندن فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ « فى اللحظات التى خرج فيها اللنش الذى كان يحمل الملك فاروق بعد عزله من ميناءالاسكندرية» . وعرفت كيف سافر عندما قابلته بعد عودته قال لى عبد العزيز فتح الباب أن الدكتور محمد عوض لم يوافق على سفره الا بعد ان حاول ان ينحنى له احتراما وتقديرا . اننى اكتب ماكتبت من قبل وقلبى يعتصره الحزن والالم . فقد كان يوم عمل معى طالبا يتدرب تحت اشرافى فى مؤسسة الزفاف الملكى شخصا يطل الاسى من عينيه ، وكان على الرغم من النكات التى كان يطلقها من حين الى حين أمام الآخرين لكى يضحكوا ويضحك معهم فان ضحكه لم يكن يخرج من قلبه وان كان ضحك الاخرين كان يخرج من قلوبهم . كان الاسى وعلاماته التى كنت اراها واعرفها واعرف مصادرها هما طعامه وشرابه . وقد تعلم من الحياة ان لا يبالى اذا ما اسىء اليه وبخاصة اذا كان الذى يسىء اليه شخصا مرموقا . فليسىء اليه من شاء أن يسىء . فهو من اجل ذلك فى حمايته وفى ظل سطوته ونفوذه . والامثلة على كل ذلك كثيرة وعديدة . ولاداعى لذكرها . ويكفى الشخص منا ان يراه مخمورا ليعرف حقيقة ما فى نفسه ، ترى فى هذه الحالة دخيلة نفسه التى ينجسح

دائما وهو يقظان فى اخفائها تبدو واضحة جلية . ويكفى ان يرى الشخص منــا ما يحاول ان يصــل اليه وينجح دائما عندما يكون مرض أخيه العقلى موضــع الحديث . انه على الرغم من المعاناة التى كان ، ولايزال يعانيها من تصرفات أخيه أو من بعضها ، فانك تراه يساوم عليها لكى يحصل من ذى النفوذ على مايريد . ويكفى ان يعلم الشخص منا اسماء ذوى النفوذ الذين كان يعمل عبد العزيز فتح الباب لهم حسابا ، ولا اقول يكن لهــم أحتراما ، انهم على مر السنين قــد تقلص نفوذهم ، ومن ثم فهو غير محتاج اليهم . وتراه بعــد أن كان يسير وهو يلهث من ورائهم يحاول الان ان يسير بعد أن استغنى عنهم ، امامهم وهو يتبختر . ولانهــم أغبياء ، ولانه ذكى ، فانهم لا يفقهون . بل على العكس ترى الواحد منهم يشكو لان عبد العزيز لا يأتى للسلام والتحية كما كان يفعل . وهل يبيــــع عبد العـــزيز فتح الباب ذكاءه فى « سوق الكانتو » ليفعــل ذلك الآن ؟ .

وكان من فضل الله على وانا فى ظروفى المتباينة فى لندن أن يصلنى خطاب من السيدة الزا يقول اننى قــد عينت فى وزارة الشئون الاجتماعية منذ اول ابريل عام ١٩٥١ فى مراقبة الاحداث بالوزارة « مصلحةالخدمات» بنفس مرتبى الذى كنت احصل عليه من المــكتب . ومنحت مدة سنتين اجازة بدون مرتب قابلة للتجــديد للدراسة فى الخارج . وكان الفضل فى هذا التعيين للسيدة الزا وللدكتور محمد صلاح الدين وزيرالخارجية فى ذلك الحين وتوصية الدكتور احمد حسين وزير الشئون الاجتماعية المختص واستراح قلبى من ناحيــة الوظيفة واستقر تفكيرى من هذه الناحية . ولم يكن

يشغلنى كثيرا اننى تركت زوجتى واولادها واكبرهم احمد قد اصبح فى سن الثامنة عشرة من عمره او كاد واصغرهم مسعد الذى اصبح فى سن الثامنة « او اقل من ذلك » من عمره ، وذلك لان المنزل الجديد الذى اصبحت تسكنه اسرتى منذ شهر يونيو عام ١٩٤٠ كان قريبا ليس فقط من المؤسسة التى كنت اعمل فيها بل كان قريبا ايضا من منزل اسرة زوجتى التوجيهية ، اى اسرة ابيها وامها واخوتها واخواتها . وكانت اسرتى الصغيرة بسبب ذلك تزور وتزار . وكان عطف جد اولادى لامهم وحبه عليهم مضرب الامثال . كان رجلا فاضلا ومثالا للتقوى والورع . اما جدة ابنائى لامهم فقد كانت سيدة حازمة فى معظم تصرفاتها ، وكانت كما يقال « صوتها من دماغها » ، ومع ذلك فقد كانت كريمة لاتبخل على قريب او على غريب بشيء من مأكل او مشرب او ملبس او غير ذلك من نقود اذا كان فى حاجة اليها . ويبدو انها كانت تستمد سلطانها على الناس بالسخاء عليهم . ومن ثم كانوا دائما من حولها وتحت مشيئتها اذا كان فى وسعها ان تسخو وتعطى — وعندما لم تستطع لاسباب عديدة ان تقدم للناس مايرغبون فيه ويتوقعونه منها ، انفضوا من حولها — وفى ضوء الظروف التى كنت اواجهها فى ذلك الحين ، لم اكن اخشى على اعضاء اسرتى الصغيرة، واسرة امهم التوجيهية فى ضوء احوالها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية كانت تسمح بمد العون اذا طلب العون سواء كان هذا العون معنويا « وكان هذا مااهتم به جدا » او كان ماديا .

واذا كنت ارجع وانا فى مدينة لندن الى واقعى والى واقع من الوذ بهم ويلوذون بى فى مدينة القاهرة

فى بعض الاحيان ، فاننى كنت أعيش الحياة اللندنية أو احاول ان اعيشها بكل مافيها فى معظم الاحيان . ان العمر يسرع بى والوقت الذى بين يدى يمر مر السحاب والنقود التى أملكها لا يمكن ان تبقى من غير ان تصرف . انها تصرف فى الضرورى كل ما هـو ضرورى مافى ذلك من شك ، ولكنها لن تبقى بمـرور الايام . فانا ادفع الايجار الاسبوعى منتظما ، وانا اشترى مايلزمنى من ملابس أواجه بهـا تقلبات المنـاخ المتغير فى الشتاء وفى الصيف على السواء ، وفى الربيع والخريف كذلك . وانا اواجه نفقات الطعام « ثلاث وجبات على الاقل يوميا » وفضلا عن كل ذلك بل وقبل كل ذلك فاننى اواجه مصاريف الدراسات المنتظمـة وغير المنتظمة : مصاريف الكلية والمدرسـين الخصوصيين واثمان الكتب وما ادراك ما الكتب . ولا يمكن ان انسى وسأذكر دائما كيف حصلت على كتاب « ويلفرد بلنت» « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى المصـرى » « طبعة ١٩٠٧ » . كنت أرغب فى شرء كتـاب « تيودرر روزشتين » « خراب مصر » ، فنصحنى أحد اعضاء اسرة برم روز لكى أحصل عليه بالذهاب الى محل يبيع الكتب القديمة وهو يقع فى أطراف مدينة لندن . وذهبت الى المحل عن طريق مترو النفق . ووجدت المحل المنشود وسألت عن كتاب خراب مصر فلم أجده ، ووجدت كتاب بلنت ، وكنت قد سـمعت عنه من قبل وقيل لى انه ترجم الى اللغـة العربيـة سرا ، وعندما حاولت شراء نسخة من الترجمة العربية وانا فى القاهرة لم اتمكن . واحسست بخفقان قلبى عندما رايت كتاب بلنت . قلبت فيه وصافحتنى صورة « الامام محمد عبده » ، فخفق قلبى اكثر واكثر . ان

جزءا من تاريخ مصر أصبح بين اصابعى الكليلة اقلب فيه ماشاءت قوتها ان تفعل ، وان عينى وهما تريان صورة الامام محمد عبده ـ وكان يصلى وينظر الى من ياخذصورته ـ بدتا وكأنهمـا لا تصدقان . كانت عيناى تنظران الى صورة الامام ثم تعودان وتقلبان مع اصابعى الكليلة صفحات الكتاب وسرعان ما كانتا ترتدان الى الصورة مرة ومرة ومرات . وسألت عن ثمن الكتاب ، بعد أن صممت على شرائه وانا جذلان ، فقــال البائع وهو جامد الاسارير « ثلاثة جينيز » اى ثلاثة جنيهات انجليزية وثلاثة شلنات . وكنت اعلم ان مافى جيبى هو هذا المبلغ بالتمام والكمال ، وحمدت الله على ذلك . ونسيت أننى لابد ان اعود الى بيتى وأننى اذا فعلت ذلك ، ولابد لى ان افعل ، ساضطر الى ان اعــود سائرا على الاقدام . وحملت الكتاب تحت ابطى وقفلت راجعا الى البيت ولم اشعر بشىء غير أننى احمل كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » تحت ابطى . وعلى الرغم من ان دخول هذا الكتاب فى مصر كان مشكوكا فيه مادام الملك فاروق ونظـامه الملكى جاثمين على صدر مصرنا الخالدة ، فاننى كنت سعيدا ، وقد غدرنى الشعور بالسعادة فلم آبه لشىء قد يحدث للكتاب او يحدث لى عند عودتى الى القاهرة . انه معى الآن وفى حوزتى وهذا يكفى ، ولابدأ فى قـراءته من الليلة . وليت هذه القراءة أن تطول وتطول حتى أعرف مالم اكن أعرف ، ولعل ما اعرفه ان يفيدنى ، يفيد نظرتى نحو الحياة ويثرى افكارى وينمى تفكيرى . واعترف باننى كنت سأقرأ كتابا الفـه رجل بريطانى وانه على الرغم من انه كان صديقا لعرابى وانه كـان « ايرلندى » ، فهو بشر قد يخطىء فنغفر له ، ولكنه

قد يتحيز وتكون الطامة الكبرى . ومع ذلك فاننى بادرت الى تخصيص وقت لقراءة هذا الكتاب . وكنت اقرأ عن امور وعن اشياء لم اعرف عنها شيئا من قبـل . وقرات ايضا عن اشخاص مصريين وطنيين مخلصين وعن اشخاص مصريين غير مخلصين . وقرات ايضا عن اشخاص اجانب . وبكى قلبى قبل ان تبـكى عينـاى على « الشهيد محمد عبيد » الذى استشهد فى موقعة « تل الكبير » . وكان «عرابى » محل اعجابى وهو يقف امام قلعة الاستبداد فى ميدان عابدين ليعلى كلمة الحق كلمة مصر والمصريين . وان ملأ الحزن قلبى لما حدث له ورفاقه وهم فى المنفى فى جزيرة سيلان . وقلت فى نفسى انهم بشر لهم اخطاؤهم ولهم مآثرهم . واعترف بلنت بمآثر « عبد الله النديم » وانصف « حسن موسى النقاد » فيما يتعلق باتصاله بمذبحة الاسكندرية التى دبرها اعداء عرابى فى خلال شهر يونيو عام ١٨٨٢ ، واثبت فى ملاحـــق الـكتاب شـــهادة « مستر جون نينت » التى تؤكد عدم علاقة حسن موسى العقاد بهذه الحادثة اللا انسانية . وقد ذكر بلنت عن « ســـلطان باشا » الكثير وبخاصة ماتعلق بشخصيته وعلاقتـــه بعرابى وبمستر « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين وبالخديوى « توفيق » . تحدث بلنت عن غيرة سلطان من عرابى ثم خيانته له وتركه للحــزب الوطنى الذى كان يضم اعضاء الحركة الوطنيـــة على اختلاف مشاربهم ومصالحهم ، وكيف اصبح سلطان ليس خادما للخديوى توفيق فحسب بل كان قبل ذلك وبعده عبدا للانجليز . وذكر بلنت مبلغ ال عشرة آلاف جنيه هدية توفيق له بعد هزيمة « تل الكبير » والوسام « من طبقة فارس » الذى منحه الانجليز له فى نفس

المناسبة . ومهما قيل عن اسف سلطان لما فعله ، كما ذكر بلنت فى كتابه ، فان هذا الرجل قد لطخ شرفه بالوحل واثبت للملأ فى عهده وعلى مدى التاريخ انه خائن لوطنه ولرفقائه ولنفسه . وكل ماذكر عنه بعد ذلك تبريرا لموقفه المشين يدحضه أن بنته المشهورة « هدى شعراوى » لم تجرؤ فى حياتها ان تنسب نفسها على غير عادة المصريات الى اسمه . لم تذكر شيئا علنا عن ان سلطان – قبل وفاتها فى يوم ١٢ من شهر اغسطس عام ١٩٤٧ – كان اباها . واذا كان هذا الاب الخائن قد مات فى يوم ١٤ من شهر اغسطس عام ١٨٨٤ فانها هى واعوانها والمقربين اليها من اصحاب المصالح قد اخفوا هذه الحقيقة المرة ٦٣ عاما . فظهر اسمها « هدى شعراوى » ولم يظهر كما تفعل كل مصرية « هدى سلطان » . انه الشعور بالذنب الذى لا يخفى على لبيب ، الذى برر لهذه السيدة أن تتشبه دون ما مبرر قانونى أو ثقافى بالمرأة الاجنبية فتنتسب الى اسم زوجها بدلا من اسم ابيها او اسم أسرتها التوجيهية او عائلتها لابيها التى سمعت كما تقول ، فى مذكراتها التى نشرت فى شهر سبتمبر عام ١٩٨١ ، من بعض أقاربها نقلا عن آبائهم وأجدادهم انها من اصل عربى . اى ان سلطان ابا هدى شعراوى « أو على وجه اليقين هدى سلطان » كان من اصل عربى . « وقد استوطن أجداده ارض الحجاز وهاجر نفر منهم الى مصر قبل عهد محمد على باشا واتخذوها موطنا لهم ، وتزوجوا مصريات » . والاسرة العربية كما يعلم الجميع أسرة أبوية ينتسب أبناؤها ، ذكورا كانوا او اناثا ، الى الاب . وتحدث هذه الظاهرة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ولا يشذ عن ذلك الا من يروق لهم

هذا الشذوذ .

وكنت اقرأ كتاب بلنت كل ليلة قبل ان انام . وكلما قرات جزءا منه كنت ارجو ان تضاف اليه اجزاء حتى لا تنتهى قراءته . وعشت فترة القراءة مذهولا لما كان يحدث في بلادى فى الفترة التاريخية التى كتب عنها . لم اكن اتصور ان ماحدث حدث فعلا . وكثيرا ما كنت اشك فيما كنت اقرأ واستوعب ، ولكن الوثائق التى ضمها الكتاب كانت تبدد شكى . ولعل كتاب بلنت ان لفت انتباهى الى ان دراسة علم التاريخ امر ضرورى. فكل شيء له تاريخ كما يقولون . وبالاضافة الى التاريخ اكدت لى دراسة علم الاقتصاد الذى كان اســتاذى الدكتور جون لويس يواظب على اعطائى الدرس عن هذا العلم تلو الدرس شارحا لى ماكنت لا اعلمه او كـان امامى يبدو غامضا ، انها دراسة ضرورية ايضا . فعلم التاريخ بكل ضروبه يشرح الماضى ويفسر احداثه . وعلم الاقتصـــاد يشرح الحاضر ويفسر احـــداثه . ودروس الفلسفة فضلا عن نشأة العلم ومنهجه التى كنـــت اتعاطاها فى كلية مورلى ، وما كنت استوعب من علوم فى كلية البوليتكنيك ومعهد الصحافة « بالمراســلة » ، كلها ، وغيرها من العلوم التى تضمها الكتب التى كنت اقرؤها قد اكدت لي ان محيطات المعرفة المنتظمـــة وبحارها عميقة عميقة وانها ايضا تكمل بعضـــها البعض سواء كانت علوما انسانية او علوما مادية . وكنت انظر الى « دائرة المعارف البريطانية » وهى على « الرف » فاذا انا مررت بها أحنى راسى اجلالا واحتراما . وكنت اسمع او اتخيل اننى اسمع مايدور بين المؤلفين الذين دونت آراؤهم فى صـــفحاتها ، كنت اسمع او اتخيل اننى اسمع همهمات تدور بينهم ثم تعلو فتصبح همسات

ثم تصبح هذه الهمسات مايشبه الترحيبات بالتأييد أو مايشبه المشادات بالمعارضة . كان بعض المؤلفين يؤيدون بعضهم بعضا بل وكان يعترف الواحد منهم بفضل من سبقه ، وكان بعض المؤلفين يعارضون بعضهم بعضا بل ويكاد يتهم الواحد منهم الآخر باقتباس آرائه دون الاشارة اليه . وقد يصل الاتهام الى حد ارتكاب جريمة سرقة هذه الاراء عن عمد . ومهما يكن فانني كنت أرى اشعة نور المعرفة تلفح خلايا مخى فأرانى أحنى رأسى اجلالا واحتراما للجميع . وانا ارجو من القـارىء أن يتصور ماحدث لى عندما قرات عن استاذ « اسـحق نيوتن » عندما كتب الى ادارة الجامعة ، وكان نيوتن فى السادسة والعشرين من عمره ، يطلب منها أن يجلس تلميذه على الكرسي الذى كان الاستاذ يجلس عليه اعترافا بما حققه نيوتن من نتائج بحوثه التى اجراها وهو فى هذه السن المبكرة وكانت لها بصمات على تقدم العـلم واتساع آفاقه مما دعا استاذ نيوتن ان يفيد منها . واذا كانت دائرة المعارف البريطانية قد خلدت اسحق نيوتن فانها قد خلدت ايضا أستاذه « اسحق بارو » . واننى اذ ارجو القارىء تصور ماحدث لى فاننى ارجوه ايضا ان يقارن بين مافعله استاذ اسحق نيوتن ومافعله معى أستاذى دكتور محمد عوض محمد . شـتان بين الثرى والثريا ، ان السر الذى يكمن فى ثنايا رفعـة مجتمع من المجتمعات قد وضح جليا بالمثل الذى ذكرت. ان السر فى عظمة مجتمع كالمجتمع الانجليزى ، مهما كانت الامور التى نراها او يراها غيرنا عيوبا ، هو موقف الاستاذ من تلميذه الذى ان دل فانما يدل على احترام العلم واعطاء ، بنفس راضية مطمئنة ، كل ذى حق حقه . والفضل كان لاستاذى جون لويس فى اهتمامه

الشديد لكى أقرأ بعض الموضوعات التى تتعلق بالعلوم التى يدرسها لى وغيرها فى دائرة المعارف البريطـانية فضلا عن الكتب المتخصصة الاخرى . كان هذا الاستاذ لا يألوا جهدا ، وقد عرف شغفى بالعلم ، ان ييسر لى سبيله بكل مافى وسعه . أرسل اليه « هوارد فاست » الاديب الامريكى المعروف نسخة من روايتـه عـن « اسبارتاكوس أو ثورة العبيد » هدية ليقراها ، فاذا به بعد ان قراها راى ان يهديها الى ، اقرؤها واتيح الفرصة لغيرى لكى يقراها . وقد قرات رواية هـوارد فاست الامريكى عن « ثورة اسبارتاكوس ورفاقه » التى بدات قصتها فى عام ٧١ قبل الميلاد ، عندما اعلن للناس فى اوائل شهر مارس من هذا العام نبأ يقول ان الطريق من المدينة الخالدة « روما » الى مدينة « كابوا » قـد اعيد فتحه ، اى عندما بدأ « كايوس كراسوس » رحلته ، وكان بصحبته اخته « هيلينا » وصديقتها « كلوديا ماريوس » لكى يقضى ثلاثتهم اسبوعا مع بعض الاقارب فى كابوا . وكانت الفتاتان تركبان على محفتين مكشوفتين يحمل كل واحدة منهما اربعة من العبيد يستطيع الواحد منهم ان يجرى فى هدوء وهو يحمل المحفة على كتفـه عشرة اميال دون انقطاع ! وكان كايوس يركب جوادا عربيا اصيلا ذا لون أبيض جميل منحه أبوه اياه فى عيد ميلاده . وتروى القصة ان كايوس ورفيقتيـه كانوا يعلمون قبل ان يبدءوا رحلتهم بأنه قد تناثرت على جانبى الطريق الى كابوا رموز العقوبة وآثار الانتقام . وقرات وقرات وعندما قال الدليل لكايوس ورفيقتيـه وهم واقفون امام احد الرموز :

لا يجب أن يدور بخلدكم أن هذا امر غير انسانى أو شىء فظيع . أنها روما تعطى وانها روما تأخذ ، وان

الجزاء من جنس العمل ، وهذا المصلوب واحد من كثيرين سياتون بعد . من هنا الى كابوا هل تدرون كم عددهم ؟ » .

سرت فى جسمى الرعدة كما سرت فى اجسام العبيد حملة المحفتين عندما ذكر العدد . لقد بدأ القلق على حاملى المحفتين وتصلبت اجسامهم ، تماما كما حدث لى. ولكن لم يلاحظهم احد ، ولم يلاحظنى وانا اقرأ العدد ايضا احد . كان عددهم ستة آلاف واربعمائة واثنين وسبعين مصلوبا .

ولم يكن المصلوب الذى وقفوا امامه « اسبارتاكوس » نفسه وذلك لان اسبارتاكوس قد قطع اربا اربا الى درجة انه لم يعثر احد قط على شعرة واحدة من شعره أو قطعة واحدة من جلده . ان حالة اسبارتاكوس تختلف عن حالة هذا المصلوب الذى جئ به الى هنا . لقد أعمل فى هذا بعض التمزيق . وأشار الدليل بعصاه الى ندبة طويلة فى جانب الجسد الميت المعلق فوق راسه . كانت الندبات غير كثيرة وكانت توجد كلها فى جانبى الجسم او فى الجزء الامامى منه ، ولا توجد ندبة واحدة فى ظهره . وقد استمر المصلوب اربعة ايام وهو يموت ، وربما زاد عدد الايام لولا انهم قطعوا أحد اوردته ، واستمر دمه يسيل حتى استنزف عن آخره . وقد أكد الدليل أن المصلوب كان مشاكسا متحديا ذا كبرياء . وقد ذكر أنه عندما اتى به اول يوم الى حيث هو الآن ، ثم بعد ان علق على الصليب ، كان يلعن كل من اتى من ابناء روما المهذبين ! ليشاهده ، كانت لهجته مخيفة ولغته مبتذلة تؤذى اسماع اية سيدة كريمة ! وقد استمر يطلق شتائمه على الرغم من اننى كنت اقول له احيانا : « ان الكارثة التى انت فيها هى مصدر رزقى . واذا

كانت طريقة موتك ليست احسن طريقة يموت بهـا انسان ، فان كسب عيشي هذه ليست احسن طريقـة يكسب انسان بها عيشه ! وسيتقلص ربحي حتما اذا لم يكف لسانك البذيء عن القذف والسباب .. ان اصله وضيع فالعبد عبد ! وانني مع ذلك لا اضـــمر له اى سوء .. » .

وكما توقعت تماما كانت نبوءة هوارد فاست على لسان المصلوب صحيحة حقا . انه لم يابه لحديث الدليل اليه فى قليل او كثير بل استمر يطلق شتائمه حتى اذا اتى مساء اليوم الرابع والاخير لم يسمع له صوت وسـاده الهدوء واصبح جسمه متصلبا ثم قال وكان قوله آخر ماقال :

« ساعود اليكم . وعندما اعود ساكون ملايينا » .

ان هذا المصلوب كما تقول الراوية لم يكن اسبارتاكوس ولكنه كان احد معاونيه ، كان رجلا شديد البأس وكان من المحبين المقربين الى اسبارتاكوس ولكنه لم يكن فى شدة بأسه . كان اسبارتاكوس رجلا قوى الشـكيمة حقا . ولم يعرف احد طريقا اليه بعد هلاكه . فقد مات ميتة متوحشة واصبح من الناحية المادية اثرا بعـد عين . وبقى مع ذلك اثرا معنويا خالدا يقتفى اثره وتترنم بامجده سطور التاريخ . وقد تركت رواية فاست اثرها فى نفسى مافى ذلك من شك . اكدت لى ان الامـل فى الخلاص موجود فى محيط الذين يحتاجون الى الخـلاص انهم وحدهم يستطيعون ان يحطموا الاغلال او ان يضربوا المثل الخالد اذا مافشلوا لمن ياتى من بعدهم لكى يسعوا من اجل الخلاص وحدهم دون انتظار « مخلص » ياتى لانقاذهم . ان الانسان مهما كانت ظروفه يستطيع أن يقاوم الطغيان سواء كان هذا الانسان فردا اى ينتمى

الى جماعة . ولكن الانتماء قوة تيسر مواجهة القهر .
كانت رواية اسبارتاكوس تتضمن العنف وتترقرق سطورها بالحب ، الحب الشخصى والحب الانسانى وما اعظم كل منهما . ان الحب الصادق يستطيع أن يواجه وحده العنف والقهر لانه لا يدع للحقد سبيلا يسلكها بين المحبين . كانوا عبيدا فثاروا فى ضوء ظروف ثقافية اجتماعية واقتصادية وسياسية غير مواتية .
ثاروا ففشلوا واعطوا ، بعد ان دفعوا الثمن غاليا وهم مصلوبون ، درسا لا يقوم لمن اتى بعدهم . اعطانى دكتور جون لويس كل فرصة يراها تصلح لى . لقد دعانى مرة الى السينما لنرى فيلم « فيفا زباتا » .
ورأيت معه الفيلم وكان موضوعه ثورة على الاستبداد والطغيان ايضا . نجح زباتا عندما كان ثائرا فوحد كلمة شعبه الضعيف الفقير امام جبروت الطغاه . وتوحدت الكلمة . ولكن منتج الفيلم لغرض فى نفسه أو فى نفس من كانوا وراءه ابى الا ان يشوه دور المثقفين فى اذكاء الثورة وشد ازرها . ففشل زباتا وقتل اشنع قتلة ، قتل غيلة . ولكنه ترك من ورائه ذكرى لم تخمد أوارها حتى انتصر شعبه .

وانني أذكر عندما ذهبت الى ترى نيومان فى منزله لاول مرة لاتعاطى درس « علم المنطق » ، وجدت امامى فى « الصالة » التى يجلس فيهاصورة « لينين » .
وراح ينظر الى قسمات وجهى ليرى رد الفعل . ولكنى حاولت ان اكون طبيعيا . لم يحدثنى عن لينين وبالطبع لم احدثه انا الآخر . وانتهى الدرس فى سلام ، وسعدت بما عرفت كما سعدت بالجلوس الى الاستاذ بعد الدرس لكى نتحدث . علمت منه أنه يعطى دروسا فى كلية البوليتكنيك ، وهو فى الوقت نفسه اديب يؤلف

القصص والروايات والتمثيليات الاذاعية . وقد نبهني وهو فخور بأن له تمثيلية ستذاع فى البرنامج الاذاعى المعروف « بمسرح ليلة السبت » . واستمعت اليها وكنت مغتبطا للغاية لان لغتها كانت سهلة ميسرة ففهمتها وهيأت نفسي لمناقشته فيها عندما اذهب اليه فى موعد الدرس المقبل . كان هذا الرجل ماركسيا ولكن زوجته التي رأيتها عندما دعيت للغداء عندهما فى احد أيام عطلة الاسبوع كانت « كاثوليكية مخلصة » . ولم يكن فى الاسرة ابناء . وقد علمت ان الزوجة تعمل لتساعد فى نفقات المعيشة ولكى تتيح الوقت الكافى لكى يكتب زوجها مؤلفاته التى لم تكن حتى ذلك الحين رائجة . واذا كان ترى نيومان ماركسيا واذا كانت زوجته كاثوليكية مخلصة فان امه كانت شيوعية ولها نشاط مرموق فى الحزب الشيوعى الانجليزى . وعند ترى نيومان وانا فى ضيافته وضيافة زوجته كنت اقابل أصدقاء له من الذكور ومن الاناث . كانوا جميعا شبابا من البريطانيين في مثل سنى ، كما كانوا من فئة المثقفين الذين على شاكلة ترى نيومان الذى كان يكبرهم سنا . كان منهم اليهود وغير اليهود . وكان الحديث يتناول « القنبلة الذرية » التى كانت فى نظر الجميع وبخاصة ترى نيومان ، الانسان المرهف الحس جدا ، كابوسا يهدد البشرية . وكان الحديث يتناول مستقبل « افريقيا السوداء » وموقف البلاد التى تستعمرها ، ومنها بريطانيا طبعا ، بعد استقلالها . كان هذا الموقف ايضا يسبب لهؤلاء الاشخاص اضطرابا وكانوا يعتبرون ماسوف يحدث كابوسا يهدد المستوى الاقتصادى للبلاد التى تنعت افريقيا بأفريقيا السوداء ، ومنها بريطانيا طبعا . كانت الاحاديث شتى وموضوعاتها عديدة تناولت

الفن التشكيلي في روسيا وكان موضع أزدراء الجميع .
وكان دورى أن استمع ولم اعلق على شيء الا اذا طلب
منى ذلك . وكنت اعتبر هذه الجلسات ثمينة للغاية .
كانت أقرب الى ان تكون حلقات دراسية منها الى مجرد
جلسات عادية . كانت اللغة الانجليزية المتداولة لغـــة
فصحى لا يرهقنى فهمها . لم تكن بالطبع كلغة «الكوكنى»
بائعى الفاكهة على عربات اليـد الذين يقفون فى بعض
أركان مدينة لندن . ومن ثم فقد كنت أنتظر هـــذه
الحلقات الدراسية التى كانت تعقد من حين الى حين .
ويكون الواحد منا فيها وكأنه ذائب فى اعضائها ولايشعر
بالفروق العقائدية او السياسية أو الاجتماعية . ولاحظت
أننى اذا كنت حريصا على حضور هذه الجلسات فان
ترى نيومان وزوجته كانا ايضا حريصين على وجودى .
فأنا اجنبى وانا مصرى ولى دور آخـر فأنا تلميـــذ
لترى‌نيومان . كل ذلك جعل المضيفين حريصين على
ان يكون حضورى هذه الاجتماعات مطلوبا . وقد عرفت
الكثير من هؤلاء وغيرهم وكانوا يتغيرون . وحاولت أن
يعرفوا عنى الكثير ايضا وبخاصة عن مصرنا الخالدة التى
كانت فى ذلك الحين تحت نير الحكومة الانجليزية وشعبها
واذا كان الدكتور جون لويس أتاح لى الفرصة للذهاب
معه الى دور السينما لنرى أفلام مثل « فيفا زاباتا »
و « راشامون » (الفيلم اليابانى) و « الصـــندوق
السحرى » « عن اختراع آلة الكاميرا السينمائية » ،
فان ترى نيومان كان يشجعنى على الذهاب الى دور
السينما ايضا . كان لايذهب هو . وكنت وزوجته بناء
على طلبه تذهب الى الافلام التى كان يختارها لنا وكانت
كلها افلاما روسية . وانني اذكر اننى رايت فيلما قصيرا
عن علاج المكفوفين الذين يمكن بعد اجراء عملية معينة ،

اذا كانت حالة مرضهم تسمح ، ان يروا الدنيا بما فيها من اناس ومن الطبيعة ومن الوان .. الخ . كان يسمى هذا الفيلم « انت تستطيع ان ترى » . كان فيلما عظيما جدا سعدت برؤيته وازداد ايمانى بالعلم واتسعت آفاق تفاؤلى بالحياة . واذكر ايضا اننى رايت فيلما عن حياة « لينين » . كان فيلما طويلا مقسما الى جزئين فرأيننا كل جزء المرة بعد الاخرى . كان فيلما تسجيليا يبين كيف نشأ لينين وكيف تعلم ومتى بدأ النضال وملابسات هذه البداية ، والمعارك التى خاضها سواء كانت معارك فكرية او سياسية ، وبدت للمشاهدين آراءه فى الثورة وكيف تنظم ومراحلها وانتهاز الفرص المواتية لانجاحها فى الفيلم واضحة .. وانتهى الفيلم بموت لينين واستمرار المسيرة من بعده على يد « ستالين » وكنت ارى هذه الافلام وكاننى قرات كتبا عنها . لم اكن اعلق على موضوعاتها الا قليلا . وكانت زوجة ترى نيومان مثلى ترى وتستوعب ولا تعلق الا قليلا . على عكس ترى نيومان الذى كان حريصا عندما اقابله بعد مشاهدة الفيلم اى فيلم ان يناقشنى فيه وان ينتظر رايى وان يبدى رايه . واتصالى لاول مرة بالاستاذ ترى نيومان كان فى الفصل . فلما رآنى عرف توا اننى اجنبى وراى فى ملامح وجهى ملامح وجه « الدكتاتور فرانكو » رئيس اسبانيا فى ذلك الوقت فظن اننى من اسبانيا . فلما ذكرت له اننى مصرى تهلل وجهه وابتسم ابتسامة عريضة . وفى الحصة التالية بادرنى عندما رآنى ذاكرا ان زوجته وهو يسعدهما ان ازورهما فى بيتهما فى اجازة نهاية الاسبوع . وقد رحبت بذلك . وبدات مسيرة التعرف على آل ترى نيومان حتى تركت مدينة لندن فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وعندما عدت اليها فى

شهر اغسطس عام ١٩٦٩ حاولت الاتصال بهما وبمن جاءوا به من ابناء اذا كان ذلك قد حدث فعلا ، حاولت بكل اخلاص ، ولكنى لم اوفق . وبقيت الذكرى .

وكنت اذهب الى البوليتيكنيك بانتظام على الرغم من المناخ المتغير ، اى سواء كانت السماء تمطر ثلجا او كانت تمطر رذاذا ، وسواء كانت الرياح تهب قارسة قاسية وتلسع جسمى « كل جزء فيه » وكأنها «الكرابيج» او كانت هادئة كالنسيم العليل ! كنت احضر دروس العلوم المخصصة لاجتياز الدبلوم العام العالى فى التربيه التى بدأت الاستعداد لها فى المعهد البريطانى وانا فى القاهرة . وتتضمن هذه العلوم التاريخ والتاريخ الاقتصادى الانجليزى والدستور البريطانى وعلم الاقتصاد . وقد التحقت بهذه الكلية بعد مقابلة الاستاذ الدكتور « هيرمان مانهايم » وكان واحدا من هيئة التدريس فى جامعة لندن . كنت اعرف هذا الرجل فقد كان يحاضرنا فى « علم الاجرام » فى عام ١٩٤٨ عندما كنت واحدا من الدارسات والدارسين الذين كانوا يعدون للعمل كمراقبات اجتماعيات او كمراقبين اجتماعيين بالمحاكم . كان معظم هؤلاء الدارسين من البريطانيين . وفى الوقت الذى كانت لغة الدكتور مانهايم وهو يلقى محاضراته واضحة لى كل الوضوح ، كان الدارسون البريطانيون يشكون من عدم وضوح لغته التى يحاضرنا بها . كان اجنبيا من المانيا . وكان يهوديا آثر ترك بلاده الى انجلترا كما فعل غيره من يهود الالمان . واحتضنته بريطانيا واتاحت له فرصة العمل فى تخصصه الذى اشتهر به وهو فى المانيا . كنت اعرف الدكتور مانهايم « هيرمان مانهايم » وانا اكتب الاسم كاملا حتى لا يختلط بالدكتور « كارل مانهايم » الذى

يعرف فى محيط طلاب علم الاجتماع المصريين بمؤلفه عن « علم الاجتمـاع المعرفى » . ومن ثم فقد كتبت اليـه لاستنصحه فى أمرى . وكان الرجل كريما فحدد لى موعدا قابلته فيه فى مكتبه فى جامعة لندن . وذكرت له ظروفى واهدافى . وعرف عن مؤهلاتى وخبراتى فى ميدان علم الاجرام من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥١ أى حتى قبل مجيىء الى لندن لاستكمل دراساتى العالية . وكان قراره بالنسبة للالتحاق بجامعة لندن مخيبا لآمالى . لم يعترف بدبلوم الخدمة الاجتماعية الذى حصلت عليه فى عـام ١٩٤٠ . ولم يعترف ايضا بخبراتى الواقعية فى ميـدان الاحداث الجانحين فى خلال فترة من الزمن لا تقل كثيرا عن اثنتى عشرة سنة . وكانت نصيحته أن احصل على بكالوريوس من جامعة لندن أولا لكى احضر بعـد ذلك لدرجة الدكتوراه مباشرة أو لدرجه الماجستير ثم درجة الدكتوراه . لم يكن الدكتور مانهايم عطوفا نحوى ابدا ، ولم يبد اية رغبة فى كتابة تقرير عنى لادارة الجـامعة شارحا فيه حالتى لعل وعسى . ولكنه والحق يقال اختار لى أن التحق بكلية البوليتكنيك حرصا على وقتى وتيسيرا لتحقيق آمالى التى بدت له وكأنها آمال شخص طموح يعيش فى عالم من الاوهام . وقبل ان ابرح المكان قال لى الدكتور مانهايم أن أحد تلاميذه كان مصـــريا واسمه « حسن الساعاتى » ، وسألنى اذا كنت اعرفه . وقلت له اننى اعرفه ولم اذكر التفاصيل . لم اذكر له عندما اختير فى بعثة الى لندن لدراسة اللغة الانجليزية ان المغفور له الدكتور عبد المنعم رياض نصحه بدراسة مشكلة الاحداث الجانحين فهى أولى أن تكون موضوع اهتماماته . ولم اذكر له انه قبل ان يسافر فى بعثته زار مؤسسة الزفاف الملكى ولم تكن الحرب العـــالمية

الثانية قد اعلنت ، وكيف قوبل بالترحاب فهو مرسل بتوصية الدكتور رياض أول ال[illegible]ونيين الذين كانوا يعرفون الكثير عن مشكلة الاحداث الجانحين المصريين ، وكانت له آراء رائدة فى تشريعات الاحداث منشورة . ولم اذكر للدكتور مانهايم ان المـــادة التى جمعهـــا حسن الساعاتى فى رسالة الدكتوراه التى اجازها كان معظمها من « ملفات » حالات الاحداث الجانحين التى قام مكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ببحثها .. لم اذكر له كيف حدث هذا ؟ عندما جاءنى الزميل « حامد شاكر » وانا مدير للمكتب يطلب منى اتاحة الفرصة لطالب درجـة الدكتوراه من جامعة لندن ليطلع على ملفـــات حـــالات المكتب ، وقد لبيت فى الحال هذا الطلب وخصصت غرفة خاصة من غرف المكتب لتكون تحت تصرف حسن الساعاتي هو ومن يرغب . وكان يعطى حالات الاحداث كل سنة على حدة منذ انشاء المكتب ، وما كان عليه الا ان ينقل بيانات كل حالة فى كشوف « تفريغ » أعدها لهذا الغرض . واستمر اسابيع يفعل ذلك حتى اتم ما اراد . وبان لقارىء الرسالة أن الحالات المنقـــولة بياناتها لم تكن نتاج بحوث باحثى المكتب وكان منهم الاساتذة محمود فهمى واحمد مرزوق وواصف يوسف وعبد العزيز فتح الباب وفتحية عبد الجـــواد وغير هؤلاء مثل الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي والدكتور الطبيب حليم مترى . لم يذكر الطالب الذى أشرف عليه هيرمان مانهايم اسما واحدا من هؤلاء الذين بحثـــوا الحالات التى أفاد من بياناتها فى رسالته . وماذكره فى الرسالة كانت عبارة شكر للمكتب لا تعبر عن الواقـــع الذى كان . لم اذكر كل ذلك ولا غيره للدكتـــور هيرمان مانهايم وخرجت من عنده وانا كاسف البـــال

يساورنى القلق واكاد ان لا اجد بصيصا من نور يبدد مابدا امامى من ظلمات . ولكنى لم أبال وسرعان ماسرت فى كيانى اشعة التفاؤل . وتأكدت بأن الحق ابلج وان مافعله حسن الساعاتى او يفعله او سيفعله غيره مآله زبالة التاريخ . ولسوف يسأل التاريخ عن صحيفة الاستبيان التى فى ضوئها كما زعم حسن الساعاتى جمع مادة دراسة الدكتوراه . اننى لم اجدها فى الرسالة ولم اجدها فى كتاب من كتبه التى نشرها عن موضوع الاحداث الجانحين . ولكل طريقه . هذا طريق سلكه شخص اصبح يلقب بدكتور ، وقد اخترت طريقا آخر ، هو طريق ضيق نعم ، ولكن من سلكه كان آمنا واثقا يدعو الى كل ماهو طيب ويحاول مخلصا التغيير الى ماهو افضل واقوى واعظم . ولن يجدى الدكتور حسن الساعاتى ان يكتب فى كتاب حديث وقع فى يدى وانا اكتب هذه السطور اى بعد سبع وثلاثين سنة ، ان يقول معترفا بما فعله فى عام ١٩٤٥ « .. حضرت الى القاهرة فى اجازة دراسية من جامعة لندن لاجراء العمل الميدانى لبحثى فى موضوع جناح الاحداث فى مصر . وقمت بنفسى باجراء العمليات الاحصائية والتصنيف بالعد اليدوى . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اننى نقلت بنفسى وبمساعدة السيدة حرمى ملخصات كمية مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين « المهتمين بالخروج على قانون العقوبات او قانون الاحداث المشردين» التى وردت الى كل من مكتبى نيابة الاحداث فى كل من القاهرة والاسكندرية » . انه ذكر نقل مايزعم أنها ملخصات كمية مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين التى لم يبحثها هو نفسه ولم يذكر أسما واحدا من باحثيها . والملاحظ أن الحالات وردت الى كل من مكتبى

الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية والملاحظ ايضا ان ملف الحالة كان يتضمن معـــلومات كمية وكيفية : منها مثلا نتيجة اختبار ذكاء الحـــدث ودراسة نفسية عنه فضلا عن التتبع الذى كان يقوم به باحث الحالة ويتضمن هذا التتبع زيارات المـــكتب والمحكمة والاسرة ومحل العمل والمدرسة وكل ما يتعلق بسلوك الحدث ومشاكله والاسهام فى حلها ومدى تقدم الحالة من عدمه والانتهاء من التتبع وعوامل هذا الانتهاء فقد يكون منها سفر الاسرة او هروب الحـــدث خارج القاهرة او وفاته ... الخ ان البيانات التى افاد منهـا الدكتور الساعاتى فى رسالته لم تكن ملخصات كميـة مقتضبة ، فانا اذكر اننى اطلعت على كتاب قام الدكتور حسن الساعاتى بتأليفه فى عام ١٩٥١ « عندما كنت فى رحلتى العلمية الثانية فى مدينة لندن » ، وهو الـكتاب الذى اعطاه عنوانا هو « فى علم الاجتماع الجنائى » . كان الدكتور الساعاتى فى ذلك الحين مدرسا بمعهـــد العلوم الاجتماعية ــ كلية الآداب ــ جامعة فاروق الاول « جامعة الاسكندرية » . وعندما اطلعت على هـذا الكتاب وجدته ملخصا لرسالة الدكتوراه التى اجازها الدكتور هيرمان مانهايم ، اى الرسالة التى قدمهـا الى جامعةلندن ومنح بعد اتمامها درجة الدكتوراه . ولاضير فى ذلك فالعمل عمله ومن حقه أن يضمه او يضم ملخصا له فى كتاب . وشاءت الظروف ان يتقابل الدكتـــور الساعاتى معى فى « المعهد القومى للبحوث الجنائية » فى عام ١٩٥٦ ، كان يعمل فى هذا المعهد بعض الوقت ، وكنت اعمل فيه كل الوقت . وبدا المعهد العمل فى بعض البحوث فى ميدان الجريمة أو ذات الصلة بهذا الميدان اختيرت خصيصا من الظواهر اللامعة اجتماعيا وتكونت

من اجل اجراء البحوث العلمية الاجتماعية والنفسية والطبية والانثروبولوجية عنها هيئات بحوث مشكلة من أعضاء المعهد ومن خارجه تحقيقا للشعار الذى تبناه المعهد فى ذلك الحين « لا احتكار فى العلم » . وكانت موضوعات هذه البحوث : « البغاء فى القاهرة ـ مسح اجتماعى ودراسة اكلينيكية » و « تعاطى الحشيش » و « جريمة القتل » و « جرائم السرقة عند الاحداث · دراسة أحصائية تحليلية » و « الثأر : دراسة انثروبولوجية » . وكنت قد عدت لتوى من الولايات المتحدة حاصلا على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة . وكانت فى جعبتى أفكار وافكار . منها مثلا ضرورة الاهتمام بدراسة الاحداث المعرضين للجناح ، وبدراسة حجم ظاهرة جناح الاحداث وحجم ظاهرة التعرض لجناح الاحداث ، والاهتمام الضرورى بدراسة صور الجريمة والجناح كل صورة على حدة « كانت كل الدراسات والكتب التى تعالج موضوع الجريمة او الجناح تتحدث عن عوامل الجريمة وعوامل الجناح والملاحظ أن عوامل صورة كصورة جريمة القتل العمد غير عوامل صورة كصورة جريمة هتك العرض أو الاغتصاب أو جمع الاعقاب مثلا » . والاهتمام الضرورى ليس فقط بالجانى وظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية .. الخ بل ايضا بالمجنى عليه وصلته بالجانى .. الخ . وكنت أدعو الى ضرورة دراسة الجرائم غير المنظورة التى تبدو واضحة فى جرائم مثل تعاطى المخدرات والتهريب والرشوة والجرائم الجنسية . وفى ضوء تأثير تعاليم استاذى الاستاذ يعقوب فام كان من أهدافى ان ندعم عمل الفريق فى كل بحوث ودراسات المركز . وكنت عندما انتهيت من

كتابة تقرير بحث « جرائم السرقة عند الاحداث : دراسة احصائية تحليلية » قد دعوت ادارة المركز الى مناقشة التقرير وذلك بأن يجتمع باحثو المركز والمهتمون بالموضوع لمناقشة هذا التقرير كتقليد يتبع عند انتهاء كل بحث وبخاصة ونحن فى مستهل حياتنا كباحثين اجتماعيين علميين مصريين فى ميدان الجريمة والجناح ، اى ان مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى مصر مازالت فى المهد ، ولعل المناقشات واكتشاف العيوب ونواحى القصور فى بحوثنا اولا باول ان ييسر تلافى هذه العيوب وهذا القصور بمرور الوقت . واخذت ادارة المركز بهذا الراى ووزع تقرير البحث المشار اليه فى شهر ديسمبر عام ١٩٦١ ، وحددت جلستان لمناقشته فى اوائل شهر يناير عام ١٩٦٢ . مع ملاحظة ان هذا التقرير كان قد تم طبعه فى يناير عام ١٩٦٠ .

***

صورة من جواب الدعوة لمناقشة التقرير
هيئة بحث السرقة عند الاحداث

السيد الاستاذ الدكتور

مدير عام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

بعد التحية ، اتشرف بتقديم تقرير بحث السرقة عند الاحداث « المرحلة الاولى » فى صورته النهائية .

وانى أبادر فأتقدم باسمى وباسم زملائى اعضاء الهيئة

الفنية بالمعهد بالشكر العميق الى سيادتكم على ماتفضلتم به علينا من عطف وتشجيع طوال فترة دراسة هـذه المرحلة من البحث . مما كان له اكبر الاثر فى السير قدما نحو تحقيق الهدف ، على الرغم من العقبات والصعوبات التى صادفتنا .

وانتهز هذه الفرصة فاتقدم الى سيادتكم باقتراح عقد ندوة علمية للهيئة الفنية بالمركز ، يتحدث فيها ممثلون عن البحوث التى انتهت عن التجارب والصعوبات التى مرت بهم فى خلال فترة البحث ، ومن ثم تتاح الفرصة للجميع لتبادل الآراء والخبرات فى صراحة تامة ، وبهذا نختم مرحلة ونبدأ اخرى جديدة ونحن اعمق فهما واكثر نضجا ، ومن ثم اكثر ثقة فى انفسنا بالمستقبل .. ومع جزيل الشكر .

ارجو ان تتفضلوا سيادتكم بقبول فائق احترامانى .

المشرف بالنيابة عن البحث
سيد عويس

وكان اجتماع لجنة كتابة التقرير النهائى عن «بحث السرقة عند الاحداث « الجزء الاول » يضم هذا الاجتماع الزميلة آمال عثمان والزميلة ناهد صالح والزميلة هدى مجاهد والزميل على حسن فهمى والزميل يوسف صبرى . وقد تم هذا الاجتماع فى خلال عام ١٩٥٩ اى قبل الانتهاء من من كتابة هذا التقرير فى يوم ٢٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ .

***

وقد اضطررت الى الاشراف على البحث في شهر يونيو عام ١٩٥٨ عندما حالت ظروف استاذى الدكتور عبدالعزيز القوصى « المشرف الاول فى خلال الفترة من شهر مارس عام ١٩٥٧ حتى شهر يونيو عام ١٩٥٨ » دون امكانه الاستمرار فى الاشراف على هذا البحث . وكنت سعيدا جدا بهذه المناسبة العلمية ، وحضرها الكثيرون وكان من بين الحاضرين الدكتور حسن الساعاتى وسارت المناقشة على مايرام . وقد افاد الجميع وانا منهم بكل ماقيل . وكان بين ماقيل ماقاله الدكتور الساعاتى « عما اذا كان المشرف « الذى هو انا » قد اطلع على كتابه « فى علم الاجتماع الجنائى » ولاحظ ماذكره عن جرائم السرقة عند الاحداث فى كتابه المشار اليه » وذكرت فى جلسة المناقشة انى اطلعت على ماكتب فى هذا الكتاب ، وان ماكتب فيه الكثير من الغموض وسأرد عليه فى دراسة انشرها فى « المجلة الجنائية القومية » مجلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية « اصبح المعهد القومى للبحوث الجنائية فى ضوء القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » . ورجوته أمام الحاضرين أن يرد عليها ، ولنبدأ المناقشات العلمية فى ميدان الجريمة والجناح فى مصر بأسلوب موضوعى ، تكون فيه قدوة ومثلا يحتذى . فالهدف الاول هو مصرنا الخالدة . ونحن نعمل من اجل رفعتها وتطهير مجتمعها من الادران والمشاكل ومنها ظاهرة الجريمة وظاهرة الجناح. وكانت الجلسة قد انتهت مدتها ، وكانت هى الجلسة

الثانية . وخرجت من المكان وقد عزمت على الاستعداد لكتابة الدراسة التى وعدت بأن اكتبها. وعلى الرغم من الاتصالات التى كانت بينى وبين الدكتور حسن الساعاتى السابقة فاننى لم اكن لادعى اننى سبرت غور نفسه فى ذلك الحين . اصبح منذ لحظة اهتمامه بالاحداث الجانحين عندى زميلا بل صديقا . وكل مافعله فى الماضى قبل مناقشة بحث « جرائم السرقة عند الاحداث » يدل على ذلك . قبل ان يسافر فى بعثته فى عام ١٩٣٩ وبعد ان عاد الى القاهرة واشترك مع زوجته الفاضلة فى اعداد معهد الخدمة الاجتماعية للفتيات بعد عام ١٩٤٦ . كان ميدان عملنا واحدا ، واذا كان هو الاسبق فى التحصيل الاكاديمى العالى فكنت انا الاسبق فى العمل الاجتماعى فى ميدان الاحداث الجانحين سواء كان ذلك فى مؤسسة الزفاف الملكى او فى معسكر كوم امبو او فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة او فى ادارة الاحداث فى وزارة الشئون الاجتماعية « شهر ابريل عام ١٩٥١ — شهر اغسطس عام ١٩٥٣ — كان تعيينى فى هذه الادارة عندما كنت فى لندن واستلمت العمل فى شهر اغسطس عام ١٩٥٢ » . كنت اود بكل الحب أن نناقش قضايا الميدان علانية اما فى اجتماعات اسبوعية او نصف شهرية او حتى شهرية ، او ان ننشر هذه القضايا فى المجلة الجنائية القومية . كل ذلك من اجل تحقيق اهداف عدة منها ان نتبادل الخبرات ،ومنها ان نتفق على معانى المفاهيم وان نحاول الاتفاق على

صياغتها باللغة العربية ، ومنها ان نضع التقاليد للمناقشة الحرة والعمل الجماعي ، فالعلم لا كبير عنده . وكلنا في مسيس الحاجة الى ان نتعلم الكثير وان نعلم الكثير .

وعكفت على كتابة الدراسة ، وكانت لادارة المركز وجهة نظر في نشرها ، وكان للدكتور الساعاتي آراء في نشرها . وانني ارجو من القارىء أن يتفضل بقراءة الدراسة وقراءة ملاحظات الدكتور الساعاتي وبخاصة الفقرات التي حوط حولها بالحبر وطلب عدم نشرها . وانظر ايها القارىء الكريم الى هذا الرجل الذى لم يهتم بالمضمون الذى كان من واجبه أن يدافع عن نفسه من اجله ، فتراه يهتم بهجاء كلمة مثل كلمة « نشئوا » . وقد حاولت ان اقنع ادارة المركز والدكتور الساعاتي بان ينشر رده مع الدراسة التي كتبتها جنبا الى جنب في المجلة . طلبت هذا مرارا ولكن الطلب لم يستمع اليه احد . ان الضرورة كانت تحتم اجابة هذا الطلب الجاد . فقد كنا في ذلك الوقت مسئولين عن وضع اسس لمهنة جديدة هي مهنة البحث العلمي الاجتماعي في المجتمع المصري . ان بعض ماكتبته في دراستي يشير الى الكثير من الغموض والشبهات ولا اقول من الاتهامات . ولانني كنت أعلم كما سبق او اوضحت عن احد مصادر المعلومات الهامة التي جمعها الدكتور الساعاتي في بحثه فقد كنت قادرا على ابراز جوانب كثيرة من هذا الغموض فضلا عن بعض الاخطاء ووجهات النظر المختلفة . ولن اخوض في الدراسة وماذكر فيها وموقف ادارة المركز منها . ولكنني أقف لحظة امام احد المفاهيم التي كثيرا مارددة الدكتور الساعاتي فى محاضراته وفى مناقشاته على اساس انه من ابتكاره ومن صنع

يديه « اقصد بهذا المفهوم مفهوم منطقة تفريخ الجريمة » كان الدكتور هاريمان مانهايم عندما كان يلقى محاضراته على الدارسات والدارسين الذين كانوا يدربون للعمل كمراقبات اجتماعيات او كمراقبين اجتماعيين بالمحاكم . وقد كان من حظى ، كما يعلم القارىء ، ان اكـــون احدهم ، وقد لاحظت ان الدكتور مانهايم كان كثـــيرا مايشير الى مراجع تتضمن بحوثا ودراسات قام باجرائها علماء امريكيون . وفى خلال دراســـتى فى الولايات المتحدة « جامعة بوستن » لاستكمال دراساتى العليـــا ، وكان ذلك فى خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ حتى يوم ٢٩ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . اطلعت على مقام « ادوارد ج بوسنياك » Posniak Edward G. وهو ؟ Does the slum breed crime — وكان منشورا فى مجلة Federal Probtion — ابريل — يونيو عام ١٩٤١ . ومعنى عنوان المقال واضـــح فهو يقول هل البيئة المتخلفة تفرخ الجريمة ؟ لقد نشر هذا المقال فى عام ١٩٤١ واجيزت رسالة الدكتـــوراه وموضوعها : جناح الاحداث فى مصر التى قدمها الدكتور الساعاتى لجامعة لندن فى عام ١٩٤٥ . والملاحظ أن القول بأن بيئة ماتفرخ الجريمة تبسيط زائد على الحد لتفسير السلوك الاجرامى ولا يمكن الاخذ به .

دراسة لكتاب « فى علم الاجتماع الجنائى »
للدكتور حسن الساعاتى
بقلم : د . سيد عويس

خلاصة البحث :

كتب المؤلف خلاصـــة البحث فى صفحتين « ١٣٦ ، ١٣٧ » وابرز ماتضمنته مايلى :

١ – **يرى المؤلف ان المجموعتين اللتين اجرى عليهما** البحث غير صغيرتين وان وسائل البحث كانت تجريبية وكان الوقت الذى استغرقه قصيرا جدا .

ويعترف المؤلف بأنه لا يزال هناك نطاق مجهول فى ميدان هذه المشكلة يحتاج الى اماطة اللثام .

ومع ذلك فالمؤلف يقول ان النتائج التى وصل اليها مشجعة الى حد كبير .

٢ – يرى المؤلف أن المجموعة الجامحة ادنى شـــأنا واسوأ حالا من المجموعة الضابطة ، وذلك فيما يختص بالعوامل البيئية والذاتية التى يقول انه بحثهـــا وحلل نتائجها .

وابرز العوامل البيئية – فيما يقول – تلك التى تتعلق بمهن الاحداث ، وحالة اسرهم الاجتماعية والاقتصادية.

اما اقوى العوامل الذاتية وابعدها اثرا فتلك التى تتصل بحالتهم العقلية والاخلاقية ..

ويعتبر المؤلف العوامل السابقة عوامل اســـاسية الاجرام .

٣ – ومن رأى المؤلف ان هناك عوامل اخرى ســماها عوامل فرعية . وهذه العوامل الاخرى هى معـــاملة

الوالدين للحدث وحالته الصحية وعاداته .. الخ .

٤ ـ ويعود المؤلف ويقول ان هذا التمييز بين العوامل بعضها وبعض ليس فيه تعنت او اجبار ولكنها محاولة الى توجيه النظر الى العوامل الاساسية ، وأن الحق الذى لا مرية فيه أن هذه العوامل كلها على جانب كبير من الاهمية وان الارقام التى ذكرها تبرهن بشكل عام على ان العوامل البيئية الذاتية ذات آثار خطيرة فى اجرام الاحداث وتشردهم .

٥ ـ ويعود المؤلف مرة أخرى فيقول ان هذه العوامل نفسها قد ذكرت فيما يتعلق بالاحداث العاديين ، ولكنه وجد ان آثارها معتدلة فى كثير من الحالات ، ولذلك « لا نستطيع ان نجزم بان احد تلك العوامل دون غيره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحداث وتشردهم ، الذى يعتبر ظاهرة اجتماعية معتلة تنجم عن مؤثرات متعددة عادة ، ومختلفة اختلافا بينا ، بعضها يعقب بعض وتتجه كلها الى نهاية واحدة » « ص ١٣٦ » .

٦ ـ ويعود المؤلف الى هذا الموضوع مرة اخرى فيقول ان فى رأيه ان الاجرام والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل شتى بشكل خاص وترتيب معين .

واختفاء عامل واحد او ظهور عامل جديد لم يكن فى الحسبان كفيل بتغيير الظروف فتتغير النتيجة النهائية تبعا لذلك .

٧ ـ ولا يشك المؤلف فى ان خلاص الاحداث غير الخارجين على القانون انما يعزو ـ كما يقول ـ الى حقيقة بالغة الاثر ، وهى أنهم :

ـ لم يعلموا الاجرام ولم يشجعوا على التشرد .
ـ لم يكونوا مهملين كل الاهمال .
ـ كانوا فى رعاية آبائهم او ذويهم ، وفى حالة وفاة

هؤلاء او اهمالهم او عدم استطاعتهم القيام بواجبهم لاى أمر من الامور ، قيض الله لهم من يشرف عليهم ويعنى بشئونهم من الجيران الرحماء او الاصدقاء الصلحاء او « اسطوات » المهن الكرماء .

– ويرى المؤلف من حسن الحظ أن الاطفال المصريين لا يعتبرون اهتمام الناس « الغرباء » تطفلا او تدخلا فى شئونهم ، لانهم يربون منذ نعومة اظفارهم على احترام الكبار وتبجيلهم والاستماع الى نصحهم وارشادهم .

٨ – وقد لاحظ المؤلف أن كثيرا من الجامحين الذين نزحوا من الريف او البلاد الصغيرة الى القاهرة « يلاحظ أن عدد هؤلاء هو ١٨٤ حدثا اى بنسبة ٢٣٪ ، وهى نفس نسبة عدد الاحداث من المجموعة الضابطة « انظر جدول رقم ٣٢ صفحة ١٠٥ » قد وقعوا لسوء الحظ ، فى أيدى نساء فاسدات ورجال غلاظ الاكباد، فاستغلوهم فى تحقيق مآربهم الدنيئة ، وعلموهم السرقة والنشل ، وشجعوهم على الفساد .

٩ – وفى ضوء هذا يرى المؤلف ان سلوك الصغار يتوقف الى حد كبير جداً على سلوك الكبار ومعاملتهم ويعلن دون أدنى تردد ان اجرام الاحداث وتشردهم فى مصر مشكلة الكبار الى حد كبير وبعيد .

ويلاحظ ماياتى :

١ – ان مفاهيم العوامل البيئية والعوامل الذاتيـة استخدمها المؤلف ولم يوضح معناها ، ولو أنه قصرها على مابحثه وحلل نتائجه « أنظـر صـفحات ١٠٨ – ١٣٥ » .

٢ – ان تحفظ المؤلف عند كلامه عن ورود ذكـر العوامل نفسها فيما يتعلق بالاحداث العاديين بقـوله « غير ان آثارها كانت معتدلة فى كثير من الحالات » قد أوصله الى عدم الجزم بأن احد تلك العوامل دون

قيره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحـــداث وتشردهم وقد انتهى به الامر الى ان فى رايه ان الاجرام والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل شتى بشكل خاص وترتيب معين .. الخ « صـــفحتا ١٣٦ - ١٣٧ » .

وهذا راى لم تحققه نتائج بحثه . وان كـــان قد عرف قبل اجراء بحثه . اننا كنا ننتظر من هذا البحث الوصول الى تلك « الظروف المعينة » التى تتداخل فيها عوامل شتى .. الخ فى ضـــوء الواقع الحى لمجتمعنا .

واننى اذ اختم هذا المقال ، اكرر ماسبق أن قلته فى صدره ، بأن كتاب الدكتور الساعاتى من الكتب القليلة التى تناولت ظاهرة الجريمة فى ميدان الاحداث تناولا جادا ، والتى حرصت على دراستها دراسة موضوعية . وماشجعنى على كتابة هذا المقال الا ماذكره مؤلفــه ، فى تواضع وشجاعة ، عند تحدثه عن أهداف نشره ، اذ يقول « وكذلك نرمى الى حفز الباحثين الى توجيــه جهودهم للبحث فى هذا الميدان . عساهم يعثرون على مالم نكن قد استطعنا العثور عليه فى هذا البحث » .

واود ان اؤكد مخلصا اننى لم اهدف من جميع ماذكرت الا الخير من اجل مصرنا الخالدة . ان الظروف الثقافية الاجتماعية المصرية فى ذلك الحين وفى كل حين فى حاجة ماسة الى القدوة الحسنة . ولعل العلماء المصريين أن يكونوا اولى بشرف هذه القدوة . اننى قد اكون مخطئا . ومع ذلك فالراى والراى الآخر يجب أن يســودا . اننى فى ضوء ظروفى الخاصة وقد قمت بما قمت به فى المجتمع المصرى القديم قدم الدهر المستمر اســتمرار الحياة لا يمكن ان ادعى الكمال ، ولكنى أؤمن بالعلم ولن

يسود العلم الا بالامانة العلمية . واود ان اذكر القارىء بأننى لن اعيش اكثر مما عشت ، ومن ثم لا مطمع شخصى عندى الا ان اقول مايجب على ان اقوله . ولا يمكن لشخص مثلى ان يهدف من ذلك كما ذكرت الا كل ماهو خير من اجل مصرنا الخالدة . فالاستاذ المفكر لابد وأن يكون ، ومعذرة للتكرار ، قدوة حسنة ليس فقط لمريديه بل لمن يأتون من بعده كذلك . وانا اذكر فى احدى جلسات « المؤتمر الدولى للاحصاء والحسابات العلمية والبحوث الاجتماعية ٥ـ٨ ابريل عام ١٩٧٦ » ، وكان مقررها الدكتور الساعاتى وكنت احد الباحثين الذين قدموا دراسة عن « نظرة الشابة المصرية المعاصرة نحو نفسها : تجربة منهجية » . وفى أثناء مناقشة دراستى دعا الدكتور الساعاتى الى ضرورة التعليق على البحوث والدراسات التى يجريها الباحثون المصريون ومنها بحوثه ودراساته وأشار الى أمام الحاضرين وكانوا كثيرين قائلا مايعنى اننى لم افعل ذلك وعاتبنى عتابا رقيقا واكد دعوته لى لان افعل . ولم استجب لهذه الدعوة فى ذلك الحين ولم اذكر الاسباب الداعية الى احجامى عن التعليق او نقد بحوثه ودراساته امام الجمع الحاشد من الحاضرين . كانت الاسباب معروفة لديه ولدى . ولم يذكر احدنا شيئا عنها . ولعله كان ان نسى ماحدث عندما حال مشتركا مع ادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية دون نشر دراستى عن كتابه « فى علم الاجتماع الجنائى » . ولعله كان متذكرا فانا لا استطيع ان أجزم . ومهما يكن من الامر فأنا اذ اكتب ماكتبت لا ارى الدكتور الساعاتى أمامى ، ولكن ارى المستقبل . ولنا فيما حدث لسمعة « سيريل برت » العلمية ، مؤلف كتاب « الحدث الجانح » المشهور

والذي كان يعتبره البعض انجيلا ! درس وأي درس .
فالحقيقة العلمية وان حاول البعض اخفاءها ستظهر حتما في يوم من الايام . والثمن الذى يدفعه أمثال سيريل برت في محيط العلم والعلماء ثمن باهظ يستحقونه . لقد ضلل هذا الرجل العلماء والاساتذة والطلبة وظن ان لقب « سير » او لقب « بروفسور » كان لايهما أولهما له وجاء ، ولكن جاء الوقت وكشف ستره « اللهم احفظنا » . والملاحظ ان الحقيقة العلمية لاتخبو ولا تتغير بمعنى انها فى ضوء العوامل التى تكشفها للباحث تبقى مادامت هذه العوامل قائمة . اننا اذا قلنا ان الماء يغلى في درجة مائة مئوية تحت الضغط العادى ، فان الماء سيغلى في كل مكان مادامت هذه العوامل قائمة « درجة مائة مئوية + الضغط العادى » ، ولكن الماء قد يغلى اذا ارتفع الانسان على قمة جبل فى درجة اقل من مائة مئوية وذلك لان الضغط اصبح غير عادى . هـذا كلام معروف للقارىء كل المعرفة والمعرفة كلها . والملاحظ ايضا ان « كوبرنيكس » قد وصل الى بعض الحقائق العلمية ولكن « جاليليو » وصل الى حقائق علمية اخرى، وعندما تيسر « لنيوتن » ان يصل فى ضوء تجاربه الى حقائق علمية اخرى ساعد فى تقديم عالم احدث للانسان.
ان كوبرنيكس لم يكن مخطئا ولا جاليليو ولا نيوتن بعد ان جاء من بعده « انشتين » بحقائق علمية اخرى . ان العلماء اناس يرون العالم وكان الواحد منهم يتسلق جبلا فكلما ارتفع الواحد منهم كان اتساع مايراه من أفق .
فاذا ارتفع عالم فى قاعة كوبرنيكس المسافة التى ارتفع اليها كوبرنيكس يرى ما رآه الاخير مهما كانت عقيدة هذا العالم أو مذهبه . واذا ارتفع عالم فى قامة جاليليو المسافة التى ارتفع اليها جاليليو يرى ما رآه جاليليو ..

وهكذا . والحقيقة العلمية يقصد بها هنا « القـــانون العلمي » . وانني اثبت ذلك لان هناك مفاهيم اخـرى باللغة الاجنبيه قد تترجم الى « حقيقة » مثـل مفهوم Reality — أو مفهوم Fact — ولو اننا نجد ان البعض يرى أن المفهوم الاول يترجم الى «واقعة» وليس الى « حقيقة » . ومهما يكن من الامر فان الحقيقة العلمية او الحقائق العلمية التي كشفت خداع سيريل برت كانت قوانين علمية اثبتها العلماء المتخصصون الذى جاءوا من بعده . ولم يهم ان برت كان حائزا على لقب « سير » او كان الرجل في الجامعة الذى يعرف اذا سأل سائل عن « البروفسور » . اى ان من كان يذكر لقب «البروفسور» كان يعني سيريل برت عندما كان على قيد الحياة . كل هذا عرض لا يهم فالحـــق ابلج ، والتاريخ لا يرحم الا العـــاملين الجـــادين . اذا كانوا ، عن حسن نية ، من المخطئين ، فكل ابن آدم خطاء . وهذه حقيقة كما يقرها العلم يقرها نبى الاسلام ســـيدنا محمد عليه الصـــلاة والسلام .

وهانذا في محيط بحار المعرفة ومحيطاتها احاول ان اسبح حتى اصل الى بر الامان . سواء كانت هـــذه البحار والمحيطات في الكلية او في الكتب او في المتاحف او في جلسات الاصدقاء المثقفين الخاصة منها او العامة واقصد بالاخيرة المحاضرات العامة التي كانت موضوعاتها ومواعيد القائها تنشر في الجرائد وبخاصة جريدة الدايلي ووركر . وقد كان يجذبني حقا موضوع « العلم : تاريخه ومنهجه » . الذى كنت احرص على حضور محاضراته في كلية مورلى . كان كتاب « الرياضيات للمـــلايين » او كتاب « العلم للمواطن » (لهوجبن) ملاذا لى الجـــا اليهما اذا ماعن لى ان استزيد من معرفتي . كانا كلاهما

مصدرين لمعلوماتي اجد المتعة الحقة في الاطــلاع على موضوعاتهما ، وكنت أسعد لتقدم الانسان رويدا رويدا ، منذ فجر التاريخ وتقدم الانسان نحو المعــرفة واضـــح وملموس . وكنت ادرس « هولدين » العـــالم البيولوجى المعروف وبخاصة كتابه « ماهى الحياة ؟ » وكتابه الآخر « كل شيء له تاريخ » وقد أثرا فى تأثيرا كبيرا . وسيرى القارىء فى هذه الدراسة كيف قلبت عبارة « كل شيء له تاريخ » تفكيرى رأسا على عقب وبخاصة عندما درست كتاب « الغصن الذهبى » للعالم فريزر » ، وعندما درست كتاب « فجر الضمير » (للعالم برستد) . ولم أكن لاعرف عن هذه الكتب وغيرها الا عندما اقترحهما لى الدكتور جون لويس لكى أقتنيها . وانا شخص لم يمنعنى شيء فى هذه الدنيا ، وحتى كتابة هذه السطور ، الا أن أقتنى كتابا جيدا . كانت دروس كلية مورلى نافذة على آفاق المعرفة الانسانية الواسعة . منها عرفت الفــرق الجوهرى بين « عالم الازهر العصرى » وبين « عالم الذرة العصرى » . ومنها عرفت كما ذكرت آنفا كيف تقــدم الانسان منذ الماضى السحيق وحتى الوقت المعاصر عندما حاول ، ونجح ، أن يكتشف القوانين التى تسيطر على الظواهر الطبيعية وعلى الظواهر الانسانية ليتسلط هــو عليها . عرفت مثلا ان العجلة « وهى توجد الان فى معظم او كل عناصر التكنولوجيا البدائية منها « عجلة العربية الكارو مثلا » والعصرية « عجلة الطائرة مثلا » والبوصلة والبارود والطباعة ، كلها ، قد اسهمت فى تقدم البشرية اسهاما رائعا . ولن اتحدث عما وصل اليه الانسان فى الوقت الحاضر ، وقت كتــابة هذه السطور ، الذى قد بدأ ، فى رأيى المتواضع ، « بعصر الالكترونات » .

وقد كان علم الحياة يشدنى الى معلوماته العلميــة

شدا . كان يجذبني لكي اعرف اسرار الحياة وبخاصة المادة التي يفكر الانسان بها . لقد ذهلت سعادة وفرحا عندما رايت أدوار حياة الجنين وهو في بطن امه منذ لحظة تلقيح البويضة حتى الوضع عندما زرت المتحف الطبيعي في لندن . وكان ذهولي وسعادتي لا تقدر عندما عرفت ، وانا المصرى ، ان القطن الابيض اللون ، يمكن ان يزرع وينبت ملونا حسب رغبة المنتج فقد يكون قطنا أبيض او احمر او اصفر .. الخ ان التطبيق البيولوجى العلمى يسير قدما نحو خدمة الانسان ومواجهة حاجاته الضرورية لكى تتأكد انسانيته ورقيه وتطوره . وما اسعدنى عندما كنت أعرف معلومة جديدة عن طريق علم الحياة ، وما اكثر ماكنت أعرف ! ان معرفتي عن ان « القردة الانثى » تحيض مثلها مثل « الانسانة الانثى » كادت ان تطيح بكيانى فرحا وانتصارا . كان انتصارا على الجهل الذى يبدده عندى نور ما اعلم . واكتشاف « الخلية الحية » وما كان له من آثار ، كان يمثل لى قفزة الى الامام نحو تحقيق الكثير من الآمال المعرفية عن الحياة . والظاهرة الفلكية وما علمته عنها اجتذبتني ولا تزال . ان قدرة الانسان على معالجتها باستخدام المنهج العلمى قد بهرتنى ولا تزال . وكنت اقول لنفسى سرا وجهرا كلما علمت شيئا جديدا عن الظاهرة الفلكية كنت أقول اين « علم الفلك » من « علم التنجيم » اقصد « التنجيم فقط » الذى يملأ المناخ الثقافى الاجتماعى فى المجتمع المصرى ولايزال . وترجع بى ذاكرتى الى الوراء شيئا فاذكر « ام على نبيهة » وقراءتها الطالع عن طريق « فنجان القهوة » تارة وعن طريق «الكوتشينة» أو « الودع » تارة اخرى . رجعت الى الماضى عندما كنت تلميذا فى المدرسة الابتدائية اسارع اليها بعد اداء

الامتحان لتقرا لي الفنجان او « تفتح » لي الكوتشينة . لم اكن وحدي يفعل ذاك بل كان كل الحاضرين وكانت اغلبيتهم من نساء البيت : امي وزوجة عمي شقيق أبي وزوجة عم ابي وغيرهن . وزواج أم على نبيهة اقصد زواج الطلب على أم على نبيهة يكون عادة اما في امتحانات ابناء الاسرة « العائلة » أو في الملمات . كانت أم على نبيهة زوجة لحانوتي ، وكانت محبوبة وغير منفرة على الرغم من ذاك لعوامل عدة كان من اهمها انها كانت تدعي انها قادرة على قراءة الطالع . واكرر قولي وانا هنا في لندن اسمع وارى ، وارى واسمع اين ما اسمع وما ارى الآن وماكنت اسمع وارى وانا في حضرة ام على نبيهة ومن حولها اقرب الناس الى نفسي يتسابقون اليها ويبتهلون ويرجون بل ويتقربون . مابعد المسيرة الثقافية التي يجب ان يقفزها اعضاء المجتمع المصرى لكى يلاحقوا المسيرة الانسانية في تقدمها وفي تطهير مجتمعاتها من ادران الترهات والافكار البالية والاساطير . لقد نجح الاغريق في الماضي في تطهير معارفهم من الاساطير فتقدمت حضارتهم وتقدم الغرب الذي اخذ عنهم حضارتهم . وحاول ابن رشد كما ذكرت ان يتقدم بأحد الحلول ، وعلى الرغم من شجاعته الادبية فانه قد اضطر الى أن يدعو الى الثنائية . فكانت « حقيقة الوحي » وكانت « حقيقة العقل » . والملاحظ أن الغرب لم يخل من وجود الثنائية ، فهي فيه لاتزال قابعة . فقد يرى البعض ان العالم مقسم الى مجالين : الطبيعي وفوق الطبيعي . ويرى البعض ايضا ان الفكر والمادة شيئان مختلفان كل الاختلاف ، اى انهم لا يعترفون بالمادة المفكرة على الرغم من انهم يعترفون بالمادة المتذوقة والمادة التي تشم والمادة التي تسمع

والمادة التى تلمس . ويرى البعض كذلك ثنائيـة النفس والجسد . فالنفس عندهم لها وجود منفصل عن وجود الجسد ، ومن ثم فهى منزهة عن كافة الاحوال والتقلبات التى تلم بالجسـد كالمـرض والالم والفقـر ، فكل هذه الاحوال والتقلبات ليست بشىء ذى أهمية بل انه يعنى تنمية الجانب الروحى فى الانسان . وكنت أتذكر وانا اقرأ عن هذا الموضوع أستاذى يعقوب فام وهو يحدثنـا ناعيا على الذين يرون ان الخلق شىء نفسى داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل ، واما الفعل نفسه فهو السلوك .

واستمرت الظاهرة الفلكية تجتذبنى وتلح على لكى اعرف اسرارها . او لكى أعرف بعض ماعرف عن اسرارها فمنذ « كوبرنيكس » عرف العالم المتحضر ان الارض « كوكب » يدور حول « الشمس » اسوة بالـكواكب الاخرى ، بدلا من النظرة القديمه القائلة بأن الارض هى مركز الكون وانها محاطة بتسع هالات دائرية من البلور تحمل كل منها الشمس والقمر والكواكب والنجوم . وكانت النظرة الحديثة فى حقيقة الامر ثورة فى نظـرة الانسان للكون ، وكانت بمثابة العامل الرئيسى الى جانب عناصر اخرى فى تغيير النظرة الى العالم التى سـادت طوال العصور الوسطى « وكانت تؤيدها الكنيسة » تغييرا كاملا . وقد درست فى خلال الفترة الزمنية التى كنت اعيش فيها فى لندن ان الشمس على الرغم من ذلك ليست الا نجما من نوع عادى . وان الارض فى ضـوء الكون ومافيه من عوالم أن هى كما كان يقول لنـا جون لويس الا مجرد حفنة من التراب ان لم تكن ذرة مـن ذرات التراب « المعروفة » بالنسبة للكون ومافيـه من عوالم . ونظرا لقرب الشمس الشديد منا ، الامر الذى

يمكن للعلماء من دراستها بشيء من التفصيل ، فاننا نعرف عن هذا النوع من النجوم « اى النجم العادى » اكثر مما نعرف عن اى نوع آخر . وتوجد الشمس على بعد ثلاثة وتسعين مليون ميل من الارض ، ويحتاج ضوؤها ثماني دقائق حتى يصل الينا . والشمس بهذا قريبة جدا اذا ماقارناها بما يليها فى القرب ، وهو النجم الذى يستغرق ضوؤه ٤ر٢٥ سنة ضوئية حتى يصل الينا « السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى خلال سنة واحدة بسرعته البالغة ١٨٦٣٠٠ ميل فى الساعة » . والسنة الضوئية تعادل على وجه التقريب .. .. ٥٨٦٠ ميل ، وهى تستخدم فى قياس المسافات بين النجوم ، وفى رحاب الكون يوجد حوالى ١٠(٢٠) نجم . ولكى يكتب هذا الرقم يوضع عشرون صفرا الى يمين العدد واحد . ومدار الارض حول الشمس ليس دائريا الامر الذى لاتبقى معه الشمس على نفس المسافة دائما . واحسن متوسط لهذه المسافة هو ٩٢ر٩٨٧٤١٦ ميلا ، وتكفى المسافة ٩٣ مليون ميل للأغراض العامة . ويقدر قطر الشمس بحوالى ٨٦٥ر٣٧٠ ميلا ، اى أكثر من ثلاث مرات مثل المسافة بين الارض والقمر . اى ان حجم الشمس يمكن ان يتسع للابين من الكواكب كل منها بحجم الارض . وتبلغ كتلة الشمس ٢ر٢ × ١٠(٢٧) طن . ولكتابة ذلك يوضع ٢٦ صفرا الى يمين العدد ٢٢ . وبمقارنة ذلك بالارض نجد ان كتلة الشمس تزيد على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣ر٤٣٤ مرة . وارجو ان يتصور القارىء ماحدث لى عندما عرفت هذه المعلومات الفلكية . وخاصة ماتعلق منها بالارض التى يعيش الانسان عليها . وكانت لهذه المعلومات آثار فى تثبيت عظمة خالق الكون عندى .

وكانت لهذه المعلومات آثار اخرى . كنت اتساءل اذا مانجح الانسان وغزا الفضاء « كانت فكرة غزو الفضاء موجودة فى المناخ الثقافى الاجتماعى الغربى فى ذلك الحين » ، ونجح فى الوصول الى القمر ماذا تــكون صورة الارض وهو واقف على القمر ؟ وماذا ستكون احوال المجتمع القمرى اذا وجدت فيه الحيــاة ومن يشبهون الانسان على وجه الارض ؟ هل سيكونون من بنى آدم كما نكون نحن ؟ . وكيف يكون صيام شــهر رمضان اذا استطاع المسلمون من الناس أن يعيشوا فى القمر ؟ والصلاة والحج كيف تؤدى هاتان الفريضتان ؟ وماذا عن مكة المكرمة والكعبة الشريفة والبيت الحرام وبيت المقدس والمسجد الاقصى وبئر زمزم وجبل عرفات وغار حراء فضلا عن المدينة المنورة و و و ؟ وما الارض وما القمر وما المجموعة الشمسية كلها ، وما الشمس التى تزيد كتلتها على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣ر٤٣٤ مرة ، كما انها تحتوى على ٩ر٩٩٪ من كل المادة الموجودة فى المجموعة الشمسية ؟ ان هى الا نجم من نوع عادى . ونحن نرى فى اية ليلة صافية اذا خرجنا الى الخلاء ووجهنا بصرنا الى النجوم مايوحى الينا بأنها لابد أن تبلغ الملايين عددا . ونحن اذ نرى مانرى فى ضوء موقعنـا من سطح الارض نرى بالعين المجردة مالا يزيد فى أى وقت عن ستة آلاف نجم . ولما كنا لا نرى سوى نصف الكرة السماوية فقط ، فمن ثم فاننا لا نشاهد فى الواقع اكثر من نصف هذا العدد . والحقيقة تؤكد مع ذلك أنه توجد فعلا ملايين النجوم . وأن هنــاك الملايين بل والبلايين من النجوم التى لا نراها اما لانها بعيدة جدا أو لكونها خافتة لدرجة تصعب رؤيتها حتى لو كانت قريبة بما فيه الكفاية . وقد عرف القارىء ان اقــرب

نجم يبعد عنا بما يزيد قليلا على اربع سنين ضوئية « ٢٥ر٤ » . وكثرت تساؤلاتي وتعددت وشغفت حبا في الاستطلاع لاعرف هل وصل كتاب الله الكريم « القرآن الكريم » الى عوالم الكون التي توجد فيها الحياة ويعيش فيها اناس مثلنا ؟ فالله جل وعلا هو « رب العالمين » وهو الخالق القادر وهو نور السموات والارض . وكنت اقول لنفسي ماقيمة الارض وهي ماهي ، مجرد حفنة او ذرة من التراب بالنسبة للكون ومافيه من عـوالم ؟ لماذا اختصها الله جل وعلا بالانبياء والرسل وبالادیان السماوية ؟ وقفز الى خاطرى « اخناتون » الملك المصرى القديم ، اول الموحدين ، الذى قام بالدعوى الى الاصلاح الدينى قبل « مارتن لوثر » بتسعة وعشرين قرنا من الزمان . وكانت دعوته الى ان الله واحد أحد لاشريك له ، ووجدت نفسى فى ذلك الحين انني فى حاجة الى الاطلاع على تاريخ هـذا الملك الفـرعونى اطـلاعا أكثر دقة حتى اكون على بينة من امرى . وفى حقيقة الامر وجدت نفسى انني غرقت فى لجة الحيرة الفكرية . وعزمت عندما أعود الى القاهرة أن اسارع الى أصحاب الفضيلة رجال الدين المسلمين منهم وغير المسـلمين وبخاصة اصحاب السيادة رجال الدين المسيحى الذين يعتنقون المذهب الاورثوذكسى ، فهم عندى يمثلون الفكر المسيحى المصرى منذ أن كرس القـديس مرقص « انيانوس » أول اسقف مصرى فى عام ٦٤ ميلادية . وحتى هذا العزم لم يحررنى من الحيرة التى وجدتهـا تشغل تفكيرى ، وتأخذ من وقتى الثمن الكثير . وحتى دروس الفلسفة لم تساعدنى على التحرر ولكنها وسعت آفاق تفكيرى . فقد كان الدكتور جون لويس يحاضرنا

من فيلسوف معين ويتحدث فى المحاضرة وكأنه هو هذا الفيلسوف . كان يعرض أفكار الفيلسوف وماوصل اليه بكل إمانة وصدق وحماس . ثم يبدأ فى تحطيم الفكرة تلو الفكرة فى ضوء فكره هو . كان الدكتور لويس محاضرا فذا . وكان مخلصا مع نفسه ومع الناس وأقربهم عنده تلاميذه . وكنت اعجب به وهو يتقمص شخصية الفيلسوف الذى يحاضر عنه ، وكنت أعجب به ايضا وهو يفند ماوصل اليه هذا الفيلسوف من آراء وافكار . انظر اليه وهو يتحدث عن فلسفة«البراجماتيزم» أو « فلسفة الذرائع » فيما يتعلق بموضوع « الحقيقة الموضوعية » . وكنت اعرف عن هذه الفلسفة شيئا فيما قراته فى الكتاب الذى ألفه استاذى يعقوب فام عنها والذى نشرته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فى الثلاثينيات كما اذكر . ولعل الاستاذ يعقوب فام كان أول من عرف المصريين بهذه الفلسفة . انظر الى الدكتور جون لويس وهو يحاضرنا عن موضوع الحقيقة الموضوعية عند البراجماتيين فيقول بأسلوب ساخر انها غير موجودة ولكن ماهو موجود هو الحقيقة التى يقصد بها كل ماينجح عمليا . ويؤكد على أن كل مايحقق ماتريد الوصول اليه فهو حقيقى . وكان يقول جون لويس انه حقيقى لانه ثم يبدأ يعلق على الاميريكيين وسياستهم وثقافتهم وأساليب حياتهم ونظرتهم نحو النجاح بل ونحو الحياة بعامة ، ذلك لان فلسفة « البراجماتيزم » هى نتاج ظروف المجتمع الاميريكى . فهى منهم واصبحت لهم . وكان الداعى لها بهذه الصيغة الفيلسوف « وليم جيمس » .

وارجو أن يلاحظ القارىء ان قراءاتى وخبراتى

الثقافية عندما كنت اعيش فى لندن فى تلك الفترة « فى خلال عام ١٩٥١ ومابعدها » لم تتخمنى ، بل على العكس اضاءت من حولى كل ماكان مظلما او بعض ماكان مظلما .
لم اكن احس الا بأن قنوات هذه الخبرات الاكاديميـــة وغير الاكاديمية ، المنتظمة وغير المنتظمة ، لها جسور تتصل بعضها ببعض . فقناة التاريخ متصلة بقناة الفلسفة وقناة الاقتصاد متصلة بقناة علم السياسة « الذى وجدت نفسى اقرأ فيه وخاصة ماتعلق بتاريخ اوروبا الحديث وكان من الموضوعات المحببة الى نفسى وتاريخ ايرلندا السياسى » ، وغيرها من القنوات مثل قناة علم المنطـق وقناة العلم : نشأته ومنهجه . كل هذه القنوات وغيرها وحتى الاحاديث مع الاصدقاء المثقفين التى كنت اعتبر اجتماعى معهم وكأننى احضر حلقـــات دراســـية ، والمحاضرات العامة التى كنت احرص على حضـــورها والمتاحف التى كنت ازورها بانتظام والافلام « الجيدة » التى كنت اشاهدها اسبوعيا والمسرحيات والحفـــلات الموسيقية ، وغير ذلك .. كانت كلها ثريات تضىء الطريق امام المادة التى تفكر فى حياتى ولم تكن تتخمنى . واننى اتعمد ذكر لفظ « التخمة » لاننى واجهت موقفا وانا فى القاهرة عندما كنت وبعض الاصدقاء نجتمع لنتحـدث ونتبادل الكتب ، فاذا بزميل كان هو الاستاذ « خالد محمد خالد » قبل ان ينشر كتابه « من هنـــا نبـــدأ » يقول فينا نحن الذين من حوله انه اخذ يقرأ حتى اتخم من القراءة . ولم يعلق على كلامه احد . ذلك لان تجربة التخمة من القراءة لم يجربها واحد منا . وهنا فى لندن وانا منذ الصباح الباكر حتى المساء المتـــأخر اعيش فى القراءة وانهل من ينابيع اخرى غير القراءة ولم احس

الا بصفاء الذهن وان كنت امارس القلق احيانا ولم احس ايضا الا بوضوح الرؤية وان كنت اعـــانى من الحيرة احيانا اخرى . ان العلم وهو احد مصادر المعرفة لا يمكن ان يكون مصدر التخمة « العقلية » . واذا كان العـالم مصدرا للمعرفة فالمعروف أن الدين والفن والفلســـفة مصادر اخرى . ولعل خبراتى التى كنت انهلها وانا فى لندن فى هذه الحقبة من الزمان جاءت فى معظمها عن طريق استخدام المنهج العلمى ، ولعل صـــفاء ذهنى ووضوح الرؤية امامى يرجعان ، على الرغم من القلـق الذى كنت امارسه والحيرة التى كنت اعانى منها ، الى هذا المنهج الذى وجدت فى ذلك الحين وحتى قبل ذلك الحين ان لا سبيل لتقدم الانسان والجماعات والمجتمعات الا باستخدامه . فعن طريق هذا الاستخدام يسـتطيع الانسان ان يفهم ماحوله ومن حوله فهما موضوعيـا . وفى ضوء هذا الفهم يستطيع الانسان أن يغير ماحوله ومن حوله الى مايمكن أن يكون أو الى مايجب أن يكون. والمشكلة التى تريد حلا كانت فى نظرى تفسير عبارتى « مايمكن أن يكون » و « مايجب أن يكون » . وقد بدت لى فى ذلك الحين أنها مشكلة المشاكل ، وان كنت اعتقد ، ولا ازال ان المشكلة الحقيقية هى أننا اذا كنا لا نعـرف المشكلة . فاذا ماعرفنا المشكلة تيسر التفكير فى حلها .

وبمناسبة ماذكرت عن مشاهدة « الحفلات الموسيقية» فاننى اسجل ماحدث لى عنـدما جاءت « فرقة برلين الموسيقية القومية » الى لندن لاول مرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية باوزارها . اننى كنت فى غرفتى بعد أن تناولت طعام العشاء فى نادى لندن للموسيقى الذى وان كنت قد تركته الى بيت مجـاور هو بيت « مســز

ت سس » حرصا على الهدوء والسكينة والتفرغ للدراسة التى جئت من اجلها ، فاننى حرصت على تناول وجبات الطعام فيه ، وبخاصة وجبتى الغداء والعشاء . كنت فى غرفتى كما ذكرت بعد تناول وجبة العشاء فى النادى ناذا بأحدهم يحضر الى قائلا ان فرقة برلين ستبدأ حفلاتها بعد غد فقم معنا واحمل « بطانية أو اكثر » لاننا سنقف فى الطابور لحجز تذاكر حضور احدى حفلات الفرقة « وكانت ستمكث فى لندن ثلاثة ايام فقط » ، وسنكون جميعا امام شباك حجز التذاكر منذ الآن وسنكون فى « الطابور » فى الشارع حتى يفتح الشباك فى الصباح ومن ثم نستطيع ان نحجز تذاكرنا والا فان الفرصة لحجز التذاكر ستضيع حتما ان لم نفعل ذلك . وكان أقتراح هذا الشخص غريبا غاية فى الغرابة . واثبت لى أن حرص الناس فى لندن على سماع الموسيقى ، المانية كانت او غير ذلك ، كان حرصا شديدا . وجازفت وذهبت مع « الشلة » ووجدنا الطابور قد ابتدأ فعلا وبدأ طوله يمتد بسرعة ، وجلسنا على البطاطين ، افترشنا الارض ، وكان غطاء الواحد منا بطانية أخرى او معطف والسماء . نام من نام من المنتظرين واستيقظ من استيقظ ، وكانت تسمع الاحاديث همسا . وكان من المتوقع أن يكون برد الليل شديداً فى لندن على الرغم من حلول فصل الربيع . ومع ذلك فقد صمد الحاضرون . وكان من حسن الطالع ان السماء لم تمطر . ومر الوقت ، الليل بطوله ، واستمتع الناس الحاضرون بالمغامرة ، وفتح الشباك فى الوقت المحدد وحجزنا تذاكرنا كما حجز الآخرون المحظوظون . وبقى العديد من الناس بدون تذاكر لانهم لم يستطيعوا

ان يحجزوا فقد امتد الطابور الاول وتفرعت منه طوابير اخرى وزاد عدد المنتظرين على عدد التذاكر المعروضة للبيع . كانت مغامرة جازفت بالقيام بها كتجـــربة انسانية واعتبرتها درسا لاينسى . وقد تأكـــد لى ان الموسيقى كلغة لاتفرق بين جنس وجنس او بين نوع ونوع ويفهمها الجميع ومن ثم فهى تجمع قلوب بنى البشر كما تسعدهم . كنا نستمع ونحن فى « الصالة » وغيرنا معنا او فى « البلكون » او فى « اللوج » وكأننا فى صلاة . كانت « الصالة » فى وجدان كل واحـد فينا معبدا . وكان الحاضرون وان اختلفوا طبقيا او فئويا او جنسا او نوعا يشعرون نفس المشاعر مشاعر الغبطة والارتفاع نحو الاعلى . وانا فى الواقع لم اغامر ولم اجازف ولكنى واجهت واقعا نبيلا وعشت تجربة لم تكن تتاح لى فى القاهرة ابدا . وانا لا اقول اننى قد تعلمت شيئا ولكن اؤكد اننى « قد مارست تجـــربة تربوية » . اننى لم اسمع موعظة من المواعظ او درسا من الدروس او رأيا من الآراء ، ولكنى وجدت نفسى وقد غرس فى شخصيتى اتجاه معين نحو قيمة معينة هى قيمة الفن فى شخص الموسيقى التى سمعتها او شـــاركت فى الاستماع لها من « فرقة برلين الموسيقية القومية » فى فصل الربيع عام ١٩٥١ فى مدينة لندن .

مرت شهور فبراير ومارس وابريل ومايو ، أربعـة شهور من عام ١٩٥١ ، ولم استرح كما كان يجب على ان افعل . كنت فى عمل متواصل ، عمل فكرى متواصل وكان اصدقائى قليلين منهم شاب هندى واخوان شقيقان صينيان من اتباع « الصين الوطنية » صين « شـــيانج كاى شيك » ، وشاب ولد فى القاهرة وأبوه مازال فيها يعمل فى مهنة الطب . والجميع يدرسون . وكنا نجتمع

لاننا كنا جيران . كان الشاب الذى ولد فى مصر يعيش فى بيت « مسز ايه » وكان الثلاثة الاخرون وانا نعيش فى بيت « مسز تريس » والبيتان متجاوران . واذا اجتمعنا كان الحديث حديثا عاديا . فقد كنا لا نفكر فى نفس الامور والاشياء . اى انه كان لا يجمعنا فكر معين بل كانت افكارنا متباعدة . وحتى الشاب الذى ولد فى مصر ويتحدث اللغة العربية بطلاقة « الخواجة » لم يكن يدعى بأنه مصري . كان يعيش فى لندن تحت كنف « ام روحية » يهودية لانه هو نفسه يهودى . وقد زرت هذه السيدة بدعوة منه عندما ابلغنى انها تريد ان ترانى . كانت سيدة عجوز وتسكن فى بيت كأنه القصر المنيف . ولم اذهب اليها الا مرة واحدة . عرفتنى وعرفتها ويبدو انها اطمأنت على ابنها الروحى وهو فى صحبتى . فقد كان ، على الرغم من انه يعيش مع مسز ايه « اليهودية » والتى لا يخلو بيتها من يهودى ، يحس بالغربة ويحاول ما استطاع ان يكون مع اصدقائى الآخرين . وقد مرضت ، ويبدو أن مرضى كان مرجعه الى الارهاق الشديد الذى كنت أمارسه دون ملل أو شكوى . مرضت ولم أنم ليلتى . وكان بجوارى من السكان أسرتان ، كل أسرة تعيش فى غرفة . وعلى الرغم من انينى وصراخى من الآلام التى عذبتنى لم يأبه بحالتى احد . وحتى مسز تريس لم تسمع شيئا . وبقيت على حالتى مريضا وحيدا حتى جاء الصباح ، وقد جاء متأخرا جدا ! فذكرت للسيدة التى تحمل طعام الافطار الى حجرتى ما الم بى واننى فى مسيس الحاجة الى طبيب . وجاءت مسز تريس لترى ماذا حدث لى ، وبدا لى انها اطمأنت بعض الشىء وابلغتنى بأن الطبيب « الممارس » سيحضر . وحضر الطبيب وطمأننى ووصف

الدواء الضروري وتركني وذهب دون أن يحصل على أجر مني . وهنا كانت شهامة الشاب الذي ولد في مصر وعاش فيها حتى سن الخامسة والعشرين . جاء الى واحضر الدواء ومعه الجرائد وبعض المجلات . ولانه كان يعاني الاغتراب ويحس كبشر بمن هم على شاكلته ، كان معي كريما . لقد دفعت له ثمن ما احضر بالطبع . ولكنه كان ، كأي مصري ، يهتم بالسؤال عني حتى شفيت . وتذكرت جيراني كما تذكرت أصدقائي ولكنهم كانوا وكأن الحياة قد بلعتهم . وتذكرت أيضا ترى نيومان عندما سألني عن احوالي ، فكان أول ماقلت أنني لا اسمع تحية « صباح الخير » من احد من الجيران في البيت الذي اعيش فيه . واذا سمعت فانما اسمع الرد على هذه التحية التي تصدر عني دائما . وضحك الاستاذ نيومان كما اذكر وقال اننا نحن الانجليز لا نختلط بالغرباء بسرعة وانه يجب ان يكسر لوح الثلج اولا ، وكسر لوح الثلج هذا من واجبك انت . وقد تأكدت من هذا السلوك عندما صممت على ان لا أبدا تحية الصباح او تحية المساء لاحد من الجيران فلم أسمع من أحد ردا . وقلت في نفسي انه على ان اكسر لوح الثلج كما قال مستر نيومان . — I have to break the ice

ويبدو أن مرضي كان مرجعه الى « المرارة » ، كان التهابا فيها كما يبدو ، وقد تطور هذا المرض في هذا العضو من جسمي بمرور الزمن حتى اضطررت إلى اجراء عملية جراحية لاستئصالها في مستقبل الايام . واذا كنت في ذلك الحين قد عزمت على ان ادفع رسوم الامتحان الذي كان سيعقد في شهر يونيو عام ١٩٥١ ، فانني وجدت أن الوقت للاستعداد لهذا الامتحان كان قصيرا ، وقد زاد الطين بله الارهاق الذي ألم بي ، والمرض الذي

عانيت منه ، فعزمت على تأجيل الدخول فى الامتحـان « شهر يونيو عام ١٩٥١ » حتى اكون صالحا فعلا لكى لا اصادف خيبة الامل . ولكنى عزمت فى الوقت نفسه على ان اتعلم الجديد من كل مصدر علمي او ثقافى او كان من تجارب الحياة وخبراتها . افعل ذلك فى تؤدة على ان انتهز فرصة فترة الصيف فاذهب الى مكان بعيد عن لندن . واختير لى ان اذهب الى « باريس » ومنها الى قرية « بوجيف » فى « مقاطعـة سـافوى العليا » .

وحزمت امتعتي وكنا فى شهر يوليو عام ١٩٥١ وحجزت مقعدا فى الطائرة الذاهبة الى « باريس » . وانا لم ار باريس من قبل . اى اننى على وشك مواجهة تجـارب انسانية جديدة . ان حاجز اللغة قد يعيقنى فانا لا اتقن الحديث باللغة الفرنسية . ولكن علمت بأن اللغةالانجليزية قد اصبحت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لغة عالمية ، وانني سأكون عند الفرنسيين شابا امريكيا ملونا اكثر منى شابا مصريا الا اذا رأوا « الباسبورت » الذى احمله والذى يؤكد مصريتى التى يبدو أننى اعتز انا بها — فى ضوء خبراتى فى محيط ابناء الغرب — وحدى . وقد حدثت التجربة الاولى فى باريس . فى محطة السـكة الحديد ، حيث خصص شخص يتقن اللغة الانجليزية لييسر امور الذين يعرفونها ولا يعرفون التحدث باللغة الفرنسية وظن الناس من حولى أننى امريكى زنجى يميل لونه الى السمرة ، فأخذونى الى الرجل المذكور الذى طلب منى « الباسبورت » فرآه مصريا وبانت عـلامات الاشمئزاز على وجهه وحدس الناس ما استقر فى ذهنه فتركونى وحدى معه . وقبل ان يجيب مطلبى طلب اجره الذى دفعته دون ما مساومة صاغرا . ومكثت فى مدينة

باريس اياما ذقت فيها طعم الحياة لاول مرة بعد ان تركت مدينة لندن . رايت ان شهيتى للاكل قد زادت فالاكل الفرنسى غير الاكل الانجليزى . ولم تشم انفى رائحة « الكرنب » التى تجدها تقريبا فى كل بيت من بيوت لندن . وكانت الحياة فى باريس حياة مشرقة ، الجو الطبيعى كان مشرقا ؛ والجو الاجتماعى كان ايضا مشرقا . كان من حظى ان ذهبت لزيارة متحف «اللوفر» وبرزت امامى حضارة فرنسا الفنيه فى هذا المتحف واضحة شامخة . لم اكن ، وربما حتى كتابة هذه السطور ، استطيع ان اتذوق الكثير مما رايت من لوحات خالدة . ولكننى احسست بان تيارا من الجمال كان يسرى فى كيانى . واحسست ايضا ان وجدانى كان وكأنه فى عرس . كنت وانا ازور متحف اللوفر وكأننى اسبح فى انوار تتلألأ فيها جواهر النفوس البشرية التى ابدعت مااراه امامى بكل حواسى . كنت لا ارى بعينى فقط ، بل كنت ارى باذنى كذلك ، بل كنت ارى بكل حواسى ومافوق الحواس . وعلى الرغم من التعب الذى سرى فى جسمى من المشى فى الطرقات ومن الوقوف امام اللوحات فلم احس به الا عندما عدت الى حيث انام .
واصبحت كما اتذكر تجربتى فى اللوفر اقدر ابداع الانسان وارى ان قامته — على الرغم من الشرور التى تقع بسببه من اجل اطماعه التى لا تنتهى — فى ارتفاع ان نتاج الانسان الفنى عظيم عظيم ، وان نتاج الانسان العلمى عظيم عظيم ، على الرغم من كل شىء . ان الخطوات نحو التقدم والرفعة والرقى لا تنقطع . وكنت اقول ولا ازال ان الحياة تؤكد دائما انه كما ان « لا شىء ياتى من لاشىء » فانه « لا شىء مطلق » . الخير موجود والشر موجود وهما فى صراع دائم ; والتفاؤل موجود

وليذهب المتشائم منا الى اى متحف أو يمر امام اية جامعة أو كلية او مكتبة او اثر من الاثار او ليرى ابتسامة طفل او يسمع عصفورا يغرد فسيذهب تشاؤمه حتما بددا ويتأكد من انسانيته . وعلى ذكر العصفور فانني أصارح القارىء ان كتاب « توفيق الحكيم » « عصفور من الشرق » الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ، لم يكن من حظى ان اقراه فى الوقت المناسب . وانا اقول الان لو انني كنت قرأت هذا الكتاب فى الوقت المناسب لكانت الدراسات العليا الفرنسية من نصيبى حتمـا . لم يكن من حظى ان اقرأ هذا الكتاب فى الوقت المنـاسب . قراته بعد ذلك بعد ان عدت الى القاهرة فى المـرة الثانية وترك بصماته الجذابة اللذيذة الجادة فى كيانى حتى الآن . واذا كان حظى العاثر لم ييسر لى قـراءة « عصفور من الشرق » فقد قرأت رواية « نجيب محفوظ » « زقاق المدق » بعد ان عدت من لندن فى المرة الاولى أى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . وجدتها على رصيف من ارصفة باعة الكتب واشتريتها بقروش قليلة على ماأذكر. ولم يكن نجيب محفوظ معروفا . ولعل هذه الرواية قد اسهمت فى ذكر اسمه بين الشباب القارىء فى القاهرة فى ذلك الحين ، وبخاصة فانها تبعت روايته « خان الخليلى » التى كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٦ فى حين ان رواية زقاق المدق كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٧ . وقد استهوتنى الرواية الاخيرة لعوامل عديدة ، منها اننى تذكرت طفولتى وأيام شبابى عندما كنت اعيش فى حى الخليفة . ومنها اننى تذكرت الكفاح المرير الذى خضته وأيام المعاناة التى عشتها « ولا ازال » كما تذكرت لحظات الانتصار . ومنها اننى تذكرت اقاربى وهم اناس بسطاء منهم كان البقال وبائع الخردوات والشماشبى والحلاق

والفطاطري والمنجد ، ومنهم كان الفـــران وخـــادم المسجد والعامل اليدوى ، ومنهم من كان يعمل في التدريس في مدارس المرحلة الاولية . وكنت عنـدما اقلب صفحات رواية زقاق المدق قارئا أتذكـــر انني في كنف هؤلاء عشت طفولتي وشبابي . وانه اذا كانت لي طفولتي فانني لم أحس مرحلة الشباب . كـانت مرحلة معاناة ، مات في خلالها أبي ووجدت نفسي وحدي اواجه الحياة وتواجهني الحياة . وعلى الرغم من انني ثرت على حياتي الماضية ثورة عارمة ، فانني مازلت في ثورة عارمة مع حياتي الحالية . مازلت أحارب ومازلت اعاني ومازلت اكافح الطبقة التي وضعني المجتمع فيها في الوقت الحاضر ، أو في الحقيقة الطبقة التي اخترتها ووضعت انا نفسي فيها في الوقت الحاضر . تذكـرت كل ذلك وغيره وانا اقرأ رواية زقاق المدق . وكـان ابطال الرواية هم هم ابطال الحياة التي عشتها في حي السيدة عائشة وفي حي البقلي مع اختلاف الاســماء وبعض الظروف والاحـــوال .وأحسست ان الرواية تحتضنني فاحتضنتها . وتأكد لي مرة ثانية وثالثـــة ورابعة .. الخ ، ان المصالح ، مصالح الناس كمـــا يرونها ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، اى ان كل أو معظم مايصدر عنا من انماط السلوك يكون في ضوء كل ذلك . وان أعقل الناس اعذرهم للناس . وان خير مانفعل ان نؤكـــد انسانية الانسان ، فالانسان هو أعظم من في الحياة اذا كانت ظروف حياته مواتية والا فانه سيكون مصـــدر الشرور والآثام اذا كانت ظروف حياته غير مواتية . اى أن الانسان لا يمكن ان يكون وحشيا على الدوام .

ولم يكن متحف اللوفر قبلتي الوحيدة وانا في مدينة

باريس في شهر يوليو عام ١٩٥١ ، ولكني ذهبت الى برج « ايفل » وتسلقته بالمصعد لا بقدمي ويدي . ونظرت الى باريس من عل ، ولا اقول استغفر الله وهي تحت اقدامي ! كان منظرا مهيبا ملأت عيني ووجداني بالوانه واحجامه ومعالمه . كانت باريس نظيفة ولطيفة وجميلة . وكان الناس يعيشون كأس حياتهم حتى الثمالة . وذهبت الى « الحي اللاتيني » واحسست بأنني « سمكة » تعيش في الماء . تسبح من هنا ومن هناك . وكنت مثلها اسبح لا بجسمي ولكن بفكري وخيالي . لقد كانت حياتي في باريس قد نظفت من بعض الادران التي علقت بحياتي وانا في لندن . وكنت معذورا فان لندن على الرغم من وجودي بها فترة تزيد على ستة شهور كانت غريبة على . وقد احببتها بمرور الوقت وظللت احبها حتى الان . وكانت لندن وظلت غريمة لمدينة « بوستن » ، عندما سافرت اليها بعد ذلك في اغسطس عام ١٩٥٣ ، فترة طويلة حتى اصبحت كلتا المدينتين عزيزتين على ولا تزالان . ومرت الايام القليلة وانا في باريس فاذا بي في قرية « بوجيف » في « مقاطعة سافوي العليا » . كانت قرية صغيرة اعظم مافيها مايحيط بها من معالم الطبيعة الرائعة . كانت قرية جبلية وتحيطها الجبال العالية الفخمة ومنها جبال الالب المشهورة التي كانت متوجة بالثلج الذي كان يعكس اشعة الشمس ويملأ الافق الوانا عديدة من كل لون تتخيله عينا بشر حساس . كان المناخ معقولا نقيا . والناس مثل اهل القرى في العالم ، كما يبدو ، بسطاء ، لهم آمالهم كما لهم آلامهم ولكنهم كانوا اقرب الى الفطرة . ومع ذلك فقد رأيت مااسترعى انتباهي واكد لي الفرق الشاسع بين ثقافة مجتمع وبين ثقافة مجتمع آخر . رأيت وكنت

أسير في احد شوارع القرية عربة يجرها حصان ، ويجلس فوق العربة سائقها وبجواره صبية صغيرة ربما كانت في الثالثة من عمرها او ربما كانت في الرابعة من عمرها . وكانت تضع على عينيها « نظارة طبية » وحاولت ان اتخيل الخطوات الجادة التي سبقت وضع هذه النظارة على عيني هذه الطفلة القروية من أهالي بوجيف في مقاطعة سافوى العليا في شهر يوليو عام ١٩٥١ . كيف حدث كل هذا ؟ وتذكرت توا ابني احمد عندما حصل على « شهادة الابتدائية » واردت أن الحقه بالجامعة الاميريكية بالقاهرة ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة من عمره ، وعندما اجتاز امتحان الكشف الطبي بالجامعة طلب منه صيانة لبصره ضرورة استخدام « نظارة طبية » . مرت اثنتا عشرة سنة او يزيد ولم يلاحظ احد هذه الضرورة لا الاب « الذي هو انا » ولا الام ولا الجده ولا المدرسة الاولية ولا المدرسة الابتدائية ولا احد ، حتى اذا مافكرت في الحاقه بالجامعة الاميريكية لكي يستكمل تعليمه فيها عرفنا الحقيقة . وهنا في قرية من قرى فرنسا النائية اكتشف المسئولون ان طفلة في سن الثالثة او ربما في سن الرابعة من عمرها في حاجة الى نظارة طبية حتى تصون بصرها . وقلت لنفسي هنا الفرق الحقيقي بين ثقافة مجتمع وثقافة مجتمع آخر . لهفة نفسي على اطفال مصرنا الخالدة وبخاصة الذين يعيشون في قراها والذباب لا يبرح وجوههم منذ ان يستيقظوا في الصباح الى ان يناموا في المساء وربما في اثناء النوم . ان الذباب كما كنت ارى يغطي قسمات الوجوه التي توجد فيها العيون والانوف والآذان والافواه . انني تركت من ورائي تركة ثقيلة وجئت الى هنا في بريطانيا وفي فرنسا لعلي ان ارجع الى مصرنا الخالدة لاعمل مع غيري

عملا صالحا . وثقافة مجتمع مصر الحالي لا يمكن ان تكون ثقافة اصيلة . فهي عارضة مافي ذلك من شك . ويكفي ان نذكر ماحدث في اثناء الاستعمار التركي وماحدث بعده . عادت مصرنا الخالدة اصل كل حضارة الى الظلام الدامس . وعاش اهلوها وكأنهم يتفرجون ، عاشوا في بلادهم حياة الاغتراب . وظلوا في هذا الظـــلام حتى اذا مابدا وكأن قبسا من النور قد اطل على العقول عن طريق ابنائها المخلصين من امثـــال رفاعة الطهطاوى وتلاميذه المخلصين ، فاذا بهذا القبس قد خبا ، واصبحت مصر مكبلة بالاستعمار الانجليزى الذى مازال فى ذلك الحين قائما . ان مصر عام ١٩١٩ حاولت ان تقتلـــع كابوس الاستعمار الانجليزى ولكن النجاح لعوامل عديدة لم يكن حليف المخلصين من ابنائها . وهانحن فى عام ١٩٥١ والحكومة المصرية القائمة تسعى جهدها لتحطيم معاهدة ١٩٣٦ التى وان لم يكن توقيعها شرا مطلقا ، فقد اصبحت فى ضوء ظروف العصر شرا وبيلا . ومنـــذ أوائل عام ١٩٥٠ سعى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد الى بدء المفاوضات للتخلص من قيود الاستعمار الانجليزى الباقية ، فمعاهدة ١٩٣٦ لم تعد تشكل الاساس للعلاقات المصرية البريطانية . وكنا نقرأ فى الصحف عن جهود الدكتور صـــلاح الدين ، المصريون وانا ، قبل ان ابرح لندن الى بوجيف ، وكنا نعلم الكثير من المراوغات الانجليزية التى كانت تكتنف هذه المفاوضات ، وبخاصة عندما ســـافر الدكتـــور صلاح الدين الى لندن واجرى مباحثات مـــع وزير خارجية بريطانية « بيفين » فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٥٠ . ثم موقف « هربرت موريسون » الذى تولى منصب وزير خارجية بريطانيا وطلبه فى شهر مارس عام

١٩٥١ مهلة للالمام بتفصيلات الموقف بين مصرنا الغالية وبريطانيا . وفى بوجيف قبل ان ابرحها الى باريس ثم الى لندن فى يوم ٣٠ يوليو عام ١٩٥١ ، قرأت وكنت وحدى وانا أفكر فى بعد الشقة بين ثقافة المجتمع المصرى وثقافة المجتمع الفرنسي عندما رأيت الفتاة الريفية وهى تستخدم « نظارة طبية » صيانة لبصرها ، قرأت خطاب موريسون فى مجلس العموم البريطانى الذى حدد فيه سياسة بريطانيا الخارجية وهاجم موقف الوفد المصرى فى المفاوضات التى كانت تجرى مع السفير البريطانى فى القاهرة ، وقال موريسون مايعنى ان وفد مصر يغمض الطرف عن « حقائق اليوم » . وتأكدت فيما بينى وبين نفسى ان الضرورة تحتم على المصريين وانا منهم ان يتحركوا ويفعلوا شيئا من اجل مصر ضد الاستعمار المعوق للتقدم المنشود . ولم افكر فى موضوع هذا التحرك او هذا الفعل او نوع كل منهما . وبدت فى المستقبل القريب فى اوائل شهر أكتوبر عام ١٩٥١ الخطوة الاولى بالغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب الحكومة المصرية . وتبعت هذه الخطوة خطوات اخرى جاءت تترى الواحدة بعد الاخرى فيما بعد . وكنت على الرغم من أهدافى العلمية ، كمصرى ، مضطرا لان اتابع مايحدث من حادثات سياسية فى مصر ، وفى بريطانيا ، وفى العالم وبخاصة فى الولايات المتحدة الاميريكية . لم اكن استطيع ان اتفادى هذه المتابعة فانا على الرغم من بعدى المكانى عن المجتمع المصرى مازلت احمل ثقافته على ظهرى . صحيح اننى نتاج مصادر ثقافات عديدة او اصبحت ، فى ضوء تاريخ مصر القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة ، نتاج المصادر الثقافية الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية والمسيحية والعربية الاسلامية وما جاء

بعدها من مصادر سواء اكانت تركية أو مملوكية او غربية . اى انني كمصرى احمل معظم هذه الثقافات لانها ثقافات كانت في الغالب قديمة ذات اصالة انبتتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المصرية ، أو ثقافات تقبلتها الثقافات الاقدم منها ، وهى ايضا ثقافات مستمرة حتى الوقت الراهن . صحيح انني اتحدث اللغة العربية ولكنني اتحدث في عبارتها المئات بل الآلاف من الالفاظ الفرعونية والقبطية . واساليب الحياة التي يعيشها المصريون وبخاصة ماتعلق منها بالميلاد وبالموت وبالافراح « الزواج مثلا » وبالاتراح « الحزن واساليب التعبير عنه مثلا » ، وماتعلق بالكثير مما ياكلون ومما يشربون والاعياد التي يحيونها ويمارسون فيها انواعا معينة من النشاطات وغير ذلك — اساليب حياة ، كلها ، كلها ، مصرية ، اى انها نتاج الثقافات العديدة التي عاشها المصريون اجيالا بعد اجيال .. اى ان الثنائية التي يتشدق بها البعض عندما يقال « الاصالة والمعاصرة » ثنائية غير ذات موضوع . فالمصرى مصرى لانه قديم متجدد وهو ايضا جديد وجذوره الثقافية لا تزال موغلة في القدم .

ومع ذلك فانه اذا كانت الحياة اقوى من الموت ، وهذا صحيح ، فان دراساتي العليا في لندن اقوى وابقى . فانا اعد نفسي للمستقبل الذي ارجو ان يكون لبلادي مشرقا . ورايتني في اوائل شهر اغسطس عام ١٩٥١ في غرفتي في بيت مسز تريس حيث اسكن اهيىء لنفسي السبيل لكي استانف دراساتي وخبراتي العلمية والثقافية ، التي عندما كنت في اجازة بوجيف لم اتركها كلية ، ولكنني كنت احاول أن اجمع بين المتعتين المتعة التي تتصل بالاجازة اتصالا وثيقا ، والمتعة

الفكرية التي كنت أسعد بامتصاص رحيقها العذب رويدا رويدا ما استطعت الى ذلك سبيلا . كان معي كتاب « علم الاجتماع الاسلامي » ، وهو من جزئين . ومؤلفه هو « روبن ليفي » « طبعتا ١٩٣١ و ١٩٣٣ » ، وكنت اجلس الى هذا الكتاب الضخم الفخم ،واقرا امورا لم اكن قراتها من قبل او كنت قد قراتها من زاوية فكر متباينة ، كان الكتاب يتضمن موضوعات شتى . وقد بدأ بما يشبه المقدمة التاريخية عن الفتوحات ونزول القرآن الكريم وكيف نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وانتشار الاسلام في عام ٧٥٠ وفي عام ١٠٥٠ ثم ماصار عليه حتى عام ١٩٢٩ . واوحت قراءتي لهذا الكتاب موضوعين لفتا نظري وجعلاني استعمل تفكيري استعمالا عميقا . وقف تفكيري عند خطاب الله جل وعلا النبي صلى الله عليه وسلم في الاية الكريمة « اقرا باسم ربك الذي خلق » « ٩٦ ك العلق : ١ » ان وجود هذه الآية ربما يدل على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان « يقرا » فعلا والا لما خوطب بنفس نص الاية المشار اليها اذا كان لم يكن يعرف القراءة . وكان الموضوع الثاني الذي لفت نظري يتعلق بترتيب سور القرآن الكريم وآياته ، ان القرآن الكريم لم يكتب وترتب اياته كما نزلت آية اية حتى يمكن للقارىء معرفة اسباب النزول وتناسقه وفقا لتسلسلها الزمني . صحيح انني اعرف عن كتب سجلت اسباب نزول العديد من آيات القرآن الكريم . ولكن ألم يكن من التيسير على الفهم والادراك ان تكتب الآيات في المصحف كما نزلت اي حسب ترتيب نزولها ؟ وذكرتني هذه الملاحظة التي يمكن تجاوزها بما لاحظه « طه حسين » في كتابه « الفتنة الكبرى » وهو يتحدث عن « سيدنا عثمان رضي الله عنه » عندما

طلب من القراء أن يكتبوا ماحفظوه من آيات قرآنية حتى لا يضيع القرآن الكريم من الصدور وبخاصة عندما راى ان الكثير من الحفاظ كانوا يستشهدون فى المعارك الاسلامية . فجاءه عدد من المصاحف المكتوبة اختار منها واحدا وأمر بحرق الباقى . وتمنى طه حسين ، بحق ، لو أن سيدنا عثمان رضى الله عنه مافعل ذلك ، أى ما احرق المصاحف التى احرقها ، لانه لو كان قد ترك جميع المصاحف كما كانت لكانت الفرصة قد أتيحت للعلماء والباحثين ليدرسوا وينقبوا ويفيدوا أكثر واعظم. ولكن وجهة نظر سيدنا عثمان فى راى الكثير كانت اصح ، فقد تفادى رضى الله عنه عن طريق احراق المصاحف التى امر باحراقها الفتنة التى ربما كانت قد تقوم بين المسلمين . لقد وحد المصحف بقصد توحيد كلمةالمسلمين حتى يكونوا فيما يتعلق بالمصحف الكريم على قلب رجل واحد . ومهما يكن من الامر فان الموضوع الاخير قد شغل تفكيرى ولا يزال . ولعل الخبرة فيما اختاره الله جل وعلا . ان عقلى اصبح بعد مرور شهور لم تبلغ السنة يروح من هنا ويجىء من هناك . وكان هذا كما قلت سابقا يقلقنى . ولكنه كان ايضا يمتعنى . فالثقة فى النفس كانت تشد أزرى حتى لو أن اتجاهاتى الفكرية والثقافية قد اعتورها التغيير . فانا كمسلم كنت ارى فى ذلك الحين كما يرى « عباس محمود العقاد» فى كتابه « التفكير فريضة اسلامية » ، ان « رسالة الدين ليست ضد رسالة المذاهب الفكرية . ان الدين يطلق للمذاهب الفكرية مجالها فى المسائل المتجددة ، والمذاهب الفكرية ينبغى أن ترعى للدين حرمته فى المسائل الباقية . ان المذاهب تذهب والدين باق . قال الاسلام هذه الكلمة السواء . لانه لم يقرر أصلا من اصوله يحجر

على العقل تفكيره » . وبمرور الزمن رأيت انه ، كما ذكرت من قبل ، ان من اهم مصادر المعرفة الانسانية الفن والدين والفلسفة والعلم ، ومن حق الانسان ان يرى ان « الدين السماوي » مصدر معرفة يحتاج الى الايمان الروحاني ، والمصادر الاخرى على الرغم من اتصالها بعضها ببعض واتصالها بالدين كمصدر من مصادر المعرفة الانسانية يستطيع أن يمارسها الانسان دون الحاجة الى نفس الايمان الروحاني الذي بدونه لا يكون الدين السماوي دينا سماويا .

وقد أثارت قراءتي لكتاب روبن ليفي بعض الشجون وبخاصة عندما تناول موضوع « الرق » ونظرة الدين الاسلامي نحوه وعندما تناول مكانة المرأة في الاسلام . ان الدين الاسلامي كما اعرف وكما يعرف الجميع دين المساواة ودين الاخوة في « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٤٩ م الحجرات ١٣) . ومع ذلك نجد نظام الرق كان سائدا في عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقبل عهده وبعد عهده . ان العديد من آيات القرآن الكريم تؤكد وجود هذا النظام واباحته . قلت لنفسي ولم أكن سعيدا أبدا . صحيح أن تعاليم الدين الاسلام كانت تهدف دائما الى الحد من هذا النظام اللاانساني . ولكن هذه التعاليم لم تلغه أو تحرمه تكريما للانسان فعلا وواقعا . « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » « ١٧ ك الاسراء : ٧٠ » . لم أنم ليالي عديدة لانني كنت حائرا حقا . وقدزادت حيرتي عندما علمت انه قد تم استصدار القوانين التي تحرم تجارة الرقيق في بريطانيا منذ عام ١٨٠٧ ، في حين أن هذه التجارة كانت رائجة في المجتمع المصري حتى قبل الاحتلال الانجليزي لمصر . انني وانا طفل كنت الاحظ ساكني

حارة من حواري حي الخليفة هي « حارة الاكراد » ، وكان يسكنها اعضاء أسرة كان الناس يسمونهم «المماليك»! ورايت بعض اعضاء هذه الاسرة فقد تزوج احد اعضائها واحدة من اخوات امي غير الشقيقات « خالتي زكية » . كنت ازور خالتي زكية مع امي وكنت اشعر على الرغم من صغر سني بان المناخ الثقافي الاجتماعي في هــــذه الاسرة لايمكن أن يكون مصريا . كان اعضاء هذه الاسرة سودانيين وامهما وشقيقهما الذي تزوج خالتي وكـان يعيش معهم بالطبع الابناء وكانوا كلهم ذكورا . وحارة الاكراد مازالت موجودة في مكانها وهي قريبة من ضريح « السيدة سكينة » التي يقول عنها بعض المؤمنين انها « سكينة بنت الحسين ».

والملاحظ أن الرقيق قد ألغي من مصر بمعاهدة مصرية انجليزية أبرمت في سنة ١٨٧٧ ـ وتطبيقا لها صـــدر أمر عال من الخديوي ينص على فترة انتقال مدتها اثنتا عشرة سنة يسمح خلالها للاسر التي تملك جواري او عبيدا أن تتاجر فيه مع غيرها . وكان يرى البعض من المصريين الموسرين أو اتباعهم ان شراء الجواري عمـــل عظيم « ذلك أن الموسر مثلا يبتاع جارية أو مملوكا أو عبدا فينقله من حالته التعيسة الى حالة ســـعيدة ، ويحسن تربيته ويقوم بكمال تهذيبه ويكسوه ويطعمه .. وبالجملة ينقذه من وهدة الشقاء الى اوج الراحـــة والرخاء » .

واذا كنت قد ذكرت خبرتي عن « حارة الاكراد » فان « هدى شعراوى » في مذكراتها التي نشرتها لها دار الهلال وذكر في المقدمة التي كتبتها « السيدة امينة السعيد » على انها مذكرات « رائدة المـــرأة العربية الحديثة » . وذكرت السيدة امينة فيما ذكرت ان مواطن

العظمة فى هدى شعراوى انها كانت فى شخصيتها تجمع المتناقضات فقد ولدت فى فراش من ذهب ، ولكنها تنكرت للترف والدعة !! ـ تحدثت السيدة هدى فى هذه المذكرات عن امها القوقازية وعن جدتها التى كانت ناصعة البياض وزرقاء العينين والتى لم تكن تستطيع التفاهم معها الا بالاشارة لجهل كل واحدة منهما بلغة الاخرى . وتحدثت ثانيا عن الاغانى الشركسية التى كانت جدتها تدللها بها والتى مازالت حتى وقت كتابة مذكراتها تحفظ الكثير منها . وتحدثت ثالثا عن «عنبر» العبد الحبشى « الساقى » الذى كان يخدم والدها وعن « لالا سعيد اغا » الذى اشتراه والدها صغيرا وعنى بتربيته وتعليمه ، وكان يحب والدها الى درجة العبادة ، ولما كبر وجه حبه الى اعضاء الاسرة . وتحدثت رابعا عن فتاتين لم تذكر عنهما الا انهما كانتا فى سنها وكانت احداهما تركية والاخرى مصرية .

واننى اذ اكتب ما اذكره او اعلمه عن تجارة الرقيق اؤكد سعادتى بالغائها كما اؤكد شقائى بأن الذين بدأوا بالغائها كانوا من غير المسلمين .

أما موضوع مكانة المرأة فقد اعزتها تعاليم الاسلام كأم وكابنة وكأخت ولكنى فى ضوء خبراتى وأنا فى لندن لاحظت ان المرأة كزوجة ارفع مكانة . فالزوجات لسن عوانا عند الازواج . وتوقفت حائرا كثيرا كثيرا عندما تذكرت الحديث الحسن الصحيح الذى رواه الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ومضمونه : « لو كنت آمرا احدا ان يسجد لاحد لامرت المرأة ان تسجد لزوجها » . وعدت الى رشدى عندما تذكرت ايضا ان المقصود من هذا الحديث ان السجود لا يكون الا لله جل وعلا .

وفى لندن رايت الايام تجرى وتجرى معها من بين يدى النقود التى اقتنيها . وهانذا على ابواب دفع رسوم الامتحان الذى سيعقد فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . وعقدت النية على ان افعل ، واذا ماتم الامتحان بسلام اعود الى ارض الوطن لاجد فى الحصول على مورد يكفل لى ان اصرف على اسرتى الصغيرة وعلى نفسى . ولعلى ان اوفق فى الحصول على بعثة دراسية وهانذا قد اصبحت موظفا في الحكومة ، وسييسر حصولى على البعثة الدراسية نجاحى فى الامتحان . كنت شخصا متفائلا الى الدرجة التى لا يصح ان اتجاوزها . وواجهت موعد الامتحان وكنت مستعداً . وقد ساعدتنى اجازة بوجيف على الصمود والاصرار على الاستذكار . وكنت قد اتممت دراستى فى الصحافة . وكانت كما ذكرت سابقا دراسة اكاديمية ، والعمل الصحفى مثل العمل فى الميدان الاجتماعى يحتاج الى الممارسة الواقعية ، ولكنى لم امارس الصحافة عمليا ولا واقعيا . كانت الدروس عن تاريخ الصحافة وكيف نشات ، وكانت تهتم بالخبر وكيف يكتب فضلا عن ، وهذا هو الاهم ، كيف تعرف مصادره . وكانت الدروس فى الصحافة ، وكلها بالمراسلة ، تهتم أيضا بكتابة « العمود » وبصياغة « الروبرتاج » وحتى بصياغة « الاعلان » . وكان بالضرورة فى ضوء المتوقع ان يكون نصيبى النجاح والحصول على « الدبلوم » بعد زيارة الى احدى الصحف الانجليزية لمدة يوم واحد وكانت ترافقنى آنسة سويدية تهوى الصحافة . وانا اذكر الآن ان الصحيفة التى زرتها كانت صحيفة « الديلى ميل » وهى احدى الصحف التى كانت ، ولا تزال فيما اعلم ، تناصر

« حزب المحافظين » . وحملت الدبلوم تحت ابطى وانا اعلم قيمته الحقيقية . ولم افرح بالحصول عليه ولم احزن كذلك . وهو عندى فى اوراقى حتى الان وعندما اراه ابتسم ساخرا . فالعمل الصحفى لا يحتاج الى دبلوم ولكن مؤهلاته امور اخرى لا اجد احدها عندى والا كان عملى الصحفى قد بدا منذ وقت مبكر جدا . اننى الان فى ذلك الحين منقطع للاستعداد للامتحان ، او اكاد ان اكون منقطعا لذلك . كل الوقت الذى لا اشغله فى الراحة او فى تناول الطعام للاستذكار . وحتى مقابلاتى قد قل عددها ، وذهابى الى دور السينما كاد أن يكون نادرا ، ومثل ذلك الحرص على الذهاب الى الاستماع الى المحاضرات العامة التى كانت جريدة « الديلى وركر » تنشر مواعيدها واماكن القائها . وكنت وحيدا وكانت وحدتى مؤلمة حقا ، ولكن انسى بالكتب ومؤلفيها كان يبدد الالم ويغرس فى نفسى الحاجة الى النظر الى المستقبل المشرق . ولقد تعودت على ان اهتدى بخطة اسير عليها . وكانت خطة قاسية . وانا لا انصح احدا ان يقتدى بها . فالانسان اى انسان له طاقة محدودة . وهو كانسان لابد له من ان يجد ولابد له ايضا من ان يلهو . ولكن الظروف التى كانت تواجهنى فى ذلك الحين كانت تحتم على ان اكون جادا دائما ولا الهو . فالوقت يمر مر السحاب والنقود تقل من جيبى رويدا رويدا ، واسرتى الصغيرة تعيش بعيدة عنى وهى قريبة منى ، وقريبة منى وهى بعيدة عنى . وانا شخص على ضعفى اتحدى سنى واتحدى اعضاء جماعتى المرجعية واتحدى حاجز اللغة فى المجتمع الذى اعيش فيه وعند الامتحان الذى يجب ان اجتازه . واذا عادت الايام الى الوراء ما كنت أفعل ما كنت افعله فى ذلك الحين . وكنت ولا ازال

اذا استنصحني احد تلاميذي الذين على وشك السفر في بعثة دراسية احذره من ان يفعل ماكنت افعل . فالحياة عزيزة . وسلامة الصحة احسن من المال . وهي اعظم هدف يجب ان يحققه الانسان . وكنت انا لا ابالي الا بان احضر الامتحان وان اجتازه بنجاح . وكانت خبراتي التي تتعلق بصحتي سطحية . فانا لم اذكر انني مرضت في حياتي مرضا جسيما . ومن ثم كانت سطحية الخبرات الصحية وبالا على في مستقبل الايام .

وانا اذكر الآن عندما جاءت ليلة اليوم الاول في الامتحان . اى الليلة التي سيبدأ الامتحان في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي لها . وكان يوم الاثنين . تناولت عشائي ، وجلست فترة من الوقت ، ثم تناولت الكتب والمذكرات الخاصة بالعلم الذي سيكون الامتحان فيه بعد ساعات وكان علم الاقتصاد . وقررت ان انظر في المذكرات نظرة عابرة ، ويبدو أن الوقت مر بي دون أن ادري . وعندما نظرت الى الساعة كانت الساعة الواحدة صباحا . فرأيت أن البس ملابس الخروج « القميص والبنطلون والحذاء وماتعلق بكل ذلك » ماعدا « الجاكتة » . ورأيت ان اضطجع قليلا وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا . فاضطجعت وما لبثت ان سمعت « آن الشغالة » تفتح باب حجرتي لتقوم بعملية تنظيفها وترتيبها كما تفعل يوميا فيما عدا أيام الآحاد . كانت آن تحضر في الساعة العاشرة صباحا وعندما نظرت الى ساعتي وجدتها تشير الى الساعة العاشرة صباحا . وموعد الامتحان كان في الساعة العاشرة صباحا . وانا هنا مازلت في البيت . ولم ار نفسي الا وقد لبست الجاكتة بعد أن قفزت من سريري ، ثم قفزت درجات السلم لاخرج مسرعا ، ووجدتني في الشارع اشير الى

« تاكسى » ليذهب بى حيث مكان الامتحان . كنت حيث يجب ان اكون بعد عشرين دقيقة اى فى الساعة العاشرة والثلث من صباح يوم الامتحان الاول . ودخلت الى القاعة ، ولما كنت قد دخلت القاعة قبل الساعة العاشرة والنصف لم يقف فى سبيل دخولى احد من المشرفين على الامتحان . جلست على الكرسى المعد لى ووجدت ورقة اسئلة الامتحان ومعها ورقة الاجابة . ولم اكن قد تناولت وجبة الافطار ولا « فنجان القهوة » الذى كنت مغرما بتعاطيه فى الصباح ، ولم ادخن « سيجارة » او اكثر ليعتدل « مزاجى » كما كنت افعل عادة بعد كل وجبة طعام اتناولها . كنت هكذا . وسرحت بذهني الى الفترة الزمنية التى مرت على وانا نائم من الساعة الثانية صباحا حتى الساعة العاشرة صباحا والتي مرت وكانني مافعلت سوى اننى اغمضت عيني ثم فتحتهما . مجرد ذلك . هذا ماكنت اشعر به . اغمضت عينى ثم فتحتهما فترة كلفتنى ثمانى ساعات وحرمتنى من تناول وجبة الافطار وما يستلزم ذلك . وتكفى لهفتى التى هزت كيانى وكان سببها خشية حرمانى من الامتحان لتأخيرى عن ادائه فى وقته المحدد . كانت لهفة واية لهفة . وكان كل ماحدث لى تجربة ويالها من تجربة . وعادت لى رباطة جاشى بعد فترة من الزمن لا ادرى مداها ، واحسست اننى رجعت الى بعض نفسى . وبدات اجيب عن الاسئلة . وكان على ان اجيب عن اربعة اسئلة اختارها من ستة اسئلة مسجلة فى ورقة الامتحان . لم تكن الاسئلة صعبة ، ولكن الممتحن الانجليزى اذا قال اربعة اسئلة فالاجابة يجب ان تكون عن اربعة اسئلة . ولا تكون عن ثلاثة او خمسة اسئلة مثلا . ان طلب الممتحن طلب يجب ان يقدسه الطالب الممتحن فلا يزيد

عليه ولا ينقص منه . ولكن الوقت الباقى لم يسعفنى الا للاجابة عن ثلاثة اسئلة فقط وليست عن اربعة اسئلة كما طلب الممتحن . كنت اعرف ذلك . ولكن ماحيلتى ؟ وكنت أمنى نفسى بأن اجاباتى كانت الى حد كبيرة اجابات سليمة . وعشت فى حلمى غــير اللذيذ حتى انتهى الامتحان من كل العلوم . وكانت العلوم اربعة وكان لكل علم ورقتان للاسئلة ورقة فى الصباح من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، والورقة الثانية مــن الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة السادسة مساء . كل يوم كانت المواعيد هكذا . اربعة ايام يوما بعــد آخر . وكان الممتحن الانجليزى لابد ان يرضى عن الاجابة ورضاؤه يعنى ان يستوعب الطالب كل المقرر ويتمثله كما كان يقول احدهم وكان المعلومات عن هذا المقــرر قد اصبحت جزءا من دم الطالب الممتحن تجرى فى شرايينه مثلها مثل اصناف الطعام الذى ناكله فى وجباتنــا . وكان الذهاب يوميا صباح مساء يضايقنى حقا ، وكنت اعتبر هذا النظام نظاما لا انسانيا . ولكن ماحيلتى ؟ انتهى الامتحان وحمدت الله وبدأت اســتعد للعودة الى القاهرة . والكتب عندى كانت كثيرة كانت اضخم واثقل من ملابسى طبعا . وكان الامر يحتاج الى حجز تذكرة على احدى السفن حتى اطمئن على أمتعتى وبخاصــة كتبى التى كان بعضها لايمكن ان يجتاز جمرك الميناء فهى فى نظر النظام المصرى القائم فى ذلك الحين كتب محرمة .

وكان من حظى اننى كنت استطيع ان احجز تذكرة على سفينة الى « بور سعيد » او الى « الاسكندرية » : ذلك لان تجربتى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ عنــدما اردت العودة ، حرمت من الحجز على سفن ، واضطررت

الى ركوب اول طائرة في حياتي ، وكانت طائرة بلجيكية ، اضطرارا . فقد كانت الحكومة الانجليزية فى ذلك الحين ، اى فى عام ١٩٤٨ ، تواجه ثورة الملايو . كانت هذه الثورة ، وهى ثورة تحرير ، فى تلك الاونة ، على أشدها . ومن ثم جندت الحكومة الانجليزية لمواجهتها جميع البواخر والطائرات الانجليزية ، المدنية منها والحربية ، لتحمل الجنود والضباط وكل انواع الذخائر المدمرة . وكان هدفها ، اى هدف الحكومة الانجليزية الذى لاهدف بعده ولا قبله ، هو تاديب ثوار الملايو ! وكانت الصحف الانجليزية تطلق على هؤلاء الثوار لقب « الرعاع » مثل مافعلت ذلك صحف الولايات المتحدة لثوار كوريا الشمالية ، وكما فعلت بالضرورة صحف فرنسا لثوار الهند الصينية وثوار الجزائر . وكانت البواخر والطائرات تحمل الجنود والضباط والعتاد من موانى المملكة المتحدة ومن مطاراتها عبر البحار والاجواء الى الملايو . اى من شمال غربى القارة الاوروبية الى جنوب شرقى قارة آسيا . وأعتبرت الحكومة الانجليزية ارسال ابنائها للقتال واجبا وطنيا ساميا . اليس هو كما كانت تقول صحيفة « الديلى اكسبريس » وسيلة الى توطيد الاستعمار الانجليزى المنهار فى الملايو ؟ وليكن ارسال أبناء الانجليز هادفا الى الحرب وسفك الدماء فمن يهتم ؟ ولتكن هذه الدماء دماء ابناء الانجليز او دماء ثوار الملايو فمن يهتم مرة ثانية ؟ ولم يكتف الانجليز المستعمرون بارسال جنودهم وعتادهم وذخائرهم لقمع حركة ثوار الملايو ، ولكنهم فعلوا اشياء اخرى . فعلوا اشياء لا يفعلها الا تجار الحروب ومجرموها . فعلوا كما فعل « خورشيد باشا » الوالى التركى فى مصر وفى يوغسلافيا من قبل ، وكما فعل الاميريكيون ضد الهنود

الحمر لابادتهم وتحديد محل اقامتهم . فانا اذكــر من الاشياء التى فعلها الانجليز فى الحرب ضد ثوار الملاو الاحرار فى خلال عام ١٩٤٨ انهم استأجروا عديدا من رجال قبائل قاطعى الرءوس الآدمية المجاورين للمنطقة ، الذين كانوا يعيشون ، ولا يزالون ، حياة بدائيــة ، ويكثرون فى ولاية « أسام » . وهم يمارسون قطــع الرءوس الادمية عن عقيدة ، وخصوصا رءوس الغــرباء عنهم . استأجرهم الانجليز المستعمرون نظير دفع ثمن بخس دراهم معدودات ، لكل راس من رءوس زعمــاء الملايو الثائرين ، خصوصا الذين كانوا يتخذون منهم من الجبال مقاما ووجاء .. أو من الغابات سكنا وحماية . وكان هؤلاء البدائيون القتلة يعملون فى الزعماء الابرار قتلا وتقتيلا ، مؤمنين بأن روح الانسان اى انســـان تسكن دائما فى الراس الآدمى . وهى اى الروح عبارة عن شىء يشبه الدمية الصغيرة ، وهذه الدمية مملوءة بمادة تشبه البخار . فاذا قطع الراس الآدمى انتشرت بالضرورة المادة البخارية فى الجو وامتصها الزرع فى الحقل وزادت الخصوبة فى الارض وفى الزرع الذى قد يأكل تمراته الانسان او الحيوان . ومن ثم تصل الخصوبة بدورها الى الانسان اذا اكل القمح والى الحيــوان اذا أكل العشب .

واضطررت الى ركوب الطائرة لاول مرة فى حياتى لكى اعود الى القاهرة حيث توجد اسرتى الصغيرة ويوجــد موقع عملى . وكان موعد السفر يوم اربعاء كما اذكر ، وكان على ان اكون فى المطار فى الساعة العاشرة مــن صباح هذا اليوم . واذكر اننى لم استطع النوم بسبب القلق الذى انتابنى . وتذكرت امى وزوجى وابنائى .. وكان هلعى شديدا كلما تذكرت موقف أمى اذا حدث لى

حادث اقصد اذا حدث للطائرة حادث وانا امتطيها . ولم انم الا بعد ان تواعدت مع نفسى واتخذت قرارا هو : اننى فى اثناء تسلقى درج سلم الطائرة سوف اقـرأ سورة « قل هو الله أحد » (١١٢ ك الاخلاص : ١-٤) ثلاث مرات . اطمأنت نفسى بعد هذا القرار ونمت وذهبت فى الموعد المحدد وركبت الطائرة وقرأت سورة « قـل هو الله احد » ثلاث مرات وانا اتسلق درج سـلم الطائرة . لقد فعلت فى عام ١٩٤٨ ذلك ولم أكن ادرى ماذا كنت سافعل فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ اذ واجهت نفس الموقف . ان ذهابى الى لندن فى عام ١٩٤٨ كـان لفترة سبعة شهور تقريبا . اما فى المرة الثانية فقد كانت مدة اقامتى فى لندن ثمانية عشر شهراً تقريبا . فترة اطول . ولكن العبرة هنا ليست فى طول المدة او قصرها انما العبرة فيما حدث لى من تغيير فكرى . اننى ارى وانا اكتب هذه السطور أن الفترة من الاسبوع الاول من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى أواخر الاسبوع الرابع من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، أى بالتحديد حتى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ يوم مبارحتى مدينة لندن الى ميناء دوفر ومنه الى ميناء كاليه فى فرنسا الى مدينة باريس ثم الى ميناء مرسيليا عن طريق القطـار الذى نمت فيه ليلتى لآخذ السفينة التى تبرح ميناء مرسيليا فى ظهر يوم ١٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ومنـه الى ميناء نابلى الذى وصلنا اليه فى يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ومن نابلى الى ميناء الاسكندرية « أرض الوطن العزيز » الذى هل علينا ورأينا معالمه وكان الجميع-مصريون وغير مصريين — فى لهفة الى النزول على البر بعد أن مكثت سفينتنا ساعات راسـية بعيـدة عن الشـاطىء من غير ان يعلم احد من الركاب شيئا عما يحدث او حـدث

بالتفصيل ـ ان هذه الفترة قد صنعت بى من التغيير ما جعلنى شخصا آخر . انها الاساس الذي أقيم عليه كيانى الفكرى بعد ذلك . كانت فترة عصيبة فى حياتى وكانت فترة مرهقة لاعصابى وبعض اعضاء جسدى ، ولكنها كانت ايضا فترة ثمينة بذرت بذور الثقافة العالمية التى اينعت كل ما أصبح خصبا فى اتجاهاتى نحو الحياة الانسانية . انها أكدت لى صغر قامتى كما أكدت امكانية ارتفاعها . كانت فترة لا تعدو الثمانية عشر شهرا ولكنها فى عمرى الزمنى كانت اطول واعمق واجدى من كل الفترات . لانها فى ضوء مااكتسبت فى خلالها من خبرات كانت المرجع الاول لكل خبرة بعدها . اننى كما ذكرت من قبل لم انفصم عن اصولى ولكننى تجددت. فمازلت مصريا أشعر بشعور المصريين تماما ولكنى كنت اعرف لماذا أفعل ذلك وماذا يجب على المصريين فى ضوء ظروف العصر ان يكونوا .

وقبل ان احجز تذكرة على السفينة التى تصل الى بورسعيد وجدت أن ما ادفعه سيكون اكثر اذا ما اخذت السفينة التى تصل الاسكندرية . كان الفرق عشرة جنيهات استرلينية . وكان هذا المبلغ فى ضوء ظروفى المالية مبلغا كبيرا . وكانت الكتب التى اقتنيتها ، وهى كتب ثمينة جدا ، همى الاكبر .. وبعت « الراديو » الذى كان يحمل ويعمل بتيار الكهرباء او بأحجار البطارية اى كان يعمل حيث يحمل . وبعت الآلة التى تدير الاسطوانات . وكان ثمن البيع ثمنا بخسا حقا . واخذت كتبى وحقائبى فى صباح يوم ١٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ الى ميناء الدوفر وركبت « اللنش » لكى اعبر بحر المانش الى ميناء كاليه . ومن كاليه أخذت القطار الى باريس وذهبت الى محطة السكة الحديد

لاشحن ثلاث حقائب ملاى بالكتب الى ميناء مرسيليا حتى تصل فى الصباح لكى استلمها قبل ان تبرح السفينة الراسية فى ميناء مرسيليا بعد ساعات طوال . وانتظرت قطار باريس — مرسيليا لآخذه انام فيه ليلتى واكون فى الصباح فى مرسيليا حتى تتم الاجراءات واركب السفينة الذاهبة الى الاسكندرية عن طريق ميناء نابلى بسلام . ومن ثم أذهب الى بيتى واترك ورائى البيوت التى دخلتها أو عشت فيها فى لندن وفى ضاحية وولتش وفى مدينة كارديف وفى ميناء هل وفى مدينة باريس وفى قرية بوجيف . وتكون مسز برميكوم ومسز بوينر ومسز كروس ومسز آرمسترونج ومسز تريس ومدام جانيت وغيرهن اشخاصا اذا ذكرتهن اذكر مايعشن من اجله ، ليس كل مايعشن من اجله بالطبع ، واذكر ملامح كل واحدة منهن عندما كانت تتقاضى الاجرة منى او عندما كان يعن لها ان تطلب زيادة فيما ادفع لاننى احمل تيار الكهرباء ما لا طاقة له به بسبب السهر فى الاستذكار او بسبب استعمال جهاز الراديو . وساذكر عتاب مسز تريس عندما ارسلت « بطاقة » التهنئة بعيد « الكريسماس » بعد موعده كما كنا زملائى وانا نفعل ذلك فى اعيادنا فى القاهرة . كنت وزملائى نتبادل بطاقات التهنئة بأعيادنا بعد ان تنتهى الاعياد وليس قبلها . وكان عتاب مسز تريس درسا لى ، وبدأت من بعده ارسل بطاقات التهنئة قبل الاعياد وأن تلقيت الكثير منها بعدها .

وفى طريقى من لندن حتى غادرت السفينة ميناء مرسيليا حدث لى نفس مايحدث عادة لاجنبى شرقى . كانت منغصات لاداعى لحدوثها ، وكنت اكظم غيظى أمام من يحدثها وانا ساخر . ان المسئول على استلام

الباسبورتات على اللنش الذى سيعبر بحر المانش ، وكان فرنسيا ، عندما راى ان الباسبورت الذى اعطبته له بناء على طلبه مصرى ، وكـــان امامه عامود مـن الباسبورتات طويل لانه كان يضع كل باسبورت ياخذه ممن كان واقفا فى « الطابور » قبلى فوق الباسبورت الذى استلمه من قبل وهكذا . اما الباسبورت الذى ناولته له فقد كان مصريا فوضعه فى آخر ماجمع مـن باسبورتات . عرف انه باسبورت مصرى ، وان الجزائر فى ذلك الحين فى ثورة ضد الاستعمار الفرنسى وان المصريين قاطبة يؤيدون الثوار الجزائريين .. ففعـل المسئول الفرنسى مافعل انتقاما كما بدا لى . وعندما فعل مافعل هززت كتفى ساخرا . وفى محطة باريس ظن البعض لاننى كنت اتحدث باللغة الانجليزية اننى امريكى زنجى ، ولما عرفوا اننى مصرى تغيرت مـلامح الوجره وساءت المعاملة الى الدرجة التى كنت على وشك ان لا الحق بالقطار الذاهب الى مرسيليا . وذهبت الى مرسيليا بعد ليلة طويلة قضيتها فى القطار . كان نومى متقطعا . ولكنى لم ابال لان عينى كانتـــا على حقائبى . فكنت انام لاصحو وكنت اصحو لانام حتى وصلنا الى مرسيليا . واسال على حقائب الكتب فقيـل لى انها لم تحضر وستحضر غدا . ونصحت بان اذهب الى « شركة كوك » لتتولى هى مسئولية الاستلام ثم الشحن حسب العنوان فى القاهرة . وذهبت الى الشركة واستلم المسئول الاوراق الدالة على ما لى من حقـائب وطلب مفتاح كل حقيبة حتى يسهل خروجها من الجمارك وطلب ايضا مايوازى خمسة عشر جنيها مصريا ، وكان كل مافى جيبى عشرة جنيهات فقط رأيت ان اعطيه منها ثمانية لابقى الجنيهين فربما احتاج اليهما وانا فى طريقى

الى القاهرة ومنها الى بيتى . كانت فترة حرجة وسخطت على نفسى ، فقد دفعت من النقود والمعاناه حتى الآن ماكان يوازى النقود والمعاناة التى كنت سادفعها لو اننى ركبت احدى السفن الذاهبة الى بور سعيد . وسادفع كما ذكر لى مسئول شركة كوك نقودا اخرى عند استلام حقائب الكتب من مدينة الاسكندرية . وزاد سخطى اننى دفعت ايضا من كرامتى امام اشخاص بسبب الجهل بالحياة الانسانية كان اسلوب معاملتهم لى مشوبا بالتعصب البغيض . اننى اعذر هؤلاء ولكنى لا اعذر نفسى ، فقد تعلمت الدرس من قبل وصحيح ان اساليب التعصب اساليب متغيرة ، لان الناس متباينون ، ومن حقهم ان يتباينوا . فكان على ان اعلم ذلك ، ومن ثم فاننى ارى انهم من اجل ذلك يعذرون ولكنى لا اعذر نفسى . وتذكرت متحف اللوفر وعظمته وخلود من خلقوا روعته وجماله ورايت رأسى ينحنى اجلالا ، وسرعان مانسيت كل ماهو قبيح . الوجه القبيح الفرنسى او اى وجه قبيح غربى .

ومرت ايام اربعة فاذا بنا فى « ميناء نابلى » ، كان اليوم يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وجاء ركاب جدد بعد ان ترك السفينة بعض الركاب الذين امتطوها فى مرسيليا وكان من بين الركاب الجدد مصريون يتحدثون باللغة العربية بصوت عال عن قيام ثورة فى مصر . ومنهم من كان يذكر انه سمع ذلك فى الاذاعة قبل ان يركب السفينة ، ومنهم من كان يتطوع بذكر العكس . وتاكدنا جميعا بقيام الثورة من راديو السفينة وكانت الاذاعة تبث باللغة الفرنسية احيانا وباللغة الانجليزية احيانا اخرى . واتخذت مكانا بالقرب من بعض المصريين لكى اسمع مايقولون وسرعان ماذبت فيهم .

لقد كانوا اناسا شتى . فيهم من الشباب ومن الكهول ومن النوعين . وكان بعضهم على علاقة مابعض ، وكان الاكثر غرباء ولكن الحادثة الكبرى قد جمعتهم . وسمعت ضمن ماسمعت ولم اكن اعلم عن الانتخابات التى جرت في نادى ضباط الجيش وعن « اللواء محمد نجيب » والتحدى الذى قام به الضباط ضـــد الملك فاروق وحاشيته ، واشياء عديدة اخرى . وعضضت على البنان لاننى بعت الراديو الذى كنت املكه قبل ان ابارح مدينة لندن بيوم واحد ، وقلت ليت ذلك ماحدث ، وكنت ومعى الاخرون الان نسمع مايحدث الان في بلادنا بكل اللغات ومنها اللغة العربية فعنها تأخذ الاذاعـات الاجنبية . ولكن « كلمة ياريت » كما تقول الاغنية « ماتعمر بيت » وتذكرت الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية في وزارة الوفد ومجهوداته فى سبيل تعديل معاهدة ١٩٣٦ منذ عام ١٩٥٠ حتى تكون مصرنا الخالدة مستقلة استقلالا حقيقيا ، فكان قد تفاوض مع « بيفن » وزير خارجية بريطانيا فى مدينة لندن فى يوم ٤ من شـهر ديسمبر عام ١٩٥٠ ، واستمر يفاوض بعد ان حـــل محل بيفن « موريسون » ، وتذكرت موقف الاخير المراوغ ومحاولة مراجعته . والحادثات التى مرت بمصر اخذت تتداعى فى ذهنى . الغاء المعاهدة حريق القاهرة ، اقالة وزارة الوفد ، وانفجارات العنف فى مدينتى بور ســــعيد والسويس ، وأمر الحكومة « الوفدية » العمال المصريين الذين يعملون فى المعسكرات البريطانية بترك العمل وطلبها الى المقاولين الذين يتعاملون مع الجيش البريطانى الذى يحتل منطقة القتال فسخ العقود .. وغير ذلك مـــن الحادثات التى تدل على ماوصلت اليه البلاد من ظروف تدعو الى القيام بالثورة واهمها حرب فلسطين والاسلحة

الفاسدة التى خاض بها جنود وضباط الجيش المصرى هذه الحرب . وقامت الثورة فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وهاأنذا مع غيرى من المصريين وغير المصريين فى عرض البحر نخوض الامواج لكى نصل الى أرض الوطن . ولكن امورا اخرى تتعلق بالدكتور صلاح الدين كانت قد شغلت بالى . فقد كان الدكتور صلاح كما يعلم القارىء رئيس الهيئة التنفيذية التى كانت تشرف على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وكان اتصالى به بحكم اننى كنت مدير هذا المكتب اتصالا وثيقا . رأيت فيه الانسان الكريم ذا الاخلاق العالية جدا الرفيعة جدا . وله عندى من الذكريات مايسعدنى حقا ويدلل على أريحيته وفضله وكرمه . ويذكر القارىء موقفه من الدكتور عوض عندما وقف الاخير فى سبيل اعطائى قرضا اشترى به ملابس استعدادا للسفر الى لندن لاول مرة فى فبراير عام ١٩٤٨ ، ويذكر القارىء موقفى من زاهية مرزوق عندما وقفت بوصفها أمين صندوق مؤقت للجمعيه المصرية للدراسات الاجتماعية فى سبيل منحى هذا القرض بحجة عدم وجود بند فى الميزانية يسمح بالصرف . وانا اذكر ايضا موقفا لايمكن ان يقوم به الا رجل مثل الدكتور صلاح الدين . كان ذلك فى عام ١٩٤٩ وقد عقد اول مؤتمر للخدمة الاجتماعية العربية فى مبنى اليونسكو بمدينة بيروت . كان يسمى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » . وكان على الدكتور صلاح ان يقدم ورقة عمل عن الاحداث الجانحين وقد اعددت هذه الورقة بالاشتراك مع السيد المستشار محمد فتحى والاستاذ فتح الله المرصفى تحت اشراف الدكتور صلاح . وذهبت اليه فى بيته وقرأت عليه الورقة كلمة كلمة وقام بالتعديلات التى رآها وقامت

ادارة المكتب بنسخها وارسالها اليه التى أرسلها بدوره الى ادارة المؤتمر الذى كان مقرره الدكتور عباس عمار . وجاءت اللحظة التى يقرأ الدكتور صلاح ورقته فبداها بالشكر الجزيل لكل من اسهم فى اعدادها وذكر الاسماء واحدا واحدا المستشار محمد فتحى والاستاذ فتح الله المرصفى والاستاذ سيد عويس . وكنت الوحيد الذى كان حاضرا لاننى كنت قد دعيت الى الحضور مع احد الزملاء ممثلين للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية . وعندما انتهى الدكتور صلاح اصطحبته كما عودنى لكى نأكل « بسبوسة » فى محل مشهور فى مدينة بيروت . وذهبت معه فى سيارة معدة خصيصا لتنقلاته وكان يسوقها سائق لبنانى . ودخلنا المحل المشهور وأمر بثلاثة صحون بسبوسة اكلناها السائق وهو وانا جميعا . وانتهزت الفرصة ونحن فى محل الحلويات وتحدثت عن الورقة التى القاها فى المؤتمر ورد فعل الحاضرين وبخاصة عندما ذكر أسماء الذين اسهموا فى اعدادها فقال : « يا اخى انا مالى بالخدمة الاجتماعية انا راجل مهتم بالسياسة » . قال ذلك مجاملة بالطبع فهو يعلم قطعا الاتصال الوثيق بين السياسة والمسائل الاجتماعية . ولا يمكن الا آن اذكر عندما ذكر اسمى والتفات الحاضرين نحو المقعد الذى اجلس اليه واحمرار وجهى والعرق الذى تصبب من جبهتى . ونظرات الناس وبالها من نظرات . وذكرياتى مع الدكتور صلاح التى لا صلة لها بالعمل فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث كثيرة واختم بها عندما اتيحت لى الفرصة لاكون عضوا من اعضاء فوج الرواد فى مصيف الاسكندرية فى صيف عام ١٩٤٦ . كان معسكر الرواد معدا لبعض الرواد واعضاء اسرهم

من زوجات وابناء ، كما كان معدا للعديد من طلبـــة الجامعة ، وقد دعيت مع آخرين لاشترك في هذا المعسكر وكانت سنى قد بلغت ٣٤ عاما ! وكانت المرة الاولى فى حياتى التى اذهب فيها الى مصيف . وكانت فترة الاقامة للفوج الذى اشتركت فيه اسبوعين . وكـانت متعتى الذهنية توازى ان لم تفوق متعتى الجسدية . كـان يضم المعسكر من الاساتذة فضلا عن الدكتور عباس عمار الدكتور سليمان حزين والاستاذ فؤاد جلال والاســتاذ حنا رزق . وكان يحضر الدكتور محمد صلاح الدين فى الامسيات ليحيى أو يشترك فى حفلات السمر ولا غرو اذا كنت تراه وهو فى حياته العادية شخصا تشع من نفسهوفى سلوكه آثار التذوق الفنى وعشقه للجمـــال والاناقة ، وينعكس ذلك فى ملبسه وفى حديثه وفى آرائه وفى اتجاهاته وقبل ذلك وليس بعده فى حبه الاصـيل لمصرنا الخالدة . وفى المعسكر كان من حظى بل من حظ اعضائه جميعا أن يحاضرنا بعض المفكرين المصريين مرة او مرتين فى الاسبوع ، محاضرة عامة ، وكان الاستاذ « احمد امين » الذى عرفته من كتبه ومن مقالاته فى « مجلة الثقافة » احد المحاضرين . واننى اذكــر ان موضوع محاضرته كان عن « تعقيل العمل الاجتماعى » وكان يدور حول روح العصر « عام ١٩٤٦ » وما تتطلبه هذه الروح من الافادة من تطبيق المنهج العلمى فى مواجهة المشاكل الاجتماعية التى كان ، ولا يزال ، ينـوء بها المجتمع المصرى . ومن ثم فالعمل الاجتماعى لابد أن يكون على اسس موضوعية تتضمن سياسة اجتمـاعية التى تتضمن بدورها الاهداف والوسائل التى تحققها حتى نعرف الاولويات ونستطيع التخطيط من أجـــل مواجهتها . كانت فرصة لى لان استمع لمؤلف كتب فجر

الاسلام وظهر الاسلام وزعماء الاصلاح فى العصر الحديث وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، والذي كما تقول سيرته انه ولد فى « حارة العيادية » وعاش صباه وبعض شبابه فيها . وهي احدى الحوارى المتفرعة من شارع البقلى بقسم الخليفة ، نفس القسم الذي ولدت وعشت صباى وشبابى فيه .

وراحت الذكريات تروح وتجىء . وفجاة تذكرت الاستاذ « دانيال برسوم » الذى كان رئيسا لقلم التوريدات بمصلحة الحدود ، تذكرته الان وانا على السفينة الذاهبة الى ميناء الاسكندرية وتذكرته قبل ذلك عندما قرات خبر نعيه في جريدة الاهرام وانا فى مدينة لندن . كان وقع الخبر اليما على نفسى . لان طموحات هذا الرجل لم تكن لها حدود ، واين هو الان واين هذه الطموحات ؟ واخذ المستقبل يداعب خيالى مستقبل مصرنا الخالدة قبل مستقبلى . ماذا سيحدث ياترى ؟ انني مع نجاح الثورة واستقرارها من اجل المستقبل الشرق . وهاندا استمع الى الاذاعة واسمع ويسمع معى من على السفينة من المصريين اسماء الذين ايدوا الثورة وكان اعضاء هيئة التدريس فى جامعة الاسكندرية على راسهم . ومع انني سمعت خفقان قلبى من اجلهم ولكنه سرعان ماتجلد . كنت اؤمن بمصرنا الخالدة ايمانا راسخا . وتاكدت فى ضوء بعض ماقرات عنها فى كتب التاريخ انه على الرغم من الاستعمار المستمر منذ عام ٥٢٥ ق . م وحتى الان « عام ١٩٥٢ » فان المجتمع المصرى استمر وبقى . مازالت مصرنا الخالدة على خريطة الدنيا . كانت بحق مقبرة الغزاة . وبقى شعبها الاصيل يؤدى ادوارا تتفق مع ظروف كل عصر وكل موقف اجتماعى فى حياته اليومية . فقد يقف موقف المتفرج احيانا ، وقد ينافق احيانا

اخرى وقد يسخر من نفسه او من حكامه ومن فى حكمهم احيانا ثالثة ، وتراه صابرا الوانا من الصبر التى تنوء بحملها الجبال . وفى موقف آخر تجده يستغرق فى التدين وجاء وعزاء ، وربما كان الدعاء على الظالم تنفسا عن صدور ابنائه . وتجد فى حقبة اخرى هذا الشعب متمردا يعصى ما يؤمر به ويرتكب ماتراه قوانين المستعمر او الظالم جرائم ، وفى التاريخ نجد الثورات المصرية فى نطاقها الضيق احيانا وفى نطاقها الواسع الذى يشمل المجتمع احيانا اخرى ، كما نجد حروب التحرر وحروب الغزو والانتصار . وكنت وانا على مقربة من ميناء الاسكندرية اسأل نفسى واسائلها ماذا ينتظر شعبنا المصرى من مصير ؟ هل ماحدث مجرد حركة جيش للحصول على ترقيات ؟ هل ماحدث مجرد انقلاب كالذى قام به حسنى الزعيم من قبل ؟ هل ماحدث هو فعلا امتداد لمبادىء مصطفى كامل ومحمد فريد او لثورة ١٩١٩ او تصحيح للثورة العرابية ؟ هل وراء ما حدث قوة اجنبية ؟ كان الناس من حولى يقولون « انها ثورة » وكان الدليل عندهم ان فاروق امر بالخروج ليذهب بلا رجعة الى المنفى الذى يختاره . لقد تأكدت من هذا الامر فقد احسست كما احس ركاب السفينة بوقوفها، وكنا نرى معالم الاسكندرية على بعد وعندما جاءنا فى احد القوارب رجال الجمارك ابلغونا اننا سنقف حتى الساعة السادسة مساء موعد خروج فاروق فى يخته « المحروسة » الى المجهول . وحدث هذا فعلا ورأينا اليخت يسير بجوارنا وفاروق واقف فى احد اركانه وكأنه ينظر الى لا شىء . ومن الغريب اننى وجدت شخصا فى الخمسين من عمره وربما اكثر من ذلك وهو يرفع يده تحية عندما مر اليخت بجوار السفينة . كان

مصريا مافى ذلك من شك . وانا أسائل نفسى منذ لحظة رؤيتى يده مرفوعة واصابعها الخمسة مضمومة الى جبهته محييا لماذا فعل هذا الرجل مافعل . ان فاروق لم يره حتما لانه كان فى ضوء الظروف التى عاشها وعاناها منذ يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ حتى يوم طرده من البلاد ، لم يكن ليرى الا المجهول . وقد بدا لى أن الرجل كان يعرف ذلك حتما فهو فى ضوء مايتحلى من ملابس وسمات انسانية يبدو مدركا لما فعل . وقد فعل مافعل ومن حوله يرونه . هل كان مصدر ما فعله هذا الرجل لونا من الولاء او هل كان توقعا لفشل القائمين على ماثاروا عليه ؛ أو هل كان تعبيرا للقول السائد « من فات قديمه تاه » ! لم ادر الاجابة عن هذه الاسئلة فى ذلك الحين ولا ادرى حتى كتابة هذه السطور .

ثم عدت الى نتائج رحلتى منذ شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، اى فى خلال فترة ثمانية عشر شهرا وانا فى المجتمع الغربى احاول ان امتص رحيق ثقافته المنتظمة « الاكاديمية » وغير المنتظمة « كل عناصر الثقافة الاخرى التى صادفتنى وصادفتها » . لقد كانت هناك نتائج مافى ذلك من شك . وقد ذكرت من قبل الكثير منها . ويكفينى اننى أتقنت اللغة الانجليزية قراءة وكتابة ، واننى اتصلت ببعض الاساتذة الانجليز ، واننى تتلمذت على أستاذى البروفسور جون لويس . واننى تذوقت الوانا من الفن « فن الموسيقى والفن التشكيلى مثلا » . واننى قد وجدت الفرصة مواتية لاهتم بعلم التاريخ وبعلم الاقتصاد ، وبخاصة ماتعلق بتاريخ بلادى بعامة وتاريخها السياسى والاقتصادى والاجتماعى الحديث بخاصة . واننى قد صححت الكثير من معلوماتى وواجهت

القلق الفكرى فى ضوء تنشئتى الاجتماعية والمصادر الثقافية المكتوبة وغير المكتوبة التى زودت ثقافتى قبل ان ازمع السفر الى الغرب لا لاغترب فحسب بل لأتغرب ثقافيا أيضا . اى اضيف الى عناصر ثقافتى عناصر الثقافة الغربية او بعضها . انني لم افعل الكثير مما كنت اروم وابتغى . فالفترة التى قضيتها كانت قصيرة جدا فى حياة المرء العادى ، او حتى غير العادى ، ولكنى اعترف باننى فعلت مايشبه المستحيل لكى اغترف من مناهل الثقافة الغربية . لم اضيع وقتى هباء . ولكنى احسست بأن قامتى لم ترتفع ارتفاع قامة الدكتور عوض او قامة الدكتور حزين . وقد قابلت الدكتور حزين ليس فقط فى معسكر الرواد فى صيف عام ١٩٤٦ فى الاسكندرية ، ولكنى قابلته محاضرا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ببيروت فى عام ١٩٤٩ فى موضوع « خطط الاصلاح الاجتماعى والاوضاع التاريخية والثقافية فى الشرق العربى » . وكانت محاضرته قيمة . خرجت من القاعة بعد انتهائها شخصا آخر . وكان من اهم آثار هذه المحاضرة على تفكيرى ان اتجهت وانا فى لندن الى دراسة « علم الانثروبولوجيا » كهواية تماما كما هويت دراسة « علم الفلك » ومحاولة فهم الظاهرة الفلكية . لقد وجهتنى محاضرة الدكتور حزين نحو دراسة ثقافة بلادى . وكانت المعلومات التى علقت فى ذهنى منها كلها جديدة على . اننى لم اكن اعرف مثلا ان المجتمع المصرى كما اخذ من الثقافات الاخرى فقد اعطى ، وان ما اخذته مصرنا الخالدة لم يمس الاصيل الذى عندها فى قليل او كثير بل بقى الاخير مع غيره عبر الازمان جنبا الى جنب . ولكن محاضرة الدكتور حزين عرفتنى ذلك وغيره كثير . ان

اهم مايسرت لى محاضرة الدكتور سليمان حزين التى القاها فى مؤتمر بيروت فى عام ١٩٤٩ فى مبنى اليونسكو، كان ولايزال ، خلق الاهتمام الرشيد بالمجتمع المصرى . لقد اكدت هذه المحاضرة ماوصلت اليه من تجـــارب اجتماعية وبخاصة عندما اتيحت لى الفرصة وانا طالب بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى خريف عام ١٩٣٨ لكى ادرس حالة احد الاحداث المتهمين فى احدى الجرائم ، وعندها ايقنت بعد اتمام دراسة هذه الحـالة بان المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم او هــو موسوعة اجتماعية لا اول لها ولا آخر .

وفجاةوانا على هذه الحال استدعى الذكــريات وتستدعينى الذكريات ، واحاســب نفسى وتحاسبنى نفسى ، واتذكر الايام التى كانت والايام التى ستكون — تذكرت فجأة كتبى التى هى الآن تحت رعاية « شركة كوك » . انها كتب عديدة وثمينة . فيها كتب فلسفية ، وكتب تاريخية ، وكتب اجتماعية ، وكتب اقتصادية ، وكتب تهتم بالفنون وغيرها وغيرها . وفى حقــائب هذه الكتب مذكراتى التى كتبتها وانا الخص ما اقرأ او التى كنت اكتبها فى اثناء المحاضرات . ومن الكتب ما قـد يبدو دخوله الى البلاد فى ذلك الحين محــرما مثـل كتب ماركس وانجلز ولينين وستالين وجون لويس وكتاب ولفرد بلنت عن التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر، وبعض المجلات وقصاصات المقالات وغيرها وغيرها . ولكنى كنت متفائلا . فقد عبات هذه الكتب وغيرها من « الممنوعات » وانا فى لندن قبل ان يطاح بالنظـــام المصرى فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . فلعــل الظروف ان تتغير وان يحدث ، كما حدث وان كــان متوقعا ، ماليس فى الحسبان . ان كتبى التى احضرتها

معى من لندن كانت ومازالت حياتى . اننى لا ادعى اننى قراتها كلها . فبعضها وبخاصة الموسوعى منهـا كنت أراه وكأنه « موسوعة » فعلا اذهب اليه كلما احتجت الى معلومة جديدة لا اعرفها أو للتأكد من صحة معلومة اعرفها . وساورتنى الهموم فقد خشيت ان يكون حصولى عليها متعذرا . وزاد قلقى لاننى لم اكن اعرف شيئا مما يحدث فى مصر فى ذلك الحين . لم يكن احد يعرف شيئا . كان البعض يردد اسماء كانت مجهولة عندى . وكان البعض يدعى المعرفة بالتفاصيل وكان لا يستطيع احد ان يواجهه بكلمة او حتى باشارة . كنا بعض المصريين وأنا نلوذ بالصمت . وكان الواحد منا كان يقول فى سره « ياخبر بفلوس بكره يبقى بلاش » . والحق ان هذا التفكير كان ساذجا حقا . فانا مثلا لم اكن اعرف ماكان جاريا فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ وما قبله من ايام الا بعد فترة طويلة ـ وما عرفته وعرفه الناس لايمكن أن يكون بالضرورة هو ماكان فعلا جاريا فى تلك الايام ومابعدها . انه التاريخ ، وحقائق التاريخ تحتاج للحصول عليها الى وقت . ان المؤرخين وهواة التاريخ لا يجمعون على عظمة « محمد على الكبير » وحسن نواياه نحو مصرنا الخالدة . وقد بدأ محمد على الحكم وهو فى سن ٣٦ عاما فى عام ١٨٠٥ ومات فى عام ١٨٤٩ ، اى ان وفاته قد مر عليها اكثر من ١٣٠ عاما حتى كتابة هذه السطور . وكان مايزيد فى قلقى ليس الكم او الكيف لما حصلت عليه من معلومات فحسب بل كيف استخدمها ؟ هل ستتاح لى الفرصة لافعل شيئا احقق به بعض اهدافى ؟ هل ماحصلت عليه من معلومات يكفى ؟ هل حققت حلم ابى وامى لاكون امتدادا للزعيم مصطفى كامل بأسلوب يتفق مع العصر الذى اعيش فيه

او العصر الذى سأعيش فيه ؟. وفجاة رأيت ركــاب السفينة يغادرونها الى البر عن طريق مراكب صغيرة اقرب الى « الفلوكات » . فسارعت اليهم اسير معهم حيث يسيرون الى ارض الوطن العزيز وانا اواجه المجهول . والامل الوثاب يملأ فؤادى وكنت اردد فى سرى عبارة خطرت فى بالى ، وكثيرا عند مواجهة المجهول فى خلال تلك الفترة من حياتى ماكان تخطر فى بالى ، الا وهى « فمن جسر ايسر ومن هاب خاب » .

العودة الى الوطن وتجربتي مع ثورة عام ١٩٥٢ في خطواتها الاولى

وهانذا انزل من سلم السفينة الى اخر درج ، ثم وضعت قدماى فى المركب الصغير الذى سينقلني مع من كانوا يصحبونني من ركاب السفينة ، ووصلنا اليه آمنين . وهاقد مست قدماى ارض ميناء الاسكندرية . وما أن فعلت ذلك حتى احسست بأن كياني كله قد مسته مشاعر متباينة ، هى مشاعر نبيلة نبل حب الوطن الذى هو من الايمان . واضيفت الى تلك المشاعر مشاعر المناخ الذى كان يهيمن على الاسكندرية وكنت اراها فى الناس: فى حركاتهم وفى كلماتهم وفى تعبيرات وجوههم، وفى العيون . وما ادراك ما العيون . انها تشع الفرح كما تشع الامل والانطلاق . ان الصيحات فى كل مكان ، والاصوات على اختلاف درجات سلم موسيقاها تملأ كل مكان . وقد اختلطت الاصوات الآدمية بأصوات الاذاعة التى لا تكف عن البث بكل انواعه والوانه : بالكلام احيانا وبالموسيقى احيانا اخرى ، وبالاغانى والاناشيد احيانا ثالثة . لقد احسست بالجموع الغفيرة التى كانت تملأ الشوارع . وسرعان ماذبت فيها ، واصبحت قطرة فى محيط من الادميين الذين لا يذكرون المرارة ولكنهم كانوا يعيشون وكأنهم فى المستقبل المشرق . انهم كانوا ينظرون الى أمام . فالمصرى ينسى « الاسية » ويرحب بالتسامح . ويرى ان فى عبارة « صافى يالبن » « حليب

باقشطة » املا مرتقبا على الدوام ، وكانه السحر ، صرت انظر مع الناظرين الى امام وانا متفائل . وطرحت الماضى جانبا لارى ماهو كائن وحاولت ان اتوقع ما الذى سيكون . اصبحت ذرة وانا مع الملايين . وتأكد لى فى الحال ان شعب ميناء الاسكندرية هو شعب مصرنا الخالدة . وشعب مصرنا الخالدة ، ككل الشعوب ، يدفع الحياة دائما مهما يكن من شيء لتكون خيرا مما هى عليه . وما ان انتهيت الى هذه النتيجة حتى وجدتنى استعمل عقلى واكاد ان ادع العواطف جانبا . وتذكرت مثلنا الشعبى « عدو زمان مالوش امان » . وتوجست اشياء مخيفة قد تحدث فى المستقبل القريب او حتى فى المستقبل البعيد . ولكن ماكان يجلجل فى الاذاعة جرفنى الى الواقع الحى الذى كنت فيه .

كانت الاذاعة قد مهدت لاذاعة « بيان تاريخى » منذ الساعة الخامسة مساء . سمعنا ذلك ونحن ما نزال على السفينة . وفى السادسة والنصف كما اذكر بعد ان وطئت اقدام ركاب السفينة ارض الوطن ، وكنت معهم ، الاذاعة تجلجل ببث « البيان التاريخى » على الملأ ، وسمعنا صوتا لم نتبينه فى أول الامر لا أنا ولا من كنت فى اوساطهم فى « طوابير الاستماع » أمام أحد « الراديوهات » المنتشرة فى ميناء الاسكندرية .. يقول :

« بنى وطنى .. اتماما للعمل الذى قام به جيشكم الباسل فى سبيل قضيتكم قمت فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ الموافق ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ هـ بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وسلمته عريضة موجهة الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

تحمل مطلبين على لسان الشعب .
الاول : ان يتنازل جلالته عن العرش لسمو ولى عهده قبل ظهر اليوم .
« الثاني : ان يغادر جلالته البلاد قبـــل الساعة السادسة مساء . وقد تفضل جلالتـــه فوافق عـــلى المطلبين وتم التنفيذ فى المواعيد المحددة دون حـــدوث مايعكر الصدر . وان نجاحنا الى الآن فى قضية البلاد يعود الى تضافركم معنا بقلوبكم وتنفيذكم لتعليماتنـــا واخلادكم الى الهدوء والسكينة ، وانى اعلن ان الفـــرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبأ غير اننى اتوسل اليكم ان تستمروا فى التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم فى أمان ولى كبير الامل فى أنكم ستلبون ندائى فى سبيل الوطن ، وفقنا الله لمـــا فيـــه خيركم ورفاهيتكم والسلام » .
وصاح الجمع الحاشد الذى انخرط اعضـــاؤه فى طوابير الاستماع ، انه محمد نجيب .. انه محمد نجيب .. ولاول مرة كنت اسمعه محدثا ، وان سمعته بعـــد ذلك مرارا . كانت احداها فى الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم « يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ » ، حين اذاع بعد طرد فاروق بساعتين فقط قائلا :
« ان ماينسب الى من عمل مجيد ان هو فى الحقيقة الا مجهود وتضحيات لرجال الجيش البواسل من جنود وضباط ، ولم يكن لى الا شرف قيادتهم » . واستطرد قائلا :
« وقد امر جلالة الملك فاروق عندما طلب الجيش اسناد منصب القيادة العامة الى بأن ينعم على برتبـــة الفريق بدرجة وزير فلم اعلن رفضها حتى لا يعـــرقل ذلك غرضا أسمى وهو تنازل الملك عن العرش .. والآن

وقد انتهت الامور فانى اعلن تنازلى عن هـــذه الرتبة قانعا برتبة اللواء مراعاة لحالة الدولة المالية » .

وبرز اسم « محمد نجيب » واصبح ملء الســـمع والافواه . وكان أثر كلمته الثانية على آلناس عظيمـــا . فصفقوا وصفقت معهم حتى ادمى آلتصفيق ايادينا . ولكنى والحق يقال راجعت نفسى بعد ذلك فقلت ان هذا الرجل العظيم يتحلى بصفات انســـانية تميـــل الى « الرومانتيكية » ، وما فعله أو ما اريد له ان يفعـــله لا يجب ان يجعل لهذه الصفات وزنا . فقد درست فى « علم الاجرام » ان من الصفات التى تصنع رجال الاعمال او رجال السياسة ليست فقط المخاطرة والاقدام بل أيضا الرغبة فى الكسب . والملاحظ ان هذه الصـــفات هى التى تكون المجرمين العتاه . لقد بدا لى ألرجل لاول وهلة عندما تنازل عن الرتبة ، اى عندما ابدى الرغبة فى عدم الكسب ، انه يعيش فى « يوتوبيا » قد خلقها المناخ الثقافى المصرى حتى تسود بعض القيم الاجتماعية التى جعلت حكم المصريين منذ عام ٥٢٥ ق . م حتى قيام الجيش المصرى بقيادة الرئيس محمد نجيب فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، ميسرا . تلك كـــانت هواجسى وانا مازلت انضج العناصر الثقافية الجـــديدة المتجددة التى استوعبتها وأكاد ان اتمثلها . وقد أكد ظنى او حكمى هذا أن وضع شخص عرفنا ان اســـمه « جمال عبد الناصر » مديرا لمكتب الرئيس محمـــد نجيب . ولم يكن يعرف سوى القليل من بنات وابنـــاء مصر عن الازل شيئا قليلا او كثيرا . وقد اكون مخطئا خطأ جسيما فلعل تنازل الرئيس محمد نجيب عـــن الرتبة المشار اليها كان يعنى ، اذا كانت الرغبة فى الكسب صفة اصيلة فى شخصيته ، حيلة سياســـية

لكسب الجماهير وبخاصة والحركة الجديدة ما زالت تخطو اولى خطواتها . لم اكن فى ذلك الوقت استطيع التقدير السليم وذلك لان الحقائق كلها او حتى بعضها لم تكن فى حوزتى ، فانا كنت بعيدا عن الديار فترة طويلة من الوقت وكان اهم اهدافى العب من المعرفة انى وجدت فى المحاضرات او فى المتاحف أو المسارح او فى الندوات او فى جلسات الاصدقاء او فى الكتب وغيرها من المصادر . وكان اهم مايشغلنى ان اسهم فى تكوين المواطن المصرى الصالح ، اما بطريق مباشر كما كنت افعل وانا فى مؤسسة الزفاف الملكى او فى معسكر كوم امبو او فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث او فى جمعيتنا الناشئة ! جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق . او بطريق غير مباشر فاتاهل لكى اكون المفكر الذى يكون دوره ترشيد المصلح الذى يعمل فى سبيل تكوين المواطن المصرى الصالح . ولاننى كنت فى مستهل رجولتى فى ذلك الحين فاننى كنت آمل ان اجمع بين الدورين . ان الثورة العرابية على الرغم من فشلها فقد تركت لمصرنا الخالدة « كادرا » من القادة الوطنيين ادوا واجبهم بحق . كان منهم عبد الله النديم ومحمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول ، وجاء من بعدهم مصطفى كامل ومحمد فريد وسيد درويش وطلعت حرب واحمد شوقى وحافظ ابراهيم وعبد العزيز فهمى وامين الخولى واحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش وامين الرافعى وغيرهم وغيرهم . وعندما ثارت جماهير مصرنا الخالدة فى عام ١٩١٩ وجدوا القادة الوطنيين على اختلاف مشاربهم الذين قادوهم ضد المستعمر الغاشم . وكانوا على الرغم من الخلافات ، التى يتوقع عادة حدوثها ، على مستوى المسئولية . وعلى الرغم من

نتائج هذه الثورة التى لم تحقق احلام الامة فقد ضرب القادة الوطنيون المصريون الذين قادوا جماهيرها ومن أتى من بعد المثل العليا وبذلوا من التضحيات النفس والنفيس . والامر المهم الذى اذكره ويذكره غيرى كما يذكره التاريخ هو ان ثورة عام ١٩١٩ قد انجبت من بعد قادة وطنيين تسلموا الامانة . وكان منهم مصطفى النحاس واسماعيل القبانى والمازنى وطه حسين ومصطفى صادق الرافعى والعقاد وسلامة موسى ومحمد صلاح الدين ويعقوب فام وتوفيق الحكيم وحسين فوزى وزكى مبارك ومحمد حسن الزيات ومحمد حسين هيكل وفكرى أباظة واحمد امين وانور المعداوى وغيرهم كثيرون مثل حسن البنا واحمد حسين ومن قادوا حركة يوليو عام ١٩٥٢ الذين لم اعلم عنهم شيئا عندما عرفت عنها فى نابلى وانا فى طريقى الى ارض الوطن . واذا كنت قد ذكرت بعض اسماء القادة فهناك اسماء غيرهم لم اذكرهم لاننى لا اعرفهم او لاننى لا استطيع ان املأ الصفحات تلو الصفحات باسمائهم . ومن الذين اعرفهم ولم اذكرهم بنات وابناء حى الخليفة الذى ولدت فيه وعشت حتى بلغت سنى سبعة وعشرين عاما . فقد كانوا كثيرين وعلى الرغم من بساطتهم فى المعيشة وفى النظرة نحو الحياة ونحو الموت فانهم كانوا مصريين قلبا وقالبا . كان يبذل الواحد منهم مايستطيع أن يبذل حبا فى مصر الخالدة وعشقا للوطن العزيز . فحب الوطن كان عندهم عقيدة صحيح كانوا كما كان القادة الوطنيون يرون انفسهم كما يتشدق البعض احيانا انهم مصر ولكنهم كانوا يجدون انفسهم ، البسطاء من حينا ، وغيرهم من القادة الوطنيين ، مثلهم العليا ، نتاج النظام السائد والظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسود

المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . انه من الخطـل والخطأ الجسيم ان يزعم احدهم ان مصر هى المصريون . ان هذا تبسيط للامور . كان هذا رأيى فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ وانا فى ميناء الاسكندرية بعد ان تركت السفينة التى اقلتنى من ميناء « مارسيليا » وكنت فى الغربة قرابة ثمانية عشر شهرا . ومازال هذا الرأى هو رأيى حتى كتابة هذه السطور . كنت ، ولازلت أقول ان المجتمع الصالح يصنع المواطنين الصالحين كما أن المواطنين الصالحين يصنعون المجتمع الصالح . انهـا علاقة جدلية . ومن ثم فانا لا ازعم مع الزاعمين بأن مصر هى المصريون ثم اصمت ، او ان اقذف اى مصرى باللوم لانه ينقد وضعا من الاوضاع السائدة فى المجتمع المصرى او يبرز مشكلة من المشاكل الثقافيـــة الاجتماعيـــة والاقتصادية التى تعوق تنمية هذا المجتمع لكى يتقدم ويسهم فى تحقيق انسانية الانسان فيه او اذا فعل غيره ذلك وفى غيره من المجتمعات . كنت ارى ذلك ، ولا ازال فى تلك الفترة من حياتى . ذلك لاننى مارست اعادة تكوين شخصيات ابناء المؤسسة التى كنت اعمل فيها بنجاح عندما تغير النظام الذى كانوا يعيشون فى ظله . اننى اذا قلت لمصرى او قال احدهم ان « مصر هى انت ياصديقى » فأنا ابرز وجود النظام العام السائد الذى يعيش فيه على علاته . وهل هذه امانة علمية أو حتى امانة فلسفية ؟ صحيح انا كمصرى ، كما قلت لنفسى فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى وجدته فى ميناء الاسكندرية فى يوم ٢٦ من شهر يوليو من عام ١٩٥٢ مساء وفى اثناء الليل ، مرآة لمصرنا الخالدة فى ضوء حياتى التى عشتها فى المجتمع المصرى سواء كانت حياة طيبة او حياة غير ذلك . او كانت حياة فيها ماهو طيب

او فيها ماهو غير ذلك . اننى كمصرى نتاج مجتمعى اى الجماعات التى انتميت اليها منذ ان ولدت . لقد اثرت فى هذه الجماعات مافى ذلك من شك وانا ايضا اثرت فيها فى ضوء قدراتى وامكاناتى . وقدرات الشخص منا وامكاناته كما يعلم القارىء محدودة ومتباينة فبعضها مايسر الغث وبعضها مايسر الثمين . ولعل العودة الى عهد محمد على يفسر لنا الكثير مما ذكرت . فالملاحظ انه على الرغم من الامجاد التى حدثت فى ذلك العهد اى انه على الرغم من النهضة التى وضع اسسها ذلك الحاكم الذى دبر « مذبحة القلعة » التى قتل فيها مايربو على اربعمائة من بنى الانسان ، فى شخص المصانع « العنابر » والمطبعة الاميرية والقناطر الخيرية والجيش وغيرها وغيرها لم يهتم الاهتمام الاصيل الكافى، اى اهتمام المصرى الاصيل ، بتكوين القادة من المصريين على الرغم من البعثات التى ارسلها الى فرنسا والى غيرها من البلاد واشهرها بعثة « رفاعة رافع الطهطاوى » . وعلى الرغم من اثار هذه البعثات فى شخص بعض اعضائها بعد عودتهم الى مصرنا الخالدة ، فان هؤلاء الاعضاء ، وكانوا قلة ، وعلى راسهم رفاعة رافع الطهطاوى قد عانوا الكثير الكثير . ونجح محمد على ومن جاءوا من بعده فى ان يشتروا معظم الاعضاء بأثمان لا تغنى ولا تسمن من تقدير ، فقد كانت اقرب الى الرشوة منها الى المنحة الخالصة التى تيسر للمدفوع له اذا كان مواطنا رشيدا ان يؤدى لبلده عملا صالحا .

وصممت على ان ابقى فى الاسكندرية ليلة قبل ان ابرحها الى القاهرة الحبيبة لانضم الى اسرتى الصغيرة : زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . واستأجرت غرفة فى احد الفنادق لليلة واحدة اعيش

فيها فرحة الجماهير واسمع من قريب احيانا ومن بعيد احيانا اخرى الهتافات والتعليقات التى تنم على الامل المرجو . وما كان املى الا ان اعمل عملا صالحا اذا لم اتمكن من العودة الى مصادر المعرفة فى لندن او فى غيرها من دول الغرب او من دول الشرق وان كان الذهاب الى الاخيرة فى ذلك الحين متعذرا . وفجاة تذكرت كتبى التى اودعتها امانة لدى « شركة كوك » لكى تشحنها على عنوانى بالقاهرة . تذكرتها كتابا كتابا .. تذكرت ليس فقط كتب « ماركس وانجلز ولينين وستالين » ولكننى تذكرت ايضا كتابى « هوجين » وكتب « ج . ب . س هولدين » وبخاصة (كل شىء له تاريخ طبعة عام ١٩٥١) و « ماهى الحياة؟ طبعة عام ١٩٤٩ » و « عدم مساواة الانسان طبعة عام ١٩٣٢ » ، وكتبا عديدة عن مصر القديمة وبخاصة كتاب « تراث مصر طبعة عام ١٩٤٩ » ومحرره « جلانفيل » وكتاب (فجر الضمير طبعة عام ١٩٣٣) تأليف «برستد» وكانت منها مجموعة كبيرة من كتب سلسلة « مكتبة كل شخص » — Everymans, Library —
وقد غذتنى هذه السلسلة بالمعلومات القيمة التى قدمها عباقرة الفكر امثال « داروين » و « آدم سميث » و « ريكاردو » و « روسو » و « ج . س ميل » و « كنت » و « وليم جيمس » وغيرهم وغيرهم . ولم يكن « بلنت » بكتابيه « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر » و « يومياتى : ١٨٨٨ ــ ١٩١٤ طبعة عام ١٩٣٢ » ولا « كرومر » بكتبه « مصر الحديثة : المجلد الاول طبعة عام ١٩٠٨ » و « مصر الحديثة : المجلد الثانى طبعة عام ١٩٠٨ » و « عباس الثانى طبعة عام ١٩١٥ » ، لم يكونا مصدرُ التعرف على مصرنا الخالدة فى العصر

الحديث ولكن كان كتاب « شفيق غربال » « بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على طبعة عام ١٩٢٨ » وكتاب « شارل عيسوى » « مصر : تحليل اجتماعى واقتصادى طبعة عام ١٩٤٧ » . وكانت من كتبى التى تعالج الموضوعات الدينية فضلا عن مجلة « روبن ليفى » عن مؤلفه « علم الاجتماع الاسلامى » كتب اخرى عديدة ، تذكرت منها كتاب « تراث الاسلام طبعة عام ١٩٤٩ » وكان محرره « توماس أرنولد » بالاشتراك مع « الفرد جيلايوم » وكتاب « المؤسسات الاسلامية طبعة عام ١٩٥٠ » تأليف « موريس جود فروى ديمومبينز »، وكتاب « العقائد التي يعتنقها الناس طبعة عام ١٩٥١ » تأليف « شارلز فرانسيس بوتر » وغيرها وغيرها . وكان ضمن ما تذكرت من كتب كتابى « دراسات مستقبلية لثقافة تحتضر طبعة عام ١٩٤٩ » و « الوهم والحقيقة طبعة عام ١٩٥٠ » تأليف شهيد الحرب الاسبانية الأهلية « كريستوفر كودويل » ، وكتابى (الانسانية كفلسفة طبعة عام ١٩٥٢) و « وهم الخلود طبعة عام ١٩٥٢ » تأليف « كورليس لامونت » . ولم تكن كتبى تخلو من الروايات الخالدة مثل روايات « جوركى » و « فاوست » و « تولستوى » و « ديكنز » و « هاريت بيتشر » (مؤلف رواية كوخ العم توم) فضلا عن حكايات « بوشكن » و « دوستيوفسكى» وغيرهم وغيرهم . وفجأة تذكرت انني ربما كنت الشخص الوحيد الذى لديه المجلد الرابع من كتاب « راس المال » لماركس او الذى يعتبر المجلد الرابع وعنوانه « نظريات فائض القيمة طبعة عام ١٩٥١ » . وكتاب عن« فرانسيس بيكون » وعنوانه « فرانسيس بيكون فيلسوف العلم الصناعى طبعة عام ١٩٥١ » ومؤلفه « بنامين فارنجتون »

ذكرته كذلك ، كما ذكرت مجلدى « ادوارد ب . تيلور عن « الثقافة البدائية : دراسات فى تطور علم الاساطير والفلسفة والدين واللغة والفن والعادة طبعة عام ١٩٢٩ وكتاب « فريزر » الغصن الذهبى الطبعة الموجزة عام ١٩٥٠ » . وتذكرت كتبا اخرى كثيرة . وكانت لهفتى على المذكرات التى كنت اكتبها فى المحاضرات او كنت الخص فيها ماكنت اقرأ ، كانت هذه المذكرات مع هذه الكتب التى كانت تملأ ثلاث حقائب كبيرة وكان يربو عددها على الثلثمائة كتاب ، وذلك عدا الكتب الدراسية التى كان على « ان اقراها لاؤدي الامتحان فى محتــواها .
كنت فى حجرتى المتواضعة فى احدى غــرف فنــدق متواضع فى ميناء الاسكندرية . كنت على السرير مستلقيا احاول أن انام فلم استطع . ويبدو اننى ، كمـا اذكر الآن اى عند كتابة هذه السطور ، اننى لم انم الا بعد ان سمعت آذان الفجر يدعو الناس الى الصلاة . فقمت وتوضأت وصليت الفجر حاضرا ثم نمت متقطعا حتى الصباح لاستعد للحاق بالقطار الذاهب الى مدينـــة القاهرة . وعلى الرغم من ان حرارة الشوق الى رؤية أعضاء اسرتى الصغيرة كانت تملأ كيانى ، فقد تذكــرت خروج الملك فاروق مطرودا وشعرت بالتفاؤل . وكنت فى حقيقة الامر شامتا ، فقد كان شخصا متسلطا جاهلا وكان قبل ذلك وربما بسببه فاسدا مفسدا . كـانت سيرته وسيرة اعضاء عائلته تزكم الانوف . ولم يكن على الرغم من مركزه الرفيع النموذج الانسانى الصالح ليكون قدوة صالحة . ورجوت الله وأنا اصــلى الفجر « حاضرا » فى السجود أن يستبدل به من يؤمن بحقوق الشعب المصرى الخالد ويعوضه عما عانى على مر السنين منذ الماضى السحيق وحتى لحظة خروج فاروق مطرودا

وفى ضوء العلم سرت الى تفكيرى خشية وددت لو أن المسئولين عن « الحركة » او « الثورة » الجدد لو انهم اهتموا بها . ان مصرنا الخالدة فى ضوء تاريخها القديم المستمر كانت تضع حكامها على تباينهم فى مكانة رفيعة دائما . وكان الشعب المصرى يقدس بعض حكامه .
وكانت خشيتى تأتى من ان خلع الحاكم كرمز من رموز السلطة يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الاخرى . فالحاكم والرئيس والمدرس والاب ومن فى حكم هؤلاء فى المجتمع اى مجتمع ، وبخاصة المجتمع المصرى ، هم رموز النظام الاجتماعى ولسان حاله . وهم فى هذا الضوء يكونون جزءا من كل شخص يعيش فى المجتمع ، اى ان سلوك اعضاء المجتمع واداء ادوارهم الاجتماعية يكونان « عادة » فى حدود النظام الاجتماعى الذى يعيشون فى ظله . وخلع الحاكم يؤثر بالضرورة فى شخصيات اعضاء المجتمع الذين يحكمهم ، اى يؤثر فى انماط سلوكهم . ومهما كان خلع فاروق مبررا وضروريا فان هذا الخلع يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الاخرى فى المجتمع ومنهم « الرئيس » و « المدرس » و « الاب» ومن فى حكم هؤلاء عند اعضاء المجتمع الاخرين «العاديين» وبخاصة فى محيط الاحداث والشباب . ومن ثم فان الاهتمام باعادة تكوين المواطنين اصبحت مسألة ضرورية واعادة التكوين هذه تعنى تكوين المواطن المصرى الصالح لكى يؤدى ادواره — الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع المصرى الجديد . وبدأت احلم وانا استعد للرحيل من الفندق لالحق بالقطار الذاهب الى مدينة القاهرة . كنت مازلت اعيش حياتى الفكرية التى استقيتها فى بلاد الغربة . ورأيت كيف ان الانسان وقد اصبح جبار العصر الحديث . وكيف اصبحت قوى

الطبيعة التى كانت شيئا مجهولا رهيبا لم تعد شيئا مجهولا ولا رهيبا . فالانسان فى ضوء العلم قد اصبح يسيطر على هذه القوى او كاد . وهو الآن يصنع السحاب ويزرع الصحراء ويحول مجارى الانهار ويزحزح الجبال ويجعل من الهضاب الجرداء حقولا وجنات . لقد سيطر الانسان فى ذلك الحين على الذرة واصبح من الممكن ان يفاد من طاقة الذرة الهائلة فى خدمة الانسان. والانسان ، اعظم من فى الوجود ، اصبح هدفه الاصلاح الثورى فى كل الميادين والمجالات وبخاصة فى ميادين ومجالات العلم والطب والفن والحقوق السياسية التى تمكنه من اختيار شكل الحكومة التى يذعن لقوانينها .. الخ وقلت وانا اركب القطار ان محك اللقاء هنا فى مصرنا التى تطل على عهد جديد ان يعطى الانسان من الحقوق ماتستحقه انسانيته . لقد كان على الدوام يعطى ويعطى منذ الازمان السحيقة وكان لايأخذ الا اقل القليل . وقد آن الاوان ليأخذ بقدر مايعطى . وتذكرت الامية التى لا يزال الملايين من المصريين يعيشون فى غياهبها . وتذكرت المشاكل الاجتماعية العديدة التى لخصها البعض فى الثالوث غير المقدس : الفقر والجهل والمرض . وقلت فلأنتظر . ثم عشت فى الخيال وكأننى استقبل اعضاء اسرتى الصغيرة ويستقبلنى اعضاؤها ، لقد مرت الايام والشهور وانا بعيد عنهم ، كانت فترة لا تعدو الثمانية عشر شهرا ولكنها فى عمرى الزمنى كانت اطول واعمق واجدى من كل الفترات . لانها ، كما بان لى بعد، كانت الفترة التى اكتسبت فى خلالها من الخبرات التى كانت المرجع الاول لكل خبرات انسانية جاءت بعدها . ومالبثت أن وجدت نفسى بين احضان الحب والحنان.

خب بحنان اعضاء اسرتي الصغيرة : زوجتي واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . واذا كانت احضانهم متعددة وسعتني وزيادة ، فان حضني الوحيد وسعهم كذلك ، اصبحنا كأننا شخص واحد . احسست بأنني اكتملت ، اي ان النقص الذي كنت احس به قد كمل بعد ان عدت اليهم وعادوا الى . ان احمد وهو الاكبر اصبح في الثامنة عشرة من عمره ، وان مسعد وهو الاصغر أصبح في التاسعة من عمره . كانوا صغارا على الفراق . وكان العبء كبيرا كبيرا على « ماما » زوجتي . وبقدر ماكنت أفتقدهم احسست بأنهم كانوا يفتقدونني ايضا . ما اعجب الحياة التي اخوضها منذ ان ولدت ! وما اكثر مابررت لهذه الحياة ماكانت تفعله بي وبمن كانوا ولايزالون أعز الاعزاء عندي ! كان اليوم يوم ٢٧ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وكانت آثار حوادث يوم ٢٣ من شهر يوليو حتى يوم ٢٦ من نفس الشهر ملء أفواه الناس . في خارج الاسرة يتحدث الناس عنها واعضاء اسرتي يتحدثون ويشتركون في الاغاني والاناشيد التي تبثها الاذاعة باستمرار ويرددها الناس في الحال وبخاصة الشباب والصغار ، ذكورا واناثا على السواء . ومنها كما اذكر :

« ايدك في ايدي ياعم ياعم نفدي الوطن
بالدم . ونبقى وحدة وبد واحدة
ايدك في ايدي ياعم ياعم ... » .

وبعد ايام قلائل وجدتني اذهب الى وزارة الشئون الاجتماعية لكي اقدم نفسي لابدأ عملي فاذا بي اوجه الى الذهاب الى « مصلحة الخدمات » التي كان يراسها في ذلك الحين الاستاذ « محمد حسن » الذي كنا نعرف اسمه ولا نعرف شخصه . ذلك انه كان يؤلف عاما بعد

عام كتابا عن اسئلة امتحانات شـــهادتى « الكفاءة » و « البكالوريا » مع حل هذه الاسئلة . وكنا ونحن طلبة نبادر بشراء هذا الكتاب الذى كان يضم اســـئلة الامتحانات التى عقدت من قبل واجابة كل سؤال ، وذلك لنهتدى نحن الطلبة ونشبع حب الاستطلاع عنـــدنا ولنطمئن او نحاول ان نفعل ذلك . وسرعان ماوجدتنى فى « ادارة الاحداث » فى وظيفة « مفتش اجتماعى » . وتسلمت عملى الجديد فى اول يوم من شهر اغسطس عام ١٩٥٢ . ووجدت ادارة الاحداث يديرها مدرســـــون سابقون وكان يراسها الاستاذ « عباس ابو شوشة » . ولم يكن لى مكان اجلس فيه . فكان الاستاذ ابو شوشة يدعونى لاجلس معه فى مكتبه . كان رجلا على وشـــك الاحالة على المعاش ، وكان كريما . ولم يكن هو او غيره من الموظفين الآخرين يعرفون شيئا عن الاحداث الا اسم « الاحداث » . وقد عرف الجميع خبراتى فى هـــذا الميدان فكنت موضع احترامهم المزيف . وكنت اجلس كل يوم ولا اعمل شيئا ، كنت ضيفا على رئيس الادارة الذى كان يحلو له ان يتحدث عن ماضيه وخبراته وآماله وبعض آلامه . ولم يتحدث احد عن مايحدث من احداث سياسية . كان المسئولون عن ادارة الاحداث وغيرهم من الادارات الاخرى يتحدثون همسا عن « التطهير » . وكانت المصلحة لاهم لها الا ان تيسر للمحققين مهمتهـم لكى يقرروا موظفيها الذين سيكون نصيبهم التطهـير . وكنت اعيش فى هذا المناخ وكاننى اعيش فى « المريخ » . لا اعرف شيئا . ولا يريد احد ان يعرفنى شيئا . وبدا لى اننى فى مسرح كوميدى تراجيدى . وبدات اؤدى دور المتفرج لاسرى عن نفسى الملل الذى كاد ان يكتم انفاسى . وكان الوقت الذى اقضيه كل صباح فى مواعيد

العمل الرسمية طويلا طويلا . ومع ذلك فكنت ارى الموظفين من حولى وهم يؤدون ادوارهم فى مسرحيــة التطهير . وبدا لى منذ اول لحظة ان هذه المسرحيـــة سياسية من اولها الى آخرها . فالتطهير فى حقيقة الامر يمس الجميع . اى ان الجميع كان يجب ان تتطهر المصلحة بل وزارة الشئون الاجتماعية بل الوزارات كلها منهم ، وبخاصة من كان منهم من المسئولين . ولـكن رجال الحكومة الحالية ومن ورائهم رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة ، كما بدا لى فى ذلك الحين ، ارادوا ان « يتخلصوا » من اناس بعينهم سواء اكانوا فى الوزارات ام فى المؤسسـات الاخرى ومنها الجامعات . وكنت فى المصلحة فى ادارة الاحداث اعيش دنياى . كنت ابكى على ضياع وقتى . ولم اجد الوقت مناسبا لاتحدث عن اجازة بمرتب او حتى من غير مرتب لكى استأنف دراساتى العليا فى لندن . وكانت تسرى عنى احاديث الاســتاذ عباس ابو شوشة . كانت احاديث فيها بعض الحكمة . وكدت ان اثق فى انه يحترمنى ولكن الظروف اثبتت لى انه كان يخشانى اكثر . كان فى الدرجة الثانية الماليــة وكنت فى الدرجة الخامسة المالية . كان فى سن التاسعة والخمسين وكنت فى سن التاسعة والثلاثين . ولكنه كان يجهل عمله وكنت اعلم هذا العمل . وكان الجميع فى شغل شاغل عن العمل . كل يضع يده على قلبه والاصابع تشير الى هذا او الى ذاك من كبار موظفى الوزارة مؤكدة ان اسماء معينة . كان اصحابها يرهبـون من يرهبـون ويظلمون من يظلمون ولا حسيب ، قد ســجلت فى سجلات التطهير . ومن ثم فكنت وكان غيرى يجــد مكاتبهم قد اصبحت خاوية لا يدخلها احد ، بل لا يمر امامها احد ، خشية الاتهام . انه النفاق الذى يعيش

فى المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى منـــذ القديم ولا يزال . ولاننى لم اكن ، منذ آن تركت « مصلحة الحدود » فى شهر مايو عام ١٩٣٩ ، موظفا حكوميا — فاننى كنت مستريح البال لا آبه بشىء يتعلق بهذا التطهير ولكن كانت حواسى كلها متيقظة لما كان يحدث . ان ماكان يحدث فى هذا القطاع من اعضاء المجتمع المصرى يبرز الكثير مما كان خافيا . وكانت النتائج مـــذهلة أسعدتنى معرفتها وتسجيلها فى ذاكرتى . ومع ذلك فاننى كنت ابكى على ضياع وقتى . فالوقت غير مناســـب لاتحدث عن آمالى فى استئناف دراساتى العليا . وكنت اقول لنفسى عند اليأس « البركة فى ابنائى » . انهم امتداد لى فلاكرس حياتى من أجل تحقيق مالم استطع ان احققه انا . ان احمد على وشك الالتحاق بالجامعة وستتبعه ان شاء الله آمال ثم سمير وتيسير ومسعد . والله وحده المستعان .

ومرت الايام ثم الاسابيع ومر شهر اغسطس وتلاه شهر سبتمبر ، وما أن جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ حتى قدمت طلبا للالتحاق بالمعهد البريطانى لكى اســـتانف دراساتى العليا . وذلك لان نتيجة الامتحان عندما جاءت الى من لندن اكدت رسوبى فى الامتحان الذى جلست اليه فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . كان هذا الامتحـــان امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية » الذى كـــان نجاحى فيه يعتبر خطوة الى الامام نحو تحقيق الهدف الذى كنت ابغى تحقيقه . كان رسوبى فى « علم الاقتصاد » الذى اجبت فى الامتحان فيه عن ثلاثة اسئلة لا عن اربعة اسئلة كما اراد الممتحن . كان لى عذرى فقد ذهبت الى قاعة الامتحان فى ذلك الوقت ، لاسباب كانت خارجـة عن ارادتى ، متاخرا . وكان حزنى شديدا . حـزنت

وحدى ولم اجد من يشاركنى مشــــاعرى وعواطفى
واخفيت الامر على الجميع . ولكنى لم أيأس . فقــد
كانت ظروف العمل فى مصلحة الخدمات فى الفترة التى
وجمت فيها الى مصر مواتية لكى أستأنف الدراسة فى
المعهد البريطانى . وما ان جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢
حتى استأنفت الدراسة . وكانت الدراسة فى المعهــد
مسائية فتيسر لى ان اعيش فى المناخ الثقــافى المحبب
الى نفسى . وكأن الله جل وعلا قد عوضنى عن ضــياع
وقتى سدى فى الصباح . ولكن حدث مالم يــكن فى
الحسبان . ففى احد الايام وجدنا الاستاذ « فؤاد جلال »
فى الرزارة يمر على الموظفين فى المكاتب . كــان احد
وزراء الوزارة التى كان يرأسها فى ذلك الوقت « على
ماهر » الذى اعفى منها فى يوم ٧ من شهر سبتمبر عــام
١٩٥٢ ، وخلفه فى الرئاسة الرئيس محمد نجيب .
حضر الاستاذ فؤاد جلال فى خلال شهر اكتوبر عــــام
١٩٥٢ كما اذكر وانا اكتب هذه السطور . وكان عندما
رآنى شخصا كريما . لم يتجاهلنى كما يفعل غيره عادة
او كما فعل غيره احيانا . وانا اعرف هذا الرجل فقــد
كان احد اعضاء هيئة التدريس فى معهد التربية الذى
كان يديره الاستاذ « اسماعيل القبانى » . وقــد كان
زميلا لاستاذى الدكتور عبد العزيز القوصى . كنت اراه
كلما كنت ازور الدكتور القوصى فى المعهد . وكان يعيش
مع اسرته معنا فى معسكر الرواد الذى اقيم فى عــام
١٩٤٩ بميناء الاسكندرية . وكنت تراه مرحا يغنى لابنائه
ومعهم اغنية الاطفال المشهورة :

ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صوصو

وقد اشترك فى نشاطات المعسكر الثقافية والترويحية
وكنت اعلم انه عضو فى جماعة « الرواد : ولكنى لم اكن

اعلم ان له نشاطا سياسيا معينا . كان لايبدو عليه أى اهتمام بالسياسة . وفوجئنا ، من يعرفونه من زميلاتى وزملائى وانا ، باختياره وزيرا فى وزارة على ماهر . كان وزيرا لوزارة الارشاد . ولعل اتصاله بوزارة الشئون الاجتماعية عندما زار موظفيها فى خلال شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ ان يرجع الى ان كان وزيرا لها او وزيرا بالنيابة فى ذلك الوقت لست أدرى . تحدث الى فترة من الوقت ، واستبشر بلقائى ، وقال ضمن ماقال انه يود ان يرانى . ولكنى لم اره بعد ذلك ابدا . وكان الغرض من زيارة الاستاذ فؤاد جلال . كما عرفت بعد ذلك ، انه جاء بقصد اختيار بعض الموظفين الذين يتوسم فيهم الشروط لكى يعاونوا الحكام الجدد بخبراتهم . ولكن فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ ترك الاستاذ فؤاد جلال وزارة الارشاد وعين مكانه « صلاح سالم » وذلك عندما اعاد الرئيس محمد نجيب تشكيل وزارته عندما اعلن مجلس قيادة الثورة الغاء النظام الملكى فى البلاد وقيام الجمهورية بدلا منه .

وفوجئت فى خلال شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ ان دعانى وكيل مصلحة الخدمات ، وامرنى بأن اذهب الى رئاسة مجلس الوزراء لاقابل « الصاغ مجدى حسنين » مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء . لم اكن أدرى لماذا وقع الاختيار على ، ولكنى أحسست ، وربما كنت مخطئا ، بأن كبار موظفى المصلحة ارادوا ان يجعلوا منى كبشا للفداء ، فقد كانت ملامحهم وهمساتهم وانماط سلوكهم تنم على الاعتقاد بأن ماحدث فى البلاد من أحداث جسام لن يستمر ، وان استمر فالى حين . ومن ثم رأوا ان يرسلونى الى موقع الخطر فأنا غير معروف لديهم ولا اصدقاء لى بينهم ولن يكون ولائى ابدا لهم . أحسست

وكان احدهم قال عنى عندما طلب من المصلحة ارسال احد الخبراء ليعاون بخبرته : ارسلوا هذا الغريب عنا وليكن مايكون . كانوا لايعيشون وقائع الحياة الحيــة فى مجتمعنا ، وكان افق نظراتهم نحو هذه الحياة ضيقا ، ولم آبه لما كانوا يظنون أو يعتقدون . اقصد لماكانت نظرات اعينهم تقول لى وهم يشيعونني الى قدرى . وكــان التغيير الذى حدث فى موقعى لصالحى . فانا سأواجه تجربة حية جديدة لا على فحسب بل ايضا على المجتمع المصرى بأسره . ويكفى أن اكسر قيود الملل الذى احياه فى هذه المصلحة ، وان اترك الاجسام المحنطة او شبه المحنطة من حولى الى اشخاص تملأ قلوبهم الثورة على الاوضاع البالية ويحاولون ان يغيروا ما استطاعوا من هذه الاوضاع . اشخاص تجرى فى شرايينهم الدمــاء الشابة ولعلى ان اعمل عملا صالحا . ولعلى ايضا ان افيد من هذه التجربة . فأنا شخص فى ذلك الحين كنت اثق فى المستقبل ، وفى ضوء خبراتى المنتظمة وغــير المنتظمة استطيع بلا غرور ان اكون على مســـتوى المسئولية . وسألت الله جل وعلا ، مخلصا ، التوفيق والسداد .

وذهبت الى رئاسة مجلس الوزراء . وســمح لى بالدخول فى الحال . وقابلت الصاغ مجدى الذى رحب بى ترحيبا كريما . وجدته شابا يعيش حيــاة شــابة فى عقل وروية . بدا لى من عينيه أنه ولد ثائر . وقلت لنفسى وربما سمع ماقلت « ربنا يخليك لمصر » . فلعل عينى وشت بما قلت ، او لعلنى قلت ماقلت بصــوت مسموع . وتم الاتصال الروحى بيننا فى الحال . جمعنا حبنا لمصرنا الخالدة . واكد لى ان مكانى سيكون معــه على الدوام لاعمــل من أجل توطيــد دعــائم الحكومة

الجديدة فى نفوس جماهير الشعب المصرى الكريم .
وبرزت فكرة « معونة الشتاء » . فالشتاء على الابواب .
وكنت فى دراساتى فى انجلترا علمت باحد المشروعات الذى له مكان اجتماعى مرموق فى المجتمع الانجليزى . كان هذا النظام يسمى ب « حوانيت التجارة الخيرية » . وكانت الهيئة المنظمة للمشروع تجمع شهريا البقايا التى ترى الاسرة اى اسرة الاستغناء عنها . وكان لدى هذه الهيئة كشف بأسماء عدد من الاسر التى قبل اولو الامر فيها الاشتراك فى المشروع . فيوزع على هذه الاسر صناديق لكى توضع فيها كل البقايا التى تستغنى كل اسرة عنها ، سواء كانت هذه البقايا ملابس او اجهزة او قطعا من الاثاث .. الخ وكان لكل اسرة صندوق واحد . وتقوم الهيئة باستلام الصناديق من الاسر المتبرعة مرة فى كل شهر وتأخذها الى احد مخازنها وبعد تفريغها من محتوياتها تعود بها فارغة الى الاسر مرة ثانية . وفى مخازن الهيئة يقوم بعض الاشخاص من ذوى العاهات ، كل حسب قدراته ، بعمليات فرز البقايا المجموعة واصلاح مايمكن اصلاحه حتى يكون صالحا للاستعمال توطئة لبيعه فى حوانيت خاصة فى المدينة ، وكان العاملون فى المخازن والمشرفون على البيع فى الحوانيت من ذوى العاهات . وكانت حصيلة المبيعات توزع على بنود المصروفات لكى تستمر الهيئة المشرفة على المشروع فى اداء رسالتها . وكانت من اهم بنود هذه المصروفات اجور العاملين كل حسب قدراته ونتائج نشاطاته . وكان اهم اهداف المشروع ان لايترك ذوو العاهات دون ماسند وان يشعروا بحق انهم اشخاص منتجون على الرغم من ظروفهم الاجتماعية غير المواتية . اى ان يتأكد كل واحد منهم انه ليس عالة

على احد وانه يستطيع أن يعيش حيـــاة الاشـــخاص العاديين . وكان كل ما كانت تفعله الهيئة المشرفة على المشروع القيام بالاشراف عليه وادارته بحيث يتيسر تحقيق المبدأ القائل : ان اعظم مايستطيع القادر الواعى أن يعمله لشخص فى حاجة ما هو مساعدته لكى يساعد نفسه . كانت كل هذه الحقائق تدور فى ذهنى وأنا اتحدث مع الساغ مجدى . ثم ذكرت له عن هذا المشروع وعن اهدافه مما اكد له ان يكون اول مشروع تقوم به الحكومة الجديدة هو مشروع « معونة الشتاء » . وفى اثناء الحديث ضم الينا الاستاذ انور أحمد الذى كان قد قام بتمثيل دور الزعيم مصطفى كامل فى فيلمه المشهور، ولم يقم من بعد ذلك بدور آخر . فكان اول وآخــر دور يمثله . وتناقشنا نحن الثلاثة فيما يجب ان يكون عليه مشروع معونة الشتاء ، وانتهينا الى بعض القرارات اهمها كما اذكر دعوة المصريين القادرين الى التبرع بالملابس على تباينها كل حسب امكاناته . وبقى دور التنفيذ الذى ترك للساغ مجدى ولى ومن تعاون معنا من الســادة الضباط الموظفين المتخصصين . وكانت الخطوة الاولى فى سبيل التنفيذ هى اختيار مكان لاستقبال التبرعات العينية . ووقع الاختيار على أرض المعارض بالجزيرة .
وكان همى الاول هو لمن توزع هذه التبرعات ؟ فانا اولا وقبل كل شىء اخصائى اجتماعى اعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية منذ شهر مايو عام ١٩٣٩ . وكنت فى ضــوء خبراتى المتعددة الجوانب اعلم بمن يستحق هــــذه التبرعات . ولم اكن اسبق الحوادث عندما فكرت فى هذه القضية لاننى كنت على يقين بأن الشــعب المصرى القادر سيلبى النداء . وعلى الرغم من اهمية ذلك فان هذه التلبية تعنى الى حد كبير استفتاء شعبيا اجتماعيا

للحكومة الجديدة والذين من ورائها من قادة ثوار ، وكنت كمصرى على يقين بأن هذا الاستفتاء سيكون فى صالح الحكومة الجديدة ، وذلك على الرغم من حوادث « كفر الدوار » التى حدثت فى أواخر الاسبوع الثانى من شهر اغسطس عام ١٩٥٢ . أى بعد مرور ثلاثة اسابيع على قيام « حركة الجيش » ، والتى انتهت أى تلك الحوادث باعدام « مصطفى خميس » و « محمد البقرى » . وأنا اذكر الغصة التى اصبت بها بسبب هذا الحكم الجائر ؛ ولكن سرعة الحوادث التى كانت تتوالى فى ذلك الحين الهت الناس عن مصير كل من خميس والبقرى ، وبخاصة بعدما صدر قانون الاصلاح الزراعى الذى كان محور أحاديث أعضاء المجتمع فى تلك الفترة ومابعدها والذى أعفى على ماهر بسببه من رئاسة الوزارة فى يوم ٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ ، وخلفه فى الرئاسة الرئيس محمد نجيب . واعلن القانون فى يوم ٩ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ أى بعد تولى محمد نجيب رئاسة الوزارة مباشرة . هذا فضلا عن توقع اعضاء المجتمع المصرى اجراء الانتخابات فى شهر فبراير عام ١٩٥٣ كما وعدت به الحكومة الجديدة على لسان الرئيس محمد نجيب . فقد بدا لى فى ذلك الحين ان الرأى العام كان فى شوق شديد الى الحكم الديمقراطى السليم الذى لم يتمتع به الا نادرا . وكان الأمل الكبير للشعب المصرى هو الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية ، وكنت كعضو من أعضاء هذا الشعب اترقب ذلك وارجوه . وعلى الرغم من الغصة التى اصبت بها بسبب اعدام « مصطفى خميس » و«محمد البقرى » فاننى وجدت نفسى أعمل مع الصاغ مجدى ساعات طوالا يوميا من اجل تنفيذ « مشروع معونة الشتاء » . كنت فى صحة جسمية وعقلية ونفسية

تسمح بهذا العمل . وأعتبرت وجودى بجوار الصاغ مجدى فرصة لارى واسمع عن قرب . وكم رأيت وكم سمعت ؟ الكثير الكثير والمختلف والمتباين . كنت أرى الضباط الكبار ورجال الفكر الكبار يأتون أفواجا وفرادى لكى يقدموا التحيات ويؤكدوا الولاء . وكان بعض هؤلاء الاخيرين يكتبون ، وكنت استطيع ان اقرأ بعض ماكانوا يكتبون . وكنت اعجب لما كان يقترح . فبعضهم كان يرى أن تحكم البلاد كما كان « هتلر » يحكم ألمانيا ، وبعضهم كان يرى أن صدور قانون الاصلاح الزراعى هو خطوة الى الشيوعية . وكان بعضهم يكتب عن مصير قضية « مصر والسودان » وما يجب أن يكون عليه هذا المصير . وكان يأتى بعض الناس لكى يرووا ماوصلت اليه الحال من الفساد فى جهة من الجهات . وجاء احدهم وهو يلبس « خرقة التصوف » ويعلق فى رقبته « بروازا » تطل منه « شهادة ليسانس فى الحقوق » ، ويقول صارخا مترنحا : « اتركوهم لا تفعلوا شيئا . انهم سيخرجون وحدهم من مصر بلا رجعة . فلا تفعلوا شيئا . اتركوهم . لقد آن أوان جلائهم عن البلاد » ، وكان يقصد « الانجليز المستعمرين » . وجاء الذى كان الصاغ احمد حسان وانا فى مؤسسة الزفاف الملكى وهو فى رتبة اللواء ويشغل منصب « حكمدار العاصمة » مودعا الى غير رجعة ، ولما رآنى لم يستطع أن يخفى الصدمة التى اصابته وبرزت آثارها فى عينيه . كنت جالسا بجوار الصاغ مجدى وكان هو واقفا يحيى ويودع . وجاء صديق ابى « اللواء عبد العزيز راشد » وسلمت عليه فى حب واحترام وترك المكان وهو يرى مصيره القاتم . واحسست ان مجرد جلوسى بجوار الصاغ مجدى قد اضفى على شخصى الضعيف مكانة اجتماعية

لم اتذوقها فى حياتى من قبل . فكان يجىء الى اشخاص لا اعرفهم لكى اكون وساطة بينهم وبين الصاغ مجدى . كان من هؤلاء كبار موظفى رئاسة مجلس الوزراء وبعض كبار موظفى وزارة الشئون الاجتماعية ممن كنت أسمع عنهم ولا اراهم . وكان رجال الصحافة يأخذون صورا لى وحدى احيانا او مع الصاغ مجدى احيانا اخرى . وكانت تؤخذ صورنا ونحن فى صحبة الرئيس محمد نجيب فى المناسبات او فى غيرها . وكانت تنشر هذه الصور او بعضها فى الصحف . وانا اذكر احد موظفى رئاسة مجلس الوزراء الذى كان يتقن اللغة الانجليزية وكان يذهب الى الخارج فى المؤتمرات او من اجل اداء بعض المهام انه كان يأتى صباح كل يوم امام الصاغ مجدى ثم يقسم بأغلظ الايمان بأنه ذهب بالامس الى ضريح « السيدة زينب » او الى ضريح « سيدنا الحسين » ودعا لتوطيد دعائم حركة الجيش . ويؤكد انه « كنس » الضريح حتى تجاب دعواته ، ثم يقدم الى الصاغ مجدى مايعن له من آراء ومقترحات اذا اطلع عليها احد لابرى بدا من ان يبتسم ساخرا . وزيارات الاجانب الى مبنى الرئاسة كانت لا تنقطع وفى يوم من الايام جاء « فوستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ، وقابل من قابل ، ورأيته عن كثب يرد على أسئلة الصحفيين المصريين وغير المصريين . كانت الحياة فى هذه البقعة من ارض مصر زاخرة بأنماط السلوك البشرية المصرية التى كانت تصدر عن المصريين من كل مكان ومن كل لون ومن كل مستوى . وكان يجلس معى فى الحجرة التى خصصت لى والتى توجد بها الخزانة التى احمل مفاتيحها ، الاستاذ احمد فؤاد الذى لم اره من قبل وعرفت انه كان يعمل فى القضاء وقد اسهم من قبل فى قيام « حركة

الجيش » . ولم يكن بيننا سوى التحيات . ولكنى كنت ارى فى يديه او على مكتبه كتبا كنت اعرف عنهـــا الكثير . منها كتاب « ماذا حدث فى التاريخ ؟ » وكتاب « الانسان يصنع نفسه » وقد الفهما « البروفســـور جوردون شيلد » عضو الاكاديمية البريطانية . ورأيت ايضا على مكتب الاستاذ احمد فؤاد كتاب كل مـــن « سيدنى و ب وزوجته بياتريس » وموضوعه «شيوعية السوفيت » ، وهو كتاب معـروف نشر فى عام ١٩٣٥ عقب زيارتهما للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٣٢ ، وفيه غيرا رأيهما عن « مذهب التطور او التدرج » الذى ظلا يعتنقانه ويخلصان له من قبل هذه الزيارة زمنا طويلا . وتأكد لى شيء عن فكر هذا الرجل وبخاصة عنـدما كان يزوره « الدكتور راشد البراوى » ويتحدثان معا دون أن يسمعهما احد . وكان الدكتور البراوى معروفا بميوله الماركسية . وزاد تأكيدى لما وصلت اليه عن فكر الاستاذ احمد فؤاد ماعلمته فى ذلك الحين من بعض الثقـات من انه كان مندوب الاتصال بين الضباط الاحرار وبين المنظمات الشيوعية المصرية وعلى رأسها منظمة « حدتو» « الحركة الديمقراطية لتحرير الوطن » . أما هو فلم يكن يعلم عنى شيئا . ولعله كان يرى اننى مواطن يساعد الصاغ مجدى فى مشروعاته ويحمل مفاتيح خزانته . وتأكد لدى هذا عندما جاء مع بعض الضيوف لزيارة « المعهد القومى للبحوث الاجتماعية » الذى تم انشاؤه فى عام ١٩٥٦ عندما زارنى فى مكتبى بصحبة المـدير ورآنى ورأيته وبدا من سلوكه كأنه يرانى لاول مرة . وقد كنت قد عينت فى هذا المعهد عقب عودتى مـــن الولايات المتحدة مباشرة بعد حصولى على درجـــة الدكتوراه فى علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة ..

وفى اثناء وجودى فى رئاسة مجلس الوزراء فى ذلك الحين ، ولدت فكرة مشروع « مديرية التحرير » . وكان الصاغ مجدى مهتما جدا بهذا المشروع . وفى يوم من الايام دعا الصاغ مجدى بعض مدرسى كلية الهندسة من جامعة الاسكندرية . وجاء ثلاثة منهم على ماأذكر وكان من بينهم الدكتور « عزيز صدقى » . وبعد أن شرح الصاغ مجدى فكرة المشروع وجدت احدهم ، ولم يكن الدكتور عزيز ، يقول متحمسا وموجها كلامه الى الصاغ مجدى بانه مستعد للاسهام بشرط أن لايضطر الى ترك عمله الاكاديمى فى الكلية . وانا لا اذكر اسم هذا المهندس ولا اذكر اسم المهندس الثالث . واذا كنت قد ذكرت اسم الدكتور عزيز فان ذلك يرجع الى انه الوحيد الذى قبل العمل عن طواعية فى المشروع والتفرغ له . ومالبث الصاغ مجدى أن عهد اليه بأن يشرف على تنفيذه . وسرعان ما اعدت حجرة خاصة له لكى يقوم بعمل الرسومات الهندسية الضرورية او ليشرف على عملها بعد زيارة المكان الذى يرى هو أو معاونوه انه المكان الانسب لاقامة مديرية التحرير .

كانت حياتى اليومية فى ذلك الحين مشحونة بالعمل وبالمسئولية . فانا احمل فى حقيبتى مبلغا كبيرا من المال نقودا وشيكات جاءت كلها من التبرعات لمشروع معونة الشتاء ، وعندما تسلمت مفاتيح الخزانة كنت مسئولا لا عن هذا المبلغ فحسب « الذى وضعته فيها » بل ايضا عن اشياء اخرى ، منها على سبيل المثال بعض الساعات وبعض أقلام حبر « باركر » وعدد كبير من « دبل الخطوبة » كان فى لحظات حماس جارف قد تبرع بها بعض الضباط المتزوجين وغير المتزوجين لدعم المشروع . ومن العجيب أن الكثير من هؤلاء

الضباط جاءوا بعد أن فترت حدة الحماس يطالبون باخذ ما اعطوه . وقد قمت بعد موافقة الصاغ مجدى برد ما اعطوا . وكنت اعمل أيضا مع السادة الضباط المشرفين على تنفيذ المشروع وبعض الموظفين الآخرين . كان ذلك فى سراى ارض المعارض بالجزيرة . ويرجع قيامى بالعمل الاخير الى مفاجأة كانت قد حدثت بعد الانتهاء من التخطيط للمشروع وبداية عملية تنفيذه . كنت مع الصاغ مجدى فى رئاسة مجلس الوزراء حين رايت الضابط « حمزة البسيونى » وكان برتبة «صاغ» ومعه ضابطان ورتبة كل واحد منهما « ملازم اول » . رايتهم يدخلون من الباب العمومى الصاغ حمزه فى الوسط وكل ضابط من الضابطين على احد جانبيه . ورآهم معى الصاغ مجدى فقام من مكانه لاستقبالهم باسما ثم ضاحكا وهو يترنم بالنشيد المشهور :

« ياعم حمزه . احنا التلامذه »

وفوجىء الجميع عندما سلم على الصاغ حمزة بحرارة واكد بذلك بانه يعرفنى . وانا كنت اعرفه منذ عام ١٩٤٢ عندما كنت مديرا لمؤسسة الزفاف الملكى وكان هو ضابطا برتبة « الملازم الثانى » فى « الجيش المرابط » الذى كان موقعه بجوار مبنى المؤسسة مباشرة . كان فى معسكر الجيش المرابط « تليفون » ولكن الملازم حمزة الذى كان فارع الطول ذا وجه وسيم وشوارب صفراء اللون ذات حجم يلفت الانظار لا يحلو له الا ان يتحدث من تليفون المؤسسة . كان يتحدث يوميا بالتليفون مرة او مرتين او اكثر . وكان يتبرع بدفع نقود نظير كل محادثة تليفونية . لم اكن أدري من الذى يتحدث معه ولم يكن يهمنى ان اعرف . وكان يحدثنى عن الجيش المرابط وعن بعض احواله الشخصية . فهو لم يتزوج

ولكنه يحب سيدة متزوجة . وتراه يقسم لى باغلظ الايمان بانها اذا ماطلقت فانه سيتزوجها فى الحال . وفى يوم من الايام جاءنى يتحدث عن نقص فى العهدة التى هو مسئول عنها وكانت كلها « بطاطين » . فما كان منه الى ان مزق البطانية الى نصفين وحسب كل نصف وكانه بطانية . وبذلك خرج من المأزق . وفى يوم آخر ذكر لى ما افزعنى وذلك انه كان فى النادى والمسدس « الذى هو عهدته معه » فاذا بالمسدس دون ما قصد ينطلق فتخرج منه رصاصة فتقتل زميلا . واذا كنت انا قد فزعت حقا فقد كان هو غير مبال . انه لم يقصد ولتكن نتيجة التحقيق ماتكون . وتركت المؤسسة فى أواخر ديسمبر عام ١٩٤٣ الى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث . ومرت الايام وجاءت الحرب الاولى لفلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وسافرت الى لندن للمرة الاولى وعدت فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ ، وفى خلال الفترة التى تلت ذلك سافرت الى لندن للمرة الثانية فى شهر فبراير عام ١٩٥١ — فى خلال هذه الفترة قابلت الصاغ حمزه فى ميدان العتبة الخضراء .. وبدا لى وجهه متغيرا فقد اصيب فى المعركة فى خده ومع ذلك فقد ظل وجهه غير قبيح . وكانت مقابلة حارة . ولم اره بعد ذلك الا وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء عندما رآه الجميع وهو يسلم على بحرارة وبابتسامة عريضة !! ولان رتبة حمزة البسيونى كانت اعلى فاصبح المسئول عن توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية . وعرفت انه كان احد الضباط الاحرار . وكان احد ضباط سلاح خدمة الجيش وقد اشرف ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ على اعداد سيارات النقل التابعة للسلاح التى كانت تحمل الذخائر وكذلك عربات نقل الجنود لنقل

سرايا الكتيبة ١٣ الى مواقعهم فى تلك الليلة . أما الضابطان الآخران اللذان كانا يصحبـانه ويعاونانه فى عمليات توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية فقد كانا الملازم اول ابراهيم اسماعيل ابراهيم والملازم اول محمد عبده الشنارى . وكانا ايضا من الضباط الاحرار وقد لعبا دورا خطيرا فى نفس هذه الليلة مع الصاغ مجدى حسنين . وكان هذا الدور احتلال « اذاعة ابى زعبل ». وقد كنت اعمل مع هؤلاء الضباط عندما كانت ترد التبرعات العينية المختلفة من بيوت المصريين القادرين أو من محلات بيعها أو تصنيعها حتى ملئت كل أو معظم الحجرات أو السرايات فى ارض المعارض بالجزيرة . وضم الى هؤلاء الضباط احد الضباط الجدد وكان برتبة ملازم ثان ، وفوجئت بحضور الضابط جمال زكى وكان برتبة اليوزباشى . ولم يكن الضابطان الاخيران من الضباط الاحرار . وبدا لى أن الضابط جمال زكى قد سعى سعيا حثيثا لكى يكون احد المنفذين للمشروع ، ولم اكن اعرفه من قبل وان كنت اعرف اخاه دكتور سيد زكى الذى كان يحاول بدوره ان يتصل برجال حركة الجيش بكل الوسائل . وبالاضافة الى هـؤلاء انتدب بعض موظفى مصلحة المهمات للقيام بأعمال الفرز والاصلاح وغيرها لما يأتى من التبرعات العينية . وقد رأيت ان اولى الجهات بالتبرع لها هى الجمعيات الاهلية التى تشرف على العديد من الاعضاء فى الاحياء المختلفة بمدينة القاهرة ، ثم عندما وجدت ان نوع بعض الملابس وبخاصه « البلاطى والبدل والاحذية » نوع جيد ويكاد أن يكون جديدا ، اقترحت ان نتبرع لطلبة الجامعة المحتاجين على شرط ان نحرص على السرية التامة خشية ان يذاع اسم احدهم . وكانوا فى ضوء كشوف قدمت

من الجامعة يأتون فرادى ، وكنت ترى الواحد منهم يدخل الحجرة لينتقى مايليق به من ملابس ثم يستلمها دون ان يراه احد . وفى كل صباح كانت تأتى العربة التى كانت تحمل الملازم أول ابراهيم اسماعيل ، وكان يسكن فى « الخرنفش » ، الى حيث اسكن فى «الدراسة» ونذهب مع السائق الى ارض المعارض لنعمل او نحاول ان نعمل عملا رشيدا . وانا اقول ذلك لانه لم يكن كل ما عملناه يتفق مع الخطة التى وضعتها وتم الاتفاق عليها . كان حمزه البسيونى يفعل مايشاء ولا يبالى . لقد اغضب الجميع بتصرفاته بطريق مباشر احيانا او بطريق غير مباشر احيانا اخرى . لم يستثن واحدا . وكان العسكرى « المراسلة » موضع سخطه احيانا وفى لحظات تجده موضع رضاه . وقد رأيته يضرب هذا المراسلة بكل قواه ضربا مبرحا حتى بدأ يلهث ، وعلى الرغم من محاولاتى المديدة لمنعه من مواصلة الضرب رأفة به وبالمراسلة فانه كان يستمر ، ولكنه كبشر اصابه التعب الشديد فجلس ليستريح . ثم نادى بعد فترة على المراسلة واعطاه نقودا وتفضل عليه بأجازة ٤٨ ساعة ! وانا اذكر انه عندما قبض على بعض ضباط سلاح المدفعية فى خلال شهر يناير عام ١٩٥٣ ، طلب منى الصاغ حمزه ان يرافقنى الى حيث اقيم ، وركبت معه العربة التى ساقها بنفسه ثم فاجأنى بخبر القبض على هؤلاء الضباط وكان اغلبهم من الضباط الاحرار ثم ارانى مسدسا كان يحمله وصاح مهددا انه لن يسعه الا ان يفرغ رصاصات هذا المسدس فيمن يجرؤ على القبض عليه ! وكنت على الرغم من سابق معرفتى بالصاغ حمزه اقرب الى قلب كل من الملازم أول ابراهيم اسماعيل والملازم أول محمد عبده الشناوى . احببتهما حبا

انسانيا ووطنيا . وبخاصة عندما كانا او كان احدهما يقص على دوره فى ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وقد ذكر لى احدهم وكان متزوجا حديثا وانجب ابنة فى شهورها الاولى أنه بعد ان اتم مهمته جلس وحده واضعا رأسه بين كفيه وسرح فكره بعيدا فوجد نفسه وقد قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالاعدام ، وبدا له هذا المستقبل القاتم الخيالى وكأنه حقيقة ، فذكر ابنته الطفلة كما ذكر زوجته وذويه الاقربين وتساءل ما الذى كان يحدث لهم لو أن هذا كان حقيقة فعلا . وعندما غضب احد هذين الضابطين من تصرفات الصاغ حمزه التى مسه منها بعض الرشاش ذكر لى وكأنه يقلل من شأن الدور الذى قام به الاخير فى ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، انه بعد خروج سيارات النقل ذهب « يقصد الصاغ حمزه » الى الحجرة لينام وكأن ماحدث لم يحدث اى ليخفى ابة شبهة عن اشتراكه فى اى عمل من الاعمال التى كان عليه أن يقوم بها كأحد ضباط الاحرار . ولم يدر بخلد هذا الضابط ان الصاغ حمزه سوف يؤدى فى المستقبل القريب والبعيد ادوارا اخرى اعظم خطرا . ولم يدر بخلده ايضا أن هذا الرجل ذو شخصية سيكوباتية وان وقوع الاختيار عليه ليقوم بالادوار المستقبلية كان اختيارا موفقا . وكان من هذه الادوار كما حدث بعد ذلك أن يقوم الصاغ حمزه بادارة « السجن الحربى » واستقبال المعتقلين فيه من ذوى الرأى ومعاملتهم المعاملة التى لاتليق بآدمى . ولم أكن فى مصرنا الخالدة فى ذلك الحين ، فقد سافرت الى الولايات المتحدة فى خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ حتى آخر يوم من شهر مايو عام ١٩٥٦ لاكمال دراساتى العليا من أجل الحصول على

درجة الدكتوراه . ولكنى عندما عدت علمت من الكثير عما فعله حمزه البسيونى . كان اسم هذا الرجل على السنة الجميع ممن اعرف وممن لا اعرف . وقيل لى ان ما فعله لا يمكن لأحد ان يصفه ، واذا استطاع فان وصفه يحتاج الى مجلدات تنضح بالتعذيب والارهاب والمعاملة غير الانسانية . وانا اذكر اننى بطريق الصدفة عرفت رقم التليفون الخاص بحمزه البسيونى . وكنت ارفع السماعة واطلب الرقم ثم اضع السماعة توا ، وذلك لان ما سمعته جعلنى اتصور ان هذا الرجل قد اصبح وحشا كاسرا . وكان لهذا التصور اثر فى نفسى . لقد قابلت بعض من عذبهم ، وروى كل واحد منهم ماحدث له او حدث لرفاقه فى السجن الحربى . لم أكن أدهش فانا اعرف الرجل ، اى اننى اعرف شذوذه العقلى والنفسى . ولكنى كنت كمصرى فى ضوء ثقافتى المصرية انفر واحزن حزنا شديدا . وعولت على الاتصال به . واتصلت به فعلا تليفونيا ، وبدا ظرفه وهو يتحدث معى ووافق على مقابلتى فى السجن الحربى وحددنا الموعد للقاء ، وذهبت فى الموعد المحدد . كان الدافع الى مقابلته ان أراه وان اتحدث معه فقط ، وان أذكره بالايام الماضية لعلى ان اعلم عن شخصيته اكثر . واننى انتظرت امام باب السجن الحربى قبل أن يفتح اكثر من نصف ساعة . وكانت الشمس تتأهب للغروب . وكان الزمن خريفا فى عام ١٩٦٠ بعد عودتى من الولايات المتحدة بسنوات . وفجأة فتح الباب وقادنى احد العساكر الى مكتب حمزه البسيونى . ووجدته جالسا على اريكة وكانت جثته قد تضخمت كثيرا ، وبدا لى وكأنه احد القراصنة فقد كان يغلق احدى عينيه ويفتح الاخرى . وتأكدت منذ اللحظة التى وقفت فيها على باب السجن من اننى كنت مراقبا ،

وقام ليسلم على وطلب لى فنجانا من الشاى . وعندما جلست وجدتنى انظر الى حوائط الحجرة فاذا عليها صورة « جمال عبد الناصر » وصورة « عبد الحكيم عامر » ولافتات فيها بعض العبارات الشائعة . ولم يخل حائط من لافتة مكتوب عليها عبارة مثل « يارب استر » و « سترك يارب » و « الستر ياكريم » . وفى اثناء تعاطى الشاى وقبل ذلك كنا نتحدث سويا . وقد بدات الحديث ، اولا ذاكرا له عن احوالى وماذا اعمل فى الوقت الحاضر . وماذا كنت اعمل فى الفترة التى تركت فيها مصرنا الخالدة . وبدا يتحدث حمزه البسيونى عندما سألته عن زواجه من السيدة « المتزوجة » التى كان يرغب فى زواجها اذا ماطلقت . فقال انه تزوجها فعلا ولكنه بعد فترة طلقها . واكد لى انه لا يتعاطى خمرا او مخدرات من نوع ما . واكد لى ايضا انه لايذهب الى مسرح او الى سينما . وصرح بانه مثل المعتقلين فى السجن فهو فى حقيقة الامر معتقل ايضا ، واراني سريرا حجرة جانبية وذكر انه لا يبرح السرير الا اذا كان هناك عمل يقتضى وجوده فى مكان آخر . وقال مؤكدا ان مافعله لايلام عليه فانه ان لم يكن قد فعله كان غيره بالضرورة قد فعله . وسرعان ما قلت له اذن فانت الآن تستطيع ان تنام دون ماقلق . فأكد على صحة قولى . وكان هذا التأكيد يؤكد على انه شخص ذو شخصية سيكوباتية يبرر كل تصرفاته ولا يندم على اى منها فالقيم اية قيم لا تقف حائلا فى سبيل اى عمل يقوم به ولعل من يتاح له فرصة الاطلاع على ملف خدمة هذا الطاغية ان يجد الكثير الكثير مما يبرر هذا الوصف . وهو كشخص سيكوباتى تراه كريما ذا ابتسامة جذابة . ومكثت معه منذ الساعة السابعة مساء حتى الساعة العاشرة مساء ،

وكنت فى اثناء هذه الفترة الطويلة تحت المراقبة . كان باب الغرفة التى نجلس فيها « مواربا » وكان جندى يحمل السلاح يمر عليها بين لحظة واخرى . وفى اثناء هـذه الفترة كنت احاول ان استأذن فكان يلح على بالجلوس ويطلب مشروبا آخر . وقد تعاطيت بعد الشاى فنجانا من القرفة ، ومرة ثانية فنجانا من الشاى . وبدا لى كما اذكر ان وجودى معه ذكره بالماضى الذى لم يكن ابيض ناصعا ولكنه افضل من الحاضر الاسود وان كان يبرر عوامل هذا السواد . وكان يتحدث عن عبد الحكيم عامر بقوله « الراجل الكبير » . وعندما ذكرت له عن عوامل عدم تركه الجيش مثل العديد غيره من الضباط الاحرار قال وكأنه يفتخر صائحا : لقد طلب منى ترك الجيش وانا رفضت ، لاننى افضل العمل بالجيش عن اى عمـل آخر . وكان عندما زرته قد وصل الى « رتبة اللواء » . ولم يعلم هذا الرجل ابدا ان الاختيار وقع عليه لانه خير من يقوم بأعمال الارهاب والعنف والتعذيب ومعـــاملة الشرفاء معاملة غير انسانية . انه فى ضوء تاريخه الذى اعرفه ، وكان هذا الذى اعرفه قليلا جدا ، وفى ضـوء مراقفه التى ذكرت بعضها بالتفصيل قبل ذلك ، كـل ذلك وغيره يؤكد عبقرية من وقع اختياره عليه ليكتب لنفسه صفحة قاتمة مع الذين قاموا بمثل اعماله سواء كانوا من المصريين او من غير المصريين . ان مآل هـذا الرجل والآخرين امثاله « زبالة التاريخ » حتما . ولعله ان يكون عبرة لغيره .

وانا اذكر فى عام ١٩٦٤ فى شهر يناير على الارجح اننى كنت فى مدينة « نيش » بجمهورية يوغسلافيا . كنت ازور سجنها المشهور ، ومكثت اياما ، وفى اثنائها زرت « برج الجماجم الادمية » الذى شيده « خورشيد

باشا » « لعله ان يكون هو نفس أحمد خورشيد باشا الذي كان واليا على مصر حتى عام ١٨٠٥ بعد أن خلعه المصريون وولوا محمد على » القائد التركي في عام ١٨٠٩ . شيده من جماجم المصريين الاحرار الذين قاتلوه كمغتصب في سبيل استقلال وطنهم . قاد الزعيم الثائر « ستيفان سنجاليتش » جنوده المصريين ضد الاتراك المستعمرين . وكان عدد الجنود المصريين ثلاثة آلاف مقاتل . وكانوا يقاتلون حوالي ١٨٠٠٠ من الجنود الاتراك بزعامة خورشيد باشا . واستغرق القتال نحو اثنتي عشرة ساعة مات الصربيون في خلاله ماعدا ستيفان سنجاليتش وحوالي خمسين مقاتلا صربيا . ولم يستسلم الاخيرون . بل واصلوا القتال حتى قتلوا جميعا ومات معهم حوالي مائتين من الجنود الاتراك . وقد ضرب الصربيون الثائرون مثلا وطنيا رائعا جعل خورشيد يفكر ويقدر . وعرف أن خصومه لا يخشون الموت . فالموت عندهم أصل الحياة . واذا هان الموت وهبت الحياة . وكان خورشيد انانيا لانه كان طاغية لم يذكر الا نفسه وكرامته وهيبته . وكل هذه ترهات لايأبه بها الزمن . ولا يعترف بها الا الاغبياء . فماذا فعل هذا الاناني الطاغية ؟ اتخذ من الطاغية « تيمورلنك » مثالا يحتذى . الم يبن تيمورلنك سورا من جماجم أعدائه ليرهبهم ؟ فليفعل هو ذلك . وليتمسك بهذا السلاح الواهي . وكان ماكان . وقد بنى هذا البرج في عام ١٨٠٩ ، وتبلغ مساحته اربعة اقدام مربعة وارتفاعه خمسة اقدام . بنى هذا البرج وكانت أدوات البناء الرئيسية ٩٥٢ من الرءوس الادمية وبعض الطين والحجارة . ولعل هذا المعتوه ان شفى غليله . ولعل هذا الاناني الطاغية ان تصور ان هذه هي نهاية الاحرار . ومن

يذهب الى مدينة نيش يجد هذا الاثر قائما . ولعل من يذهب الان يجـــد ٦٢ من الرءوس الادمية فقط . فالحائط الشرقى للبرج قد تحطمت جماجمه بســـبب الرياح الشرقية . ومن يذهب الان الى مدينة نيش يجد ابناء الضحايا او ابناء ابنائهم يعيشون حيـاة الاشراف المستقلين ، يبنون حضارتهم من البانين من ابناء جمهورية يوغسلافيا . ومن يذهب الآن الى مدينة نيش يجـد حتما اللعنة الابدية التى اختارها خورشيد لنفســه . تصب جامها ، بكل اللغات على ام رأس هذا الملعون .

ولا اخفى على القارىء شيئا فقد زرت هـــذا الاثر ثلاث مرات . ولم اكن اتصور عندما سمعت عن وجوده أن ترى عيناى ما رأتا . ما اشنع مارايت فى كل مرة . فلم تكن الجماجم كلها فى هذا البرج الذى بنـاه الملعون سليمة . فقد تركت عوامل التعرية ، بمرور الوقت ، بصماتها عليها . فترى بعض هذه الجماجم قد تهشـم وتحطم او كاد .. لم يبق منه سوى ماكان يمكن أن يكون العيون او الجباه أو الانوف او الافواه . ومع ذلك فقد ترى بعض هذه الجماجم سليما . يكاد ان ينطق بألوان العذاب التى لاقاها اصحابها . وآه من فتحات الافواه فى هذه الجماجم . وآثار تقلصات الشفاه ألتى مـات اصحابها عليها . وآه من بقايا الصرخات التى كانت . وآه من سمات الهلع التى تبدو . وآه مما كانت تقول للرائى .

وفى كل مرة كنت ازور برج الجماجم الادمية عندما كنت فى مدينة نيش فى جمهورية يوغسلافيا ، كنت اتذكر حمزه البسيونى . او فى الواقع كنت اتذكر من كانوا يستعملونه . وكنت اردد صامتا أبيات الشعر التى

قالها الشاعر الفرنسى « لامارتين » عندما زار هذا البرج فى عام ١٨٣٣ وتتضمن :

« فليحتفظ الشعب الصربى بهذا الاثر .. انه سيعلم اطفالهم القيمة التى تتضمن استقلال شعب .. وانه سيريهم فداحة الثمن الذى دفعه آباؤهم فى سبيل هذا الاستقلال » .

وهاهو ذا الشعب الصربى العظيم قد اصبح يملك زمام أمره على الرغم من الاتراك ، وخورشيد واحد منهم ، وعلى الرغم من « هتلر » وزمرته من الفاشيين وغيرهم وعلى الرغم من التجارب الرهيبة التى عاش بلاياها واهوالها فما جدوى الاستبداد والظلم اذن ؟ ما جدوى ارهاب حمزه البسيونى وتعذيبه ومن حذا حذوه اذن ؟ الا يبدو استبداد هؤلاء الطغاة ، ومن يستعملونهم ، بالناس وظلمهم اياهم وارهابهم وتعذيبهم ليست كلها ، على الرغم مما يبدو من بعضها من شر ، شرا مطلقا . ان المواقف وحدها هى التى تقرر الشر وهى التى تقرر الخير . ان مايبدو خيرا فى موقف معين هو الشر بعينه فى موقف آخر . والعكس صحيح . ان ماقصده حمزه البسيونى والذين كانوا يستعملونه كان شرا مطلقا مافى ذلك من شك . ولكنه ومن كانوا من ورائه كانوا فى ضلال . والتاريخ وحده هو الحكم والشعب المصرى العظيم سيبقى ابد الدهر عظيما .

وفى اثناء وجودى فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء حدثت احداث كثيرة هزت ثقة العديد من المصريين المتفائلين . كانوا وانا منهم يتوقعون اجراء الانتخابات فى شهر فبراير عام ١٩٥٣ ، ولكن الشعب المصرى

فوجىء فى يوم ١٠ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٢ بقيام « مجلس الثورة » بالغاء دستور عام ١٩٢٣ . وفى يوم ١٧ من شهر يناير عام ١٩٥٣ اعلن هذا المجلس عن فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات وعلى ان تؤجل الانتخابات البرلمانية حتى انتهاء هذه الفترة . وفى الوقت ذاته تقرر حل الاحزاب والهيئات السياسية ومصادرة أموالها فيما عدا « جمعية الاخوان المسلمين » باعتبارها منظمة دينية خاصة . وفى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ اعلن الدستور المؤقت لفترة الانتقال والذى سيحل محل دستور عام ١٩٢٣ . واعطى هذا الدستور سلطة السيادة لقائد الثورة فى مجلس قيادة الثورة « كقيادة جماعية » وبصفة خاصه التدابير التى يراها ضرورية لحماية الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافها . واصبح لمجلس الوزراء الحق فى ممارسة السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية . واما رسم السياسة العامة للدولة فيقوم به مؤتمر مشترك ينعقد من اعضاء مجلس قيادة الثورة واعضاء مجلس الوزراء . وقد اعلن فى الوقت نفسه عن قيام « هيئة التحرير » كتنظيم سياسى ليشغل الفراغ الذى سينتج عن حل الاحزاب فى خلال فترة الانتقال .

احداث كثيرة سريعة لم يكن يتوقعها الكثير وان كانت قد دلت على ماكان يهدف اليه من قاموا بحركة الجيش التى ولدت ماسمى ب « مجلس الثورة » عندما اعلن ان هذه الحركة ان هى الا ثورة . وقد كان تأثير كل ذلك على كمواطن يرنو الى حرية اهل بلده الذين عاشوا فى ظل الحكم الاجنبى منذ « قمبيز » اى منذ عام ٥٢٥ق.م .

حتى قيام محمد نجيب بأعباء الرئاسة كمصرى لاول مرة كان التأثير عنيفا حقا . ولكن الامل فى المستقبل المشرق لبلادى ظل يداعب خيالى ، وبخاصة عندما اعلن مجلس قيادة الثورة الغاء النظام الملكى وقيام الجمهورية بدلا منه فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ . لقد سمعت هذا الاعلان فى الاذاعة وكان يعلنه « الاستاذ يوسف وهبى » بصوته الجهورى . ولم البث ان تذكرت « رفاعة الطهطاوى » الذى كان فى باريس وقت قيام ثورة عام ١٨٣٠ وعزل فيها الملك « شارل العاشر » ، وتذكرت ايضا موقفه منها ، كما تذكرت قوله :

« ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : ان ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع ! »

وعلى الرغم من عواطفى ومشاعرى وآلامى وآمالى وما وقفت ضد الاخيرة من حوادث وحادثات ، فاننى لم اكن اتوانى عن الذهاب الى دروس المعهد البريطانى ، وبخاصة بعد ان وضح امامى ماكان غامضا على من قبل. بل بعد ان وضح امام جماهير مصرنا الخالدة ماكان غامضا عليهم من قبل ، فقد برز اسم « جمال عبد الناصر » واصبح بعد اعلان الجمهورية اسما لامعا . وعندما اعلنت الجمهورية اعيد تشكيل الوزارة وقبل رئاستها « الرئيس محمد نجيب » واصبح جمال عبد الناصر الذى كان مجرد مدير مكتبه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة « قرار مجلس قيادة الثورة فى يوم ١٩ من شهر مايو عام ١٩٥٣ » ، كما اصبح « الصاغ » عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة مع منحه رتبة اللواء وذلك بدلا من محمد نجيب الذى رئى أن يكتفى برئاسة الجمهورية

والوزارة مع رئاسة مجلس قيادة الثورة ! وقد عين جمال عبد الناصر فى الوزارة المشكلة بعد اعلان الجمهورية وزيرا للداخلية . ورايت الاستاذ احمد فؤاد قد اختفى من مبنى رئاسة مجلس الوزراء ليكون مديرا لمكتب وزير الداخلية . وقد تولى الصاغ ابراهيم الطحاوى واليوزباشى أحمد طعيمة ادارة هيئة التحرير ، وقد ضم اليها الملازم محمد عبده الشناوى الذى كثيرا ما دعانى الى زيارة ادارتها ولكنى لم افعل ذلك .

كنت اذهب الى الدروس مساء وكان قلبى مفتوحا وبخاصة بعد ان تسلمت الكتب التى شحنتها فى ميناء مرسيليا ، عن طريق « شركة كوك » من جمارك الاسكندرية دون اية عوائق . كنت سعيد الحظ فعلا . فاننى عندما كنت ارتبها فى الحقائب وانا فى لندن معتزما العودة الى القاهرة ، لم اكن اعرف بل لم اكن اتوقع قيام حركة الجيش التى اصبحت ثورة ٢٣ يوليو فيما بعد . كنت فى ذلك الحين كما يذكر القارىء فى يوم ١٨ من شهر يوليو على التحديد فى ميناء « الدوفر » بانجلترا وانا فى طريقى الى باريس ثم الى مرسيليا ... الخ . وكنت سعيد الحظ لان حركة الجيش التى قامت فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ كما اطاحت بالملك فاروق اطاحت ايضا بالرقابة على الكتب فى الجمارك . وما اسعدنى عندما تسلمت تصريح الخروج من « بوابة » الجمارك وانا اركب « عربة الحانطور » الى محطة السكة الحديد لكى الحق بالقطار الذاهب الى مدينة القاهرة الحبيبة . كنت وانا احتضن الحقائب وكأننى احتضن متعات الدنيا المعنوية كلها . كانت كتبى

دنياى وحياتى المعنوية والبوصلة التى ارشدتنى الى الطريق الاقوم والتى فى ضوء التجارب والخبرات كنت ارجو ان تظل كذلك . وبالاضافة الى كل ذلك فاننى فى اوائل عام ١٩٥٣ سارعت الى كتابة طلب خاص بمنحة دراسية الى الولايات المتحدة لمدة عام واحد . وكان من شروط الحصول على هذه المنحة النجاح فى امتحـــان اللغة الانجليزية ثم مقابلة لجنة مكونة من امريـــكيين ومصريين تطبق نوعا من الاختبار على كل طالب . ومقابلة هذه اللجنة مشروطة بنجاح الطالب فى امتحان اللغـــة الانجليزية . وكان شهر يونيو عام ١٩٥٣ شهرا مليئـا بالامتحانات عندى . فانا فى خـــلاله جلســـت الى امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية : جامعة لندن » وجلست ايضا امام لجنة المنحة بعد نجاحى فى امتحان اللغة الانجليزية بتفوق . ولم البث ان عرفت رســميا باننى حصلت على المنحة الدراسية وكان ذلك فى أواخر شهر يونيو عام ١٩٥٣ . وكنت انتظر نتيجة امتحـــان الدبلوم وانا جد متفائل . وظهر امامى فى ذلك الحين مخرج لازماتى النفسية التى عانيت منها وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء وفى ارض المعارض بالجزيرة فى اثناء حملة معونة الشتاء التى انتهت بمجرد انتهاء فصل الشتاء وتسليم المشروع الى وزارة الشئون الاجتماعية . وبعد ان لاحظت اننى اصبحت وحدى أقوم بالعمل مع الصاغ مجدى كلما دعت الضرورة الى ذلك وبخاصة بعد ان اودعت المبالغ المجمرعة على ذمة هذا المشروع فى بنك مصر باسم الرئيس محمد نجيب بعد ان تكونت لجنـــة خاصة للقيام بعملية التسليم والتسلم ، وبعد ان سلمت

عهدتى ومفاتيح الخزانة الى الصاغ مجدى .

وحصولى على المنحة الدراسية جلب الى وجع دماغى عدت الى حيرتى التى تجىء وتذهب كلما بان فى الافــق مايبسر سفرى الى الخارج لكى اكمل دراساتى العالية . اسرتى الصغيرة كانت اول ما فكرت فى مصيرها عنــد غيابى . احمد اصبح فى التاسعة عشرة من عمره وبدأ دراسته الجامعية وآمال قد بلغت سن السادسة عشرة وسمير اصبح فى سن الرابعة عشرة وتيسير قد بلغت سن الثانية عشرة ومسعد قد بلغ سن العاشرة ومعهم زوجتى الشابة والجميع يعيشون فى شقة متواضــعة فى حى الدراسة . ان ابنائى كانوا فى عمر الزهور . انهم فى مسيس الحاجة الى الرعاية والعناية . ان دورى كأب يحتم على ان امارس ابوتى ، وان من حقهم على ان اكون بجانبهم لكى يشعروا بالامن والامان . ان من حق زوجتى ايضا ان لا اتركها وهى فى عنفوان شبابها . لقد بلغت سنها الاربعين او كادت . سن خطير مافى ذلك من شك . اما انا اذا ماسافرت فاننى سأواجه المجهول وما اصعب هذه المواجهة . صحيح أننى جربت ذلك من قبل ، وان تجربتى قد زودتنى بالكثير مما يجعلنى فى حصن حصين من المغريات . ولم تكن تجــربتى فى السفر وحــدها بل كانت كل تجاربى وبخاصة بعد ان مات ابى فى يوم ١٨ من يناير عام ١٩٣٠ . اى منذ حوالى ٢٣ عاما او يزيد . كل ذلك كان قد اضفى على الكثير من الثقة فى نفسى والتعود على مواجهة الحياة بحلوها ومرها وحــدى . ودراساتى الاكاديمية فى لندن وفى المعهد البريطانى فى القاهرة وقبل ذلك فى مدرسة الخدمة الاجتماعية واعمالى التطبيقية فى ميدان الاحداث الجانحين حيث اتيحــت لى الفرصة لكى اطبق طريقتى فى خدمة الجماعة وخدمة

الفرد فضلا عن البحث العلمى الاجتماعى – كل ذلك قد صاغ شخصيتى لكى تعرف اكثر وتفهم ما يواجهها فهما موضوعيا . ان بصمات اساتذتى منذ الفترة التى كنت اجلس بين يدى الامام الشيخ محمود خطاب ثم بعد ذلك الفترة التى عملت فيها تحت رئاسة السيده الز ثابت والاستاذ يعقوب فام ، ثم فى لندن فى اثناء جلساتى مع استاذى البروفسور جون لويس سواء كانت فى قاعة المحاضرات او فى محل اقامتى ، وجلساتى مع الاستاذ ترى نيومان فى منزله ومع اصدقائه المثقفين من الشباب . كانت هذه البصمات ، ومازالت ، محفورة فى محددات شخصيتى الثقافية الاجتماعية . وخبراتى العديدة منذ ان عدت الى القاهرة أواجه ثورة يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، بل وأسهم فى بعض نشاطاتها ، اضافت الكثير ، على الرغم من قصر المدة ، الى الخبرات السابقة . وخرجت من كل ذلك بنتيجة واحدة هى انه مازال ينقصنى الكثير ، وان اكمال دراساتى العالية قد اصبح ضرورة . وبدأت اعيش احلامى من جديد . واعتذرت لنفسى ولابنائى ولزوجتى فانا لا ابغى الا ان اتعلم لكى اعلم ، والاباء والازواج فى كل مكان يجندون من اجل اهداف لا انسانية يجد فى تحقيقها تجار الحروب وانا قد جندت نفسى لكى اعمل عملا صالحا من اجل مصرنا الخالدة . من اجل ابنائها كلهم وبخاصة ابناء الثورة الجديدة . اننى كنت ارتعد خوفا وهلعا من مصيرهم . ان كل ماحدث حتى لحظة مغادرتى البلاد فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ كان صراعا على السلطة فى الاغلب الاعم . ان ممارسة الديمقراطية الحقة قد عطلت وكان هذا امرا يحزننى حقا : ان العنصر البشرى فى شخص اطفال المجتمع لم يلتفت اليه . والامية لم يبدأ

مسئول فى التفكير فى مواجهتها وكفاحها . ومع ذلك فقد كان الامل ان يتغير ذلك الى الافضل بعد ان يعيش اعضاء المجتمع حياة اكثر استقرارا فى ظل ايديولوجية واضحة المعالم والاهداف . كان املى ان يحدث ذلك وانا أؤهل نفسى فى الخارج حتى اذا ماعدت كانت واجباتى نحو الوطن المفدى اكثر وضوحا . وقررت قبول المنحة الدراسية والسفر من اجلها الى الولايات المتحدة . ولكن العقبات بدأت تقف فى سبيل هذا السفر من كل جانب . وكان اصرارى اقوى من كل العقبات . لم تقف اسرتى الصغيرة عقبة فى سبيل هذا السفر ، بل على العكس وافقت زوجتى كما وافق ابنى أحمد وابنتى آمال على سفرى . ولعلهم أن فعلوا ذلك لانهم لم يجدوا سبيلا آخر الى غيره . كانت مشكلتى الحقيقية ان توافق الوزارة التى اتبع لها على منحى اجازة لمدة عام بمرتب اتركه لاسرتى لتنفق منه ، اما انا فيكفينى مرتب المنحة الشهرى وكان قدره ١٥٠ دولارا . وكان املى فى موافقة الوزارة املا كبيرا فالوزير الحالى كان الدكتور عباس عمار ، وكانت صلتى به صلة طيبة . وكنت أعرف عنه انه كان رجلا مكافحا ، وانا مثله رجل مكافح فلعله ان يتعاطف مع قضيتى . كان هذا املى . فبادرت الى طلب مقابلته وكانت معى مذكرة اعددتها خصيصا عن الموضوع بالتفصيل . وما كان عليه الا ان يتفضل بالموافقة على منحى الاجازة لمدة عام بمرتب . وحدد موعد المقابلة بسرعة وكان الوزير يتوقع حضورى . وماكدت ان اصافح سكرتيره الخاص واسمع ماقاله لى الا وتوجست خيفة . قال لى السكرتير وكان الزميل الاستاذ منير القصبى : « انت فين ياعريس . الوزير قالب الدنيا علشانك . وبينى وبينك هو زعلان قوى منك » . وقد فاجأنى قول هذا

الرجل الطيب الذى اعرف عنه ممارسة التصوف وعلاقاته الوثيقة باحدى الطرق الصوفية المنتشرة فى المجتمع المصرى . ولكنى باسم الله جل وعلا دخلت الى حضرة الوزير . ولم يكن متجهما ولكنه بعد ان طلب منى الجلوس اخذ يعيرنى بأننى « اجرى وراء الضباط » فى الوقت الذى تحتاجنى ادارة الاحداث بمصلحة الخدمات . ولم أكن افعل مما قاله شيئا . فانا لم اذهب الى مبنى قيادة الوزارة الا باذن المسئولين فى المصلحة . وانا لم الهث وراء احد . وانا فعلت مافعلت محاولة منى للخدمة العامة فى حدود قدراتى . وبفضل الله فعلت الكثير من احل العديد من المراطنات والمواطنين . وقلت لعباس عمار كل ذلك . ولكنه فى محاولة لكى يقنعنى طلب منى أن اؤجل قبول المنحة عاما واحدا ثم اسافر بعد ذلك . وعندماذكرته سنى فقد كنت فى الاربعين من عمرى وهذه فرصتى ، كتب على المذكرة التى قدمتها اليه « تاشيرة » لم يرفض فيها طلبى ولم يقبله تاركا الامر للسيد مدير مصلحة الخدمات الاستاذ محمد حسن صاحب كتاب «الامتحانات العامة » الذى تحدثت عنه سابقا والذى جلب له الشهرة فى محيط طلبة المدارس الثانوية وبخاصة الذين كانوا يجلسون الى امتحانات « شهادة الكفاءة وشهادة البكالوريا » . وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت الى محمد حسن فى مكتبه وكان يجلس معه الزميل « بدراوى محمد فهمى » والاستاذ « شميس » لاعب كرة القدم المعتزل . وما ان رآنى افتح الباب اذا به يقفز من على كرسيه مرحبا بى ومحييا ، وكنت احمل « شنطة » فيها بعض الاوراق الهامة آمننى على حفظها الصاغ مجدى ، ودهشت لما فعله المدير ، وأسوة بما فعل رحب بى الجالسان معه ترحيبا حارا . وذكرت له امر مقابلتى

للوزير وقدمت له المذكرة وعليها « التأشيرة » فاذا به يسارع الى آلة التليفون وتحدث مع الوزير بشـــأن مضمون المذكرة . ولم اسمع ماقاله له الوزير ، ولكن محمد حسن سرعان ماتجهم وجهه وتغيرت سحنته وقال لى آمرا : اذهب يافندى وروح على مكتبك ولا تذهب الى مجلس الوزراء .. هذا امر . فذكرت له دون ان ابدو منفعلا للتغيير المفاجىء الذى حدث للرجل الذى قام من على كرسيه واستقبلنى مرحبا وأنا على وشك الدخول من باب حجرته امام الشخصين اللذين كانا معه ، ثم صدور الامر الاخير من نفس هذا الرجل بعد دقائق بمجرد ان انتهى حديثه التليفونى مع عباس عمار الوزير ـ ذكرت له ان هذا الامر لن ينفذ لسبب بسيط هو اننى احمل فى شنطتى التى احملها فى يدى اوراقا هامة ولابد لى من تسليمها . وتركت الحجرة وانصرفت . وخرجت من مبنى المجمع حيث تقع حجرة مدير مصلحة الخدمات الى « كوبرى قصر النيل » لاستوعب ماحدث وافـكر فيما يجب على ان افعله . تماما كما فعلت ذلك ذات مرة وانا فى مصلحة الحدود فى شهر مايو عام ١٩٣٧ اى منذ حوالى ستة عشر عاما . وقفت فى المرتين امام الكوبرى المذكور استنشق الهواء المنعش الذى يحيط به لعلنى ان اهتدى الى مخرج . ولم اجد هذا المخرج فى المرة الثانية الا ان اذهب الى الصاغ مجدى واذكر له ماحدث بالتمام والكمال . فكان كريما وانسانا فاضلا حقـا . ذكر لى ان محمد حسن وامثاله ماهم الا جثثا محنطـة وقد آن الاوان للتخلص منها . وذكر لى ايضا ان عباس عمار كتب له مرات من أجل عودتى الى المصلحة ولـكنه كان يرمى فى كل مرة الخطاب المرسل اليه فى ســلة المهملات . وذكر لى كذلك انه قال له ذات مرة اننى كنت

اعمل فى مؤسسة الزفاف الملكى وكان يقصد بهـــذه المعلومة الوقيعة بينى وبين النظام الجديد ، اى ان عباس عمار كان يريد ان يقول اننى كنت من اهل الحظوة فى السراى الملكية وان ولائى كان ولايزال للملك المخلوع . ولكنه اى الصاغ مجدى لم يابه لما قاله عباس عمـــار الوزير الى الدرجة انه لم يسالنى عن هذه المعـلومة . عندما سمعها لاول مرة ، شيئا . وكانت دهشتى كبيرة حقا لما سمعت عن محاولة عباس عمار الوقيعـة بهـذا الاسلوب الدنىء . ان عباس عمار فى خـلال فترة من الزمان انتدب عميدا لمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وكان يدعى وهو وزير انه جاء الى الوزارة لكى يحقق احلامه فى غرس مهنة الخدمة الاجتماعية وحماية العاملين فى ميادينها . وكان يعلم هذا الرجل ماهى « مؤسسة الزفاف الملكى » نزلاؤها واهدافها والمسئوليات الضخمة التى كانت على عاتقى لكى اجعل وزملائى منهـا البيئة الصالحة لكى تيسر تكوين او اعادة تكوين شخصـيات نزلائها ، وهم احداث جانحون ، لكى يصبحوا مواطنين صالحين . كان عباس عمار يعلم كل ذلك حق العلم ، وكان عندما يزور المؤسسة يسدى آيات التشجيع لى ولزملائى وقد زار المؤسسة اكثر من مرة . ولـكنه الإنسان الذى لا يرى الا مصلحته وفى سبيل تحقيقها يتخذ من الاساليب مايروق له . وقد اتخذ عباس عمار الاساليب الملتوية دون مادداع فى سبيل تحقيق مآربه فى شخصى . ولكن اذا كان الله معنا فمن علينا ؟

وقد طيب الصاغ مجدى خاطرى وحاول ان يثنينى عن السفر ولكنى ذكرت له تصميمى وبينت له أسـباب هذا التصميم ومن اهمها مابلغت من العمـر وسفرى فى الوقت الراهن هو فرصتى . واقتنع الرجل وطلب منى

ان اعد مع الاستاذ « عبد الرحمن ابو العينين » مدير ادارة المستخدمين فى مجلس الوزراء فى ذلك الحين المكاتبات اللازمة لاستخراج « جواز السفر » والموافقة على السفر الى الخارج . وتم كل ذلك وامضى على المكاتبات المعدة . وسارعت الى ادارة « الجوازات » وتم المراد فى فترة قصيرة جدا ، فالاوراق كانت قد خرجت من ادارة مستخدمى مجلس الوزراء والذى امضى عليها كان الصاغ مجدى حسنين . وكان فى ذلك الوقت علما مشهورا . وفى جيبى وضعت الجواز منتظرا تحديد موعد السفر الذى حدد فعلا فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ وتركت الماضى باكمله ورائى ونظرت الى الامام . الى المستقبل المجهول . مسلحا بالايمان هادفا الى تحصيل المعرفة والمزيد منها محققا بذلك امل ابى وامل امى واملى . لم اهتز عندما رايت بدراوى محمد فهمى فى الشارع وذهبت اليه بقلبى المفتوح فأدار لى ظهره . ولم اذكر لاحد ماذا فعلت او ماذا انا فاعل . وعندما حدد الموعد اخبرت زوجتى وابنائى ، وصحبنى يوم السفر احمد وآمال وكان معهما زميلان ابلغتهما بالموعد قبل يومين فأبديا استعدادهما لمصاحبتى . كانا الزميل حمدى مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . وفى الموعد سافرت ولم يعلم الوزير او مدير مصلحة الخدمات او غيرهما عن هذا السفر شيئا . ولكنى وقبل ان اركب الطائرة كنت قد اعددت خطابا للوزير ادعوه فيه مرة اخرى الى الموافقة على منحى اجازة لمدة عام بمرتب او حتى بدون مرتب ويبدو انه علم بالسفر عندما كنت فى طريقى الى الولايات المتحدة او ربما عندما وصلت اليها فعلا . وقيل لى بعد ذلك انه ثار وانتظر حتى مرت خمسة

عشر يوما واعتبرني اخذت اجازة بدون اذن ورفتني من وظيفتي الحكومية . ونشر الخبر في جرائد القاهرة ولم يذكر اسمي وان ذكرت مخالفتي وهي اخذى اجازة أكثر من خمسة عشر يوما بدون اذن . ولعل عباس عمار بما فعله ضدى نسي ان لي اسرة كانت تقتات من مرتبي ولم يذكر الا انه كان وزيرا .

السفـر للخـارج مـرة ثـالثـة لطلـب العلـم

(الولايات المتحدة الامريكية)

وفى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ذهبت الى المطار ، وكان بصحبتى العزيز احمد والعزيزة آمال . ركبنا العربة سويا واصر على الذهاب معنـا الزميـل حمدى مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . كنت انظر الى امام واحسست بأننى ابتدىء حياة جديدة . وكنت قد اطمأننت على اسرتى الصغيرة فقد كفلت السيدة الزا ثابت مصاريفها عن ثلاثة شهور قادمة .. ولم تكن معونة السيدة الزا مادية فحسب بل كانت ايضا معنوية، شملتنى كما شملت اعضاء اسرتى . وفجاة اذا بى فى المطار امام الطائرة التى ستقلنى الى « مدينة بيروت » . ولم احس بما حولى ولا بمن حولى . لم اكن ارى شـيئا سوى الطائرة . ودفعت بخطاب ارسلته الى عباس عمار الوزير فى صندوق بريد المطـار . وسلمت على ولدى وعلى الزميلين . واذا بى أجدنى جالسا على أحد المقاعد فى الطائرة . كانت طائرة ، كما اذكر ، صغيرة الحجم ، وكان ركابها قليلين . وهأنذا اترك مدينة القاهرة الحبيبة وما فيها ومن فيها . وعشت مع افكارى وآمـالى واهدافى . وكنت فى حقيقة الامر اواجه المجهول . وكم تعبت فى الماضى من مواجهة هذا المجهول . ولكنى كنت متفائلا . فأبى قبل ان يفارق الحياة بلحظات ذكرنى ، وأمى قبل ان تموت بلحظات كانت تدعو لى الدعـوات الحانية . واذ اذكر حالتى التى كنت عليها وانا اكتب هذه السطور اذكر اننى كنت مدفوعا بيد خفية الى

مصيري وقدري . لم اكن افكر بعقلى لأن كل تصرفاتى .
كما ذكر لى بعض الزملاء فيما بعد ، كانت لا تمت الى
منطق سليم ابدا . كنت اعيش فى الحقيقة لا مع افكارى
وآمالى واهدافى فى ضوء التفكير الموضوعى وانما كنت
اعيش معها تدفعنى اليها قوة اكبر من عقلى . ولم اكن
ادرى ، كما اذكر الآن ، ماهية هذه القوة او مصدرها .
كنت فى ذلك الحين اقول تبريرا لتصرفاتى اننى احاول
تحقيق امنية ابى وامى . وكان هذا يكفينى لكى اسير
على الدرب لعلنى اصل . وبدا لى اننى لم اكن ابدو
على مستوى الشخص الذى يتوقع وجود سماته الآخرون.
فقد فوجئت عندما سألت أحدى مضيفات الطائرة بعد
ان استقرت فى مطار مدينة بيروت عن عنوان الفندق
الذى سأبيت فيه ليلة واحدة لألحق بالطائرة الذاهبة
الى « مدينة نيويورك » فى صباح اليوم التالى ، بأن
قسمات وجهها قد تغيرت فجأة وان عينيها اخذت تنظر
الى من أعلى الى اسفل وكأنها كانت تستنكر على ان
اكون احد نزلاء فندق من الدرجة الاولى « الممتازة »
وانا فى ملابس مثل ملابسى واحمل حقيبة مثل الحقيبة
التى كنت احملها . اننى لا اذكر اسم هذا الفندق
الآن ، ولعله وانا اكتب هذه السطور قد اصبح
خرابا بعد كل ما حدث لمدينة بيروت من دمار وماحدث
لساكنيها واهليها من مذابح وحشية وتشريد وضياع .
لم تكن تعلم هذه المضيفة اننى لم ادفع دانقا لكى أنزل
فى هذا الفندق ، ولعلها كانت تعلم ذلك ولكنها أبت ان
تصدق ان شخصا مثلى يكون من حظه ان يعيش مع علية
القوم القادرين تحت سقف واحد !! كانت لا تعلم عنى
شيئا وانما لفت نظرها مظهرى اى ما البس وما احمل
من حقائب . ولعلها كانت فى سريرتها تغبطنى أو تحسدنى

او كانت تقول « يدى الحلق للى بلا ودان » . علم ذلك عند ربى . وعندما تسلمت حقيبتى التى كانت مودعة فى مخزن الطائرة وكانت بها ملابسى وبعض اللوازم ، حملتها مع حقيبة اليد الى أول « تاكسى » فى طريقى الى الفندق . واعطيت حجرة بها سريران وحمام خاص فضلا عن بعض الاثاث الذى كان يضم ضمن مايضـــم محطة اذاعة محلية تعزف الموسيقى « الخفيفة » . ذكرتنى هذه الحجرة بالحجرة التى أمرني استاذى يعقوب فام بالمبيت فيها ثلاث ليال فى « فندق شبرد » المشـــهور بمدينة القاهرة قبل أن يهدم عندما كان يشرف تربويا على مؤسسة الزفاف الملكى وكنت أقوم بمسئولية مدير المؤسسة . وقد دفعت مصاريف اقامتى فى فنـــدق شبرد ادارة المؤسسة . وكان هدفه ان اعيش هـــذه الخبرة فلعلى ان اخوض مثلها فى مستقبل الايام . وكان هذا هو اسلوب الاستاذ يعقوب فام . كان لايعظ بالكلام ولكنه لكى يربى كان ييسر المواقف على تباينها لـــكى يعيشها المتلقى ويحيا ماتأتى به هذه المواقف من خـــير أو حتى من شر فهذا لا يهم . أن ما يهم ان يعيش الانسان الخبرة . وكان يرى رحمه الله ان « من جسر أيسر ومن هاب خاب » . ومع ذلك فلم يكن فندق مدينة بيروت هو الحجرة التى نزلت فيها لابيت ليلتى . ولكنه كان أعظم وافخم . فالاثاث الذى تضمه « صالاته » أثاث أنيق حقا ، والروائح الزكية تملأ كل ركن فيه ، والحديقة التى تلف مبانيه كانت يانعة ومملوءة بالورود والرياحين وكان النزلاء من طبقة غير الطبقة التى خرجت منها ولازالت متمسكة بى فى حركاتى وفى سكناتى وفى حديثى وفى ايماءاتى . وكانوا من جنسيات شتى . كان منهـــم الانجليز ، وكان منهم الاميريكيون ، وكان منهم غير أولئك

وهؤلاء . وعندما حان وقت تناول طعام العشاء ذهبت مع من ذهب الى حجرة الطعام . ولم استطع فى ضوء ثقافتى ان اجارى الآخرين فى تناول الـــكميات التى التهموها من الوان الطعام . كنت اعرف بعضها فآكل منه ، اما الذى لم اكن اعرفه فقد فضلت أن لا اتجاسر واطلب منه قليلا او كثيرا . ولعــل هذا الذى لم اكن أعرفه كان ألذ واشهى . كنت اجلس على احدى الموائد وحدى . وكان النزلاء يجلسون جماعات . لقــد عزلت نفسى لكى اتذوق حريتى التى كانت عندى اثمن شىء فى الوجود . كانت فرصة لى لكى ارصد الوانا عديدة مــن تصرفات من حولى . وما كان أجمل ثيابهــم . الرجال والنساء والاطفال على السواء . وما كان أقبحهم عنــدما كانوا يتناولون الطعام الذى امامهم . كنت انظـــر الى عيونهم فأراها عيون وحوش مفترسة . كانوا يفترسون الطعام الذى يأكلونه افتراسا . وكانت عيونهم تفضــح ذلك فيرتد بصرى الى ما انا مشغول به . وانتهى تناول طعام العشاء ، ورأيت ان اذهب الى حجرتى لكى استعد للنوم واسمع الموسيقى الخفيفة حتى تهدأ اعصابى فقد كان يومى مملوءا ولم يكن فارغا . وفى خلاله عشت الوانا من المشاعر ، وواجهت الوانا من المواقف . وانا فى حاجة الى النوم لاستيقظ مبكرا حتى امتطى الطائرة الذاهبة الى مدينة نيويورك عن طريق « جزيرة شانون » بالمملكة المتحدة حيث تبقى فترة من الوقت ، ينتهز خلالهـــا الركاب او بعضهم الفرصة لشراء مايحلو لهم من ملابس جاهزة او مايلزمهم من حاجيات . وجزيرة شانون محطة ينزل فيها بعض الركاب ويمتطى الطائرة ركاب آخرون . لم اكن من الركاب الذين اشتروا شيئا وان كان يودى لو اننى اشتريت « جاكتة » من الصوف الاسكتلندى .

ولم يكن ثمنها يعدو الاربعين دولارا . ولكنى أذا كنت قد اشتريتها كان يبقى فى جيبى عشرون دولارا اخرى .
ولم اكن اعرف شيئا كثيرا او قليلا عندما تحط بى الطائرة فى المطار فى مدينه نيويورك . فلم ابغ المقامرة ولا المغامرة فابقى فى جيبى عشرين دولارا فقط . وقد ندمت على ذلك فيما بعد . فقد كان الثمن رخيصا جدا بالنسبة للثمن الذى يمكن به شراء مثل هذه الجاكتة فى الولايات المتحدة . وتكون الجاكتة الاخيرة عادة مجرد شبيهة بالاولى . اننى اذكر هذه التفاصيل لكى ابين مدى حرصى فى ضوء ظروفى الاقتصادية التى كنت سأتوقعها فى الولايات المتحدة . فالمنحة التى حصلت عليها تتضمن دفع مصاريف الجامعة واعطائى مبلغ ١٥٠ دولارا شهريا .
وانا لم اكن ادرى شيئا عن تكاليف الحياة فى المجتمع الجديد . وكنت ادرى واتوقع ان يكون لاسرتى ، بعد ثلاثة شهور ، بالضرورة ، نصيب من المبلغ المذكور عندما استقر فى حياتى الجديدة المجهولة .
ركبت الطائرة من مطار بيروت الى مدينة نيويورك ، وكان يجلس بجانبى رجل انجليزى وكنا فى يوم ١٦ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، والانجليز مازالوا ضيوفا ثقلاء على قلوب وعقول بنى الوطن . كان الامل متعلقا بما قيل عن مفاوضات تجرى فى الخفاء او فى العلن بين حكومة الثورة وبين الانجليز المغتصبين . لم يكن احد يستطيع ان يعرف ماذا ستسفر عنه هذه المفاوضات .
وكنت فى ضوء تجربتى المحدودة مع بعض الضباط الاحرار وما علمت من صراعات فيما بينهم وما كان يحتمل ان يكون منها فيما بينهم وبين بعض الاحزاب المنحلة ، ارجو أن تكون نتائج هذه المفاوضات او بدايات المفاوضات فى صالح مصرنا الخالدة . ومع ذلك فان شكى فى ذلك

كان قائما . ولا يمكن ان انسى « زيارة فوستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة فى ذلك الحين الى مبنى مجلس الوزراء ، عندما قابل من قابل ، وخرج ليلقى الصحفيين المصريين وغير المصريين وانا ارقب ذلك عن بعد . كنت وكـان الكثيرون معى يرون دور الولايات المتحـدة الذى برز بعـد الحـرب العـالمية الثانية والآثار المترتبة على هـذا الدور فى منطقة الشـرق الاوسط ، وبخاصة وقد كنت اعلم وانا فى لندن فى خلال عام ١٩٤٨ ان « هارى ترومان » رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الحين كان اول من اعترف « باسرائيل » كدولة هارى ترومان هذا الذى وقع أمر القاء قنبلتى« هيروشيما» و « نجازاكى » ، وكان هذا التوقيع يعنى دمار المدينتين وموت اكثر من ثمانين الفا من الآدميين المسالمين . كان منهم الاطفال والشيوخ والشباب . وكان منهم من كان نائما او من كان فى احضان زوجته او امه . وكان منهم المرضى فى المستشفيات والذين كانوا يعيشون فى بيوت المسنين . لم تكن الخشية فى ذلك الحين من الانجليز ودولتهم فى أفول ، ولكن الخشية كانت فى ذلك الحين من الولايات المتحدة التى خرجت من الحرب العالميـة الثانية فى عام ١٩٤٥ وهى تملك « القنبلة الذرية » . وبدت فى اعين جماهير العالم وكانها عملاق . وقـد لعبت الولايات المتحدة فى عهد « ايزنهاور » دورا بارزا وبخاصة عندما اعلن عن المفاوضات بين حكام مصر الجدد وبين الانجليز . وكان الاميريكيون يرون فى بجاحة ان قاعدة القنال لم تعد قاعدة بريطانية بقدر ما اصـبحت قاعدة غربية استراتيجية اعدت للدفاع عن منطقة الشرق الاوسط باكملها !! كنت وانا جالس فى مقعدى فى الطائره التى نقلتنى الى مدينة نيويورك عن طريق جزيرة شانون

بالمملكة المتحدة ، وكان يجاورني الراكب الانجليزى ، أفكر فى كل ماسبق . وكان جزعى على مصير المفاوضات منبثقا من احساسى وشواهدى المادية لبدايات الصراع الذى كان فى محيط رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة فهنا ينتهز العدو ، عدو زمان ، او العدو الذى بدأ يملأ الفراغ ، الفرصة ولن يعدم الوسائل لايجاد الفرقة بين المفاوضين المصريين حتى يستطيع ان يضاعف المكاسب على حساب مصالح مصرنا الخالدة . وبدأ الحديث بينى وبين جارى فى امور شتى لم يكن من بينها امور سياسية سألنى عن مأربى من السفر وعن هويتى ، وسألته كذلك . تبادلنا الاسئلة كما تبادلنا الاجابات عن هذه الاسئلة حتى مر الوقت واذا بنا فى مطار جزيرة شانون، ونزل الراكب الانجليزى وغيره وجاء آخرون ممن كان هدفهم الوصول الى مدينة نيويورك مثلى . وكنا فى منتصف الليل بتوقيت جرينتش . وعندما اقلعت الطائرة من جديد نمت . وفوجئت بأننا جميعا قد وصلنا الى مدينة نيويورك سالمين فى صباح يوم ١٦ من شهر اغسطس بتوقيت الولايات المتحدة !!

وهانذا فى المطار الذى يبعد عن محطة السكة الحديد مسافة استغرقها « الاوتوبيس » الذى اقلنى فى حوالى ثلاثة ارباع الساعة . وانا لم تتح لى فرصة ركوب هذا الاوتوبيس الا بعد ان تأكد المسئولون من صلاحية جواز سفرى ومن موافقة السفارة الامريكية بمدينة القاهرة على هذا السفر ، وفضلا عن ذلك عندما تأكد المسئولون ايضا عن سلامة صحتى وخلوى من الامراض المعدية وبخاصة مرض « السل » ومرض « التراكوما » ، وكانت أوراقى تضم الاشعة والشهادات التى تدل على ذلك والتى صدرت من اطباء طلبت منى السفارة الامريكية فى

مدينة القاهرة الذهاب اليهم انفسهم ، فهم موضع ثقتها ومن ثم فهي لاترضى عن غيرهم بديلا ولا تثق الا فيهم .
وكان يقف فى انتظارى امام محطة السكة الحديد مندوب « ادارة التربية الدولية »
التى تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات المتحدة . ورؤيتى له كانت نجدة لى . وقد عرفته توا . فقد كنت اتوقعه وكان هو ايضا يتوقعنى . كان يلبس شارة تدل على انه المندوب المنشود . ولعل لون جلدى أوحى له بأننى العميل المنشود كذلك . وعلى الرغم من ان هذا اللون اسمر وليس اسود فقد واجهت بسبب ذلك مواقف اجتماعية غير انسانية لم اكن اتوقعها وبخاصة فى منطقة مثل منطقة « انجلترا الجديدة » التى تقع فيها الولاية التى سالتحق فيها باحدى جامعاتها اقصد ولاية « ماساتشوست » وجامعة « بوستن » .
وقد نصحنى المندوب بأن اركب قطارا معينا لاذهب الى احدى الضواحى حيث اجتمع ببعض الدارسات والدارسين من الذين منحوا منحا مثلى لكى نمكث فترة اسبوعين حيث نحضر برنامجا معينا نتعرف فيه عن طريق بعض النشاطات الثقافية والاجتماعية . تحت اشراف بعض المتخصصين ، على ملامح المجتمع الاميريكى . ويسمى هذا البرنامج عند المسئولين الاميريكيين « برنامج التوجيه »
وكانت دهشتى كبيرة عندما وجدت احد الاشخاص ينتظرنى امام المحطة التى اقصدها . فما ان نزلت من القطار ، وكنت الوحيد الذى نزل ، فاذا بالشخص المنتظر يستقبلنى محييا مرحبا ، وسرعان ماطلب منى ان اصحبه فى احدى السيارات التى قادها حتى وصلنا حيث سبقنى من الدارسات والدارسين

آخرون . وجدت انهم يعيشون فى احدى المـــدارس « الداخلية » حيث كانت خالية من طلبتها . ثم وجهت الى حجرتى المختارة لى والمؤثثة اثاثا كافيا لكى استريح واضع حقيبتى الكبيرة والصغيرة التى كنت احملها فى يدى ولم يكن لدى غيرهما ، وذلك حتى يحين موعـــد تناول طعام الغداء . وعندما حان الوقت أسرعت الى الحجرة المعدة لذلك وانا فى شوق شديد الى الطعام . وفى حجرة الطعام قابلت الدارسات والدارسين . كانوا من بلاد شتى . كان منهم الانجليز والفرنسيون والالمانيون والهولنديون والهنود والباكســـتانيون واليابانيـــون والمراقيون ، وكان منهم أيضا من اتوا من بلاد امريـكا اللاتينية مثل البرازيل والارجنتين ، وكنت وزميـــل المصريين الوحيدين . لم اكن اعرف هذا الزميل من قبل ولم اكن اعرف عن عمله او محـــل اقامته فى مصـــر با الخالدة شيئا . اننى اذكر ان اسمه كان « حبيب » وذكر لى انه عمدة فى احدى قرى الصعيد . كان عددنا حوالى ثلاثين شخصا . وكانت خلفياتنا العلمية والثقافية متباينة . وفى حجرة الطعام كان يحضر الطعام أعضـــاء منا فى نظير اجر يحصلون عليه ! كانوا قبل ان ندخـــل الحجرة يعدون الموائد ثم بعد ان ندخل ونجلس فى الاماكن المعدة يحضرون اطباق الطعام اصـــنافا والوانا وبكميات وفيرة . ومنذ هذه اللحظة تأكد عندى اهتمام الامريكيين بالنقود . فكل شىء فى الحياة عندهم له ثمن . ولا جدوى من التضحيات الانسانية والمجـاملات التى لا جدوى منها . وزاد تأكدى عندما أعلن ونحن فى حجرة الطعام عن طلب اشخاص منا يستأجرون لكى يجمعوا التفاح من حدائق مجاورة ، وان من يجد فى نفســـه الكفاءة فليتقدم على أن تكون اوقات العمل فى اوقات

الفراغ . ويدفع للشخص العامل عن ساعة العمل دولار او دولاران لا اذكر بالضبط . وعرفت الاعضاء الزميلات الدارسات والزملاء الدارسين وعرفونى . كما عرفت المشرفين على البرنامج ولاحظت أن من بينهم اساتذة وبعض طلبة الدراسات العليا . كما نحن الاعضاء نحمل ثقافات متعددة بل قد يكون بعضها متعارضا مع مايحمل الاميريكون من حولنا من ثقافة . وكان هم الاميريكين المشرفين والباحثين ان يحتكوا بنا ثقافيا . فقد كان من قبيل الافتراض اننا بعض قادة مجتمعاتنا الثقافيين ، واننا فى الواقع نمثل الى حد كبير او الى حد ما ثقافات مجتمعاتنا التى ولدنا فيها وكنا نعيش فيها قبل حضورنا الى الولايات المتحدة . انها فرصة رائعة لكى نكون تحت المجهر ليس فقط لدراسة كل شخص منا بل لما هو اهم واجدى اقصد لمحاولة دراسة ــ عن طريق تصرفاتنا وانماط سلوكنا ــ المجتمعات التى جئنا منها لكى تفهم عناصر ثقافاتها . ومن ثم وضعت البرامج العديدة ومعظمها ثقافى للتعرف على الاراء واذا تيسر للتعرف على الاتجاهات ، التى تموج بها تصرفاتنا وانماط سلوكنا كما نحضر الاجتماعات ونستمع الى المحاضرات وندعى الى المناقشات السياسية وغير السياسية . وكان يحضر الينا القادة من المجتمع الاميريكى سواء اكانوا اساتذة جامعات أو زعماء نقابات او رجال اعمال لكى يحتكوا بنا واذا تيسر لكى نحتك بهم . وكان الاخيرون يحضرون مستمعين لمن يحاضر ولمن يناقش . وكنا نوضع فى مواقف اجتماعية معينة لكى يظهر من ردود الفعل ماقد يكون قد خفى . وكانت السيدات الاميريكيات يلعبن دورا حاسما فى هذا المضمار . وكان البرنامج يتضمن زيارات الى بيوت الاثرياء والى المصانع . وانا اذكر

اليوم اى وقت كتابة هذه السطور ، اى منذ حوالى
ثلاثين عاما ، اننا زرنا مصانع آلات .I.B.M —
اى المصانع التى تصنع الآلات الحاسبة الالكترونية ،
— International Business Machine وكانت هذه
الالات قد صنعت فى عام ١٩٤٤ ، ونحن الان فى عام
١٩٥٣ . والملاحظ أن اول جهاز للحساب كان قد صنع
فى مصر القديمة وفى الصين قبل العصر المسيحى .
وكان جهازا بدائيا . ولكننا نحن الآن فى عام ١٩٥٣ حيث
صنعت هذه الالة بعد تحسينات جذرية ، واستمرت
التحسينات حتى اصبح من المتيسر فى خلال سبع دقائق
حل مسائل حسابية تتضمن أكثر من مليون عملية
حسابية . هذا ما علمته مع الآخرين من العالم الذى
كان يشرح لنا احدى الالات . ولكن ماكان يعلمه اكثر
عن هذه الالات هم اليابانيون الزملاء . كنا ما عداهم
مجرد متفرجين . اما هم فقد كانوا يناقشون مناقشة
العارف بأسرار الآلة الحاسبة الالكترونية الذى يحاول
ان يعرف اكثر . وقد علمنا ضمن ماعلمنا ان هذه الالات
لا تباع ولكنها كانت تؤجر . وانا اذكر اننى كنت امام
لغز كبير وضعه الانسان المتقدم أمامنا لكى نحاول ان
نحله . وعلى الرغم من الفشل الذريع الذى حاق
بالحاضرين ماعدا اليابانيين فقد كنت سعيدا جدا . لان
تقدم الانسان وسيادته على الطبيعة وعلى المجتمع أمران
لا يختلف عليهما انسان يحب الحياة ويسعى جهده
لتحقيق انسانية الانسان . وعندما كنا فى هذا المصنع
رايت مالم يره غيرى ، وذلك لاننى نظرت من النافذة
فرايت فناء المصنع الواسع وهو مملوء بمئات من
السيارات ، وعندما سالت عن اصحاب هذه السيارات
قال احد الموظفين لى انها ملك لعمال المصنع !! وكان

المسئولون عن برنامج التوجيه يحضرون المحاضرين من زعماء الزنوج وكان هؤلاء الزعماء مختـــارين اختيارا متعمدا ، وكنت ترى الواحد منهم خطيبا مفوها ولكنه لا يقول عن التفرقة العنصرية شيئا هاما . فكنت وأنا والحاضرون من الاعضاء وبعض الضيوف لا نسمع عن اهداف المعركة ضد التفرقة شيئا ، ولانسمع عن النقاط التى يجب مهاجمتها شيئا . وكـان الخطيب الزنجى القائد المفوه لا يذكر شيئا عن الوسائل التى كـان يجب اتباعها ، ولا يذكر شيئا هاما عن دور القيادات القومية والمحلية فى الصراع . ولم يجب واحد من هؤلاء القادة الزنوج عن وجوب او عدم وجوب وجود تنظيم راحد قيادى اجابة شافية ، وحتى اذا لم يكن ذلك ضروريا فلم نسمع شيئا عن ضرورة اهتمام مختلف التنظيمات بتحديد دور كل منها . كانوا يأتون ويذهبون لكى يبرروا الحالة المنحطة للزنوج فى الفترة التى كنا موجــودين فيها ، وكانت تتضمن التفرقة فى التـدريب المهنى ، والتفرقة فى التدريب على التلمذة الصناعية ، والتفرقة فى النقابات والتنظيمات العمالية وخاصة فى اعمـــال الميكانيكا والبناء ، والتفرقة فى الخدمات التى تقدمهـا مكاتب العمل الحكومية ، والتفـرقة فى الخـــدمات والتشغيل فى القوات المسلحة ، والتفرقة من جـانب اصحاب العمل بما فى ذلك العقود الحكومية . وكانوا يذكرون ويكررون مايذكرون عن اعتمادهم على المحكمة العليا للولايات المتحدة التى اصدرت حكما فى عام ١٩٣٥ يقضى ببراءة احد المحكوم عليهم من الزنوج لان هيئـة المحلفين لم تضم زنوجا . وكانوا يذكـــرون ويكررون مايذكرون عن ان المحكمة العليا فى عام ١٩٣٨ امـــرت « ولاية ميسورى » اما ان تقبل السود فى كلية الحقوق

واما ان تهيىء لهم كلية للحقوق يدرسون فيها . وكانوا يعوّلون على الحكم فى القضية المشهورة عندما قاضت أسرة « براون » فى « مدينة كانساس » السلطات لعدم سماحها لابنتهم بدخول مدارس البيض . وكانت القضية امام المحكمة العليا فى ذلك الحين ولكنها لم تكن قد اصدرت قرارها بعد . وكان المحاضرون الزنوج الذين جاءوا بهم الينا يأملون فى ان يكون القرار منصفا للزنوج كانوا يبدون لنا تفاؤلهم دائما ويرون أن القانون « الاميركى » لا يعترف بالتفرقة فى المدارس ومن ثم يجب أن تستعد المدارس لادخال السود فيها . وكان الدارسون الهنود أعلا الحاضرين صوتا . كانوا يناقشون ويناقشون ، وكذلك كان الدارسون الفرنسيون مثل الدارسين الهنود يناقشون كثيرا . وكان يحرضنا الاساتذة المشرفون على المناقشة وكان البعض يلبى والبعض لا يلبى . وكنت قد آثرت ان العب دور المتفرج فلم اناقش كثيرا ولا قليلا ، وكذلك لم اشترك فى اللجان التى شكلت لادارة البرنامج تحت اشراف الاساتذة المشرفين . كنت اشارك بالحضور فى جميع النشاطات : الزيارات والحفلات والندوات والمحاضرات وغيرها . وكان اشتراكى الفعلى بين الدارسات والدارسين وبعض طلبة الدراسات العليا من الاميركيين . اى اننى لم اكن سلبيا مائة فى المائة فقد كان لى دور فى الحفلة الختامية للبرنامج التى حضرها المئات من الاميركيين سواء كانوا من الذين اتصلنا بهم واتصلوا بنا او غيرهم . كان على ان اغنى منفردا غناء مصريا . فغنيت اغنية كان ابناء مؤسسة الزفاف الملكى يغنونها فى حفلات السمر . كما غنيت احدى الاغنيات التى حاولت أن اشرك الحاضرين فى ترديد احد مقاطعها السهلة دون عمل « بروفات »

بالطبع . وكانت مجازفة ، ولكنها اثمرت فقد كنت اسمع الاطفال الذين كانوا يعيشون من حولنا يرددون المقطع وحدهم فى صباح اليوم التالى . تماما كما كان ابناء المؤسسة يرددون الاغانى التى توضع لهم فى المؤسسة ، كما كانوا يغنونها فى خارج المؤسسة . وقد كان مضمون الاغنية الفردية ريفيا مصريا . واننى اذكر منها :

دورى يا ساجية دورى
واروى الارض حبة حبة دورى
دا الزرع بين ايديك دورى
وضلة العالى عليك ياساجية دورى
دورى ياساجية دورى

اما الاغنية الجماعية التى حاولت ان يردد احد مقطوعاتها الحاضرون من غير عمل البروفات الكافية او غير الكافية ، فقد كانت اغنية « فرانكو آراب » اذكر منها :

يادنج دنجى يادنجى دنجى
يادنج دنجى يادنج دنجى
مستر سميث — Is a gentleman
وتملى جعان — He eats very much

ولم تتضمن الاغنية مستر « سميث » وحده . بل تضمنت اسماء عديدة اخرى . وكانت هى اسماء بعض الدارسات والدارسين فى البرنامج .

ومر الاسبوعان مر السحاب . وانتهى البرنامج . وتفرق الجمع كل الى حيث يريد . وكنت اهدف الى الوصول الى مدينة « بوستن » حيث التحق بالجامعة . وهذه المدينة هى عاصمة ولاية « ماساتشوستس » احدى ولايات « انجلترا الجديدة » — New England States

وتضم انجلترا الجديدة غير ولاية ماساتشوست ولاية « كنكتكت » و « نيوهامبشير » و « فيرمونت » و (مين).
وانا اذكر جيدا انه وانا فى طريقى الى بوستن اضطررت لكى ، انتظر القطار ، ان أنام فى «المحطة » ساعات حتى يحضر . وكان فى فناء المحطة اماكن للجلوس عليها ، وكان يجلس معى الكثيرون الذين لا يعرفوننى ولا اعرف واحدا منهم . وكانت الحقيبتان الكبيرة والصغيرة فى حيازتى وكنت حريصا عليهما حرصى على ان انام . ولم ادر اذا كنت قد نمت او كنت متيقظا . كنت فى لهفة للوصول الى مدينة بوستن . وكانت هواجسى عديدة ومتباينة . فانا لا اعرف عنها شيئا ، ولا أعرف مصير التحاقى بالجامعة شيئا ايضا . ولكننى كنت ايضا مطمئنا الى اننى اذا وصلت الى المدينة ساجد مكانا للمبيت .
ووصلت الى المدينة فعلا عند الغروب . وكان معى عنوان المكان الذى سأبيت فيه ورقم التليفون فى حالة الرغبة فى الاتصال بالمسئولين عنه . كان المكان المنشود هو « محلة نورفولك » — Nor Falk House centre
« بحى روكسبرى » بالمدينة . واننى اذكر اننى عندما وصل القطار الى المدينة سارعت بالنزول منه حاملا الحقيبتين لاتحدث تليفونيا لكى اعرف من المسئولين عن المحلة عن ايسر الطرق الى الوصول الى حى روكسبرى .
وحاولت ان اتحدث تليفونيا فلم استطع . كانت « كابينات » التليفونات موجودة بالمحطة ولم يكن يشغلها احد ، ولكنى لم اعرف كيف اتصل ، فخرجت من الكابينة الى اقرب شخص طالبا منه مساعدتى فلبى طلبى فى الحال . وكانت تلبية هذا الرجل « الغريب » لى فالا حسنا . وتذكرت مدينة لندن فى الحال . فلقد كان من المستحيل ان اجد شخصا فى هذه المدينة لايعرفنى يؤدى

لى خدمة ما . ومع ذلك فقد ظلت مدينة لندن مدينتى المفضلة بعد ذلك وقتا طويلا . وتحدثت فى التليفون وكان المجيب هو « مستر ديفيز » ولم اكن اعرف عنه شيئا ولكنه كان يتوقع مجيئى ، وعلمت بعد ذلك انه مدير محلة نورفولك . كان انسانا لطيفا حقا وطلب منى لكى احضر ان استأجر « عربة تاكسي » الى ميدان «جون اليوت » ، وفى الميدان أجد « كنيسة » ويقع امامها مبنى المحلة المنشود وكان رقم ١٤ . ووعد فى لهجة بالغة الظرف والانسانية اننى سأجده امام المبنى ينتظرنى . وعندما وصلت الى المكان المقصود وجدت مستر ديفيز منتظرا . رحب بى ثم ساعدنى فحمل الحقيبة الصغيرة وترك لى حقيبتى الكبيرة وقادنى الى حجرتى ذاكرا لى انها مؤقتة حتى يجد لى حجرة مناسبة لرجل جاء من افريقيا وكان يقصد من بلاد تكون درجة حرارة الطقس فيها عادة مرتفعة .ومالبثت الا لحظات بعد ان تركنى ، فاذا بى استعد للنوم ، وكنت فى حاجة الى النوم فعلا وحقا ، وفى السرير وجدتنى راقدا وعلى من «البطاطين» مايكفى لكى يعصمنى من برد الخريف فى مدينةبوستن . ونمت نوما طويلا عميقا كما اذكر اذا أستيقظت ظهر اليوم التالى ، واحسست بالجوع الشديد . وانصت وانا مازلت فى السرير فلم اسمع لاحد من الآدميين او غيرهم صوتا. وقمت لاستعد للخروج . وعندما خرجت من المبنى قابلنى مستر ديفيز واعطانى مفتاحا لكى أفتح الباب عند عودتى من الخارج . وكان للمبنى بابان وكان المفتاح يصلح لفتح ايهما . ولم اشأ أن اطلب من مستر ديفيز ان يدلنى على مكان حيث اتناول فيه الطعام . كنت اود، كما كنت افعل دائما ومازلت افعل حتى الآن اذا ذهبت الى بلد اجنبى ، أن التمس بنفسى طريقى . وخرجت الى

الشارع او الى ميدان جون اليوت ، وكان الهواء باردا منعشا حقا . وسألت احد اصحاب الحوانيت التى تقع بجوار المحلة ، كان أول حانوت . فارشدنى الى مكان بعيد ، وجدته صيدلية يديرها مع زوجته رجل من اصل يونانى . وسألت عن الطعام لكى أتناوله ، فعدد لى اصنافا عديدة من « الساندويتشات » ، وطلبت مارأيت انه يكفينى مع فنجان من القهوة . وجلست حيث يجلس الآخرون . وجاءنى الصيدلى وانا ارتشف فنجان القهوة وبدأ يتحدث معى . عرف اننى مصرى جاء يطلب العلم فى بلاد « العم سام » وعرفت منه أنه يونانى الاصل وان السيدة التى تعمل معه وتعاونه هى زوجته وان له ابن وابنة وكلاهما فى التعليم الثانوى . وكان يطمح فى ان يحل ابنه محله فى ادارة الصيدلية فى يوم من الايام بعد ان يكون قد تأهل للقيام بهذه المسئولية وقد اتضح للرجل اننى اتحدث اللغة الانجليزية الفصحى . ومن ثم فأنا لست من نفس المكانة التى يتسم بها معظم اهالى حى روكسبرى . ذلك الحى الذى بدأ السكان الزنوج يزحفون اليه افرادا وجماعات . وقد احسست بدفء مشاعر هذا الصيدلى . وعولت على ان اواظب تناول طعام الافطار عنده كلما كان ذلك ممكنا . واستأذنت للانصراف بعد ان دفعت ثمن ماطلبت . وفى اثناء العودة وجدت « المكوجى » فى طريقى . وعندما مررت أمام الحانوت الاول الذى ارشدنى صاحبه الى الصيدلية ، وجدت بجواره « مطعما » فيه من الوان الطعام مايشتهيه كل جوعان . ودهشت لان الرجل لم يرشدنى اليه وآثر ان يرشدنى الى الصيدلية . ولم اهتم لان اعرف سبب ذلك ابدا . ولكنى سعدت بأن علمت ان صيدليات الولايات المتحدة لا تبيع الادوية فحسب ولكنها تيسر

شراء الحلوى واصنافا من الطعام والشراب ومنهـــا الساندويتشات وتعاطى القهوة والشاى و « الجيلاته » ايضا !!. وكانت ســعادتى اكثر لاننى عرفت الصيدلى ذا الاصل اليونانى الذى بدا لى انه فرح مثلى لــكى يبادلنى الاحاديث كلما ذهبت الى الصيدلية . وعدت الى المحلة ومعى المفتاح الذى سلم الى واستمر فى جيبى وانا احرص عليه حرصى على نقودى فى خلال المدة من شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكنت قد حرصت فى اثناء العودة على ان اشترى نسخا من جرائد بوستن وبخاصة جريدة « كريستيان سينس مونيتر » وغيرها لكى اتصفحهــا واعيش فى دنيــــاى الجديدة . وكما توقعت لم اجد احدا فى طريقى الى حجرتى ولم اسمع همسات او همهمات . كنت وحدى ، ويبدو ان مستر ديفيز واسرته كانوا وحدهم يشاركوننى مبنى محلة نورفلك . ذلك المبنى الذى يتكون من مائة وثلاث من الحجرات بالاضافة الى « ملعب داخلى لكرة السلة » ، وقاعة كبيرة فى الدور الارضى من المبنى . وبينما كنت منهمكا فى قراءة الصحف فى حجرتى ، اذا بمستر ديفيز يدعونى الى الانتقال الى حجرة اخرى اصـــبحت حجرتى طوال الفترة التى مكثتها فى المحلة وهى نفس الفترة التى مكثتها فى مدينة بوستن . كانت واســعة بها سريران ومكتبة فضلا عن نافذة كبيرة أرى من خلالها شجرة تلعب بأوراقها رياح الخريف . ومنذ اللحظة الاولى اصبحت هذه الشجرة صديقتى . كنت اراها على مدى العام واوراقها تسقط ثم يغطيها الجليد وهى عارية ، ثم بعد ذلك تورق وتخضر بدءا من شهر الربيع حتى فصل الخريف عندما تبدأ أوراقها فى السقوط مــرة اخرى . كنت الاحظ ذلك فى دقة . وكانت هى أول

ما اراه عندما استيقظ . وكان بالحجرة ايضا دولاب داخل الحائط كنت أضع فيه ملابسى . وبمرور الوقت بدا نزلاء المحلة من الطالبات والطلبة يفدون . كانوا جميعا من الاميريكين من بنات وأبناء الولايات المتحدة . وكان منهم أمريكى من كندا يدعى « جيمس اين » . كانوا فى الاغلب الاعم من المسيحيين ، وكانوا ذكورا واناثا . وكان معظمهم من الشباب . كما كان معظمهم من طلاب الجامعة وكنت ومعى احدهم ندرس للحصول على درجـــــة الدكتوراه . واذا كانوا فى الاغلب الاعم من المسيحيين فقد كانوا يتبعون فى الغالب المذهب الكاثوليكى ، وقد وجد معى ، أنا المسلم ، آنستان يهوديتان . كنا عشرين شخصا . عشر من الاناث وعشرة من الذكور . وانا اذكر يوم ان اكتمل الجمع انه طلب منا حضور اجتمـــاع برئاسة مستر ديفيز فى المكان المخصص لنا لكى نستريح او لكى ندعو ضيوفنا فيه حيث يوجد مطبخ مجهز بكل الادوات على احدث طراز ، وحجرة خاصة بهـا جهاز « تليفزيون » وآلة « البيانو » . وفى الاجتمـاع كان المتحدث الوحيد مدير المحلة وكان حديثه لنـا يتضمن حقوق كل واحد منا وواجباته . وكانت الواجبات ان نسهم فى ادارة المحلة عندما تستقبل اعضاءها من بنات وابناء الحى ، كل حسب مؤهلاته ومواهبه وخبراته . أما حقوقنا فهى المبيت فى حجرة دون ان ندفع دانقا ، وان نستعمل المكان المخصص للراحة والمطبخ فضلا عن مشاهدة برامج التليفزيون او ممارسة اللعب على البيانو لمن يستطيع فى اوقات الفراغ . اى الاوقات التى لانؤدى فيها عملا يتصل بنشاطات المحلة فى خلال يومين فى الفترة المسائية حيث بدأ النشاط فى الساعة السادسة مساء الى الساعة التاسعة مساء . اى اننى على نظـر

المبيت في حجرتي والاستمتاع بحقوقي ان اعطى من وقتي ست ساعات في المساء اسبوعيا واخترت يومي الاثنين والاربعاء من كل اسبوع لأؤدي عملي كأخصائي اجتماعي متخصص في طريقة خدمة الجماعة . وكنت الرائد لاحدى الجماعات من الاولاد الزنوج ، الذين يسكنون في حي روكسبري ، التي تلتحق بالمحلة لاول مرة وقد اختارني مستر ديفيز لهذا العمل لانني أولا مارست مهنة الخدمة الاجتماعية في بلادي ليس فقط كمتخصص في طريقة خدمة الجماعة بل وايضا في طريقة خدمة الفرد فضلا عن البحث العلمي الاجتماعي . ولانني ثانيا وهذا امر هام مواطن مصري جئت من قارة افريقيا حيث لا توجد تفرقة عنصرية ويؤكد ذلك لون جلدي الاسمر . اي انني في نظره صالح لقيادة جماعة الاولاد الزنوج شكلا وموضوعا . وبمرور الوقت ابتعد مستر ديفيز عنا وبرز في محيطنا شخص آخر عين وكيلا له هو « مستر دونالديونج » وكنا نختصر أسمه ونناديه بمجرد « مستر دن » « بضم الدال » . وكان مستر دن هذا متزوجا وله ولدان ويسكن في ثلاث حجرات بجوار حجرتي . وكانت نشاطاتي مع جماعة الاولاد الزنوج الذين سموا أنفسهم « ذا فيبرز » أي « الافاعي السود » تحت اشراف مستر دن . وكان لكل واحد من اعضاء الجماعة « جاكت » سوداء اللون مكتوب عليها باللون الابيض اسم الجماعة . وقد سعدت بكل شيء صادفته في هذه المحلة . المناخ الثقافي ووجود الصحبة والمشاركة في العمل الذي احبه واسعى الى تحقيقه الا وهو محاولة تكوين المواطن الصالح او محاولة اعادة تكون هذا المواطن . وكنت أقوم بهذه المهمة في ذاك الحين لافي مصرنا الخالدة ولكن في الولايات المتحدة الامريكية . وكان عزائي انني اعمل بين الاولاد

الزنوج الذين يعتبرهم « البيض » بعامة وحتى فى مدينة بوستن « مدينة الحرية والاحرار » حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا اقيم تخليدا لذكرى أول زنجى صرعه الانجليز فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠ ، انصاف مواطنين . وانا لا اقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر لى « جون جراى » الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن ، انه لم يجىء الى محله نورفلك الا بعد ان دار فى شوارع بوستن وحاراتها اياما لكى يسكن مع زميل له « ابيض» ولم يجد مكانا يؤويه الا احدى الكنائس التى وجهته الى المحلة . كان أصحاب الشقق للايجار يرحبون بزميله الابيض ويرفضونه هو . وكانت صدمة عنيفة له لانه كان يعتقد ان مدينة بوستن وهى مدينة لها تاريخها وتعتبر مصدر الحرية والاحرار الذين فروا من أوروبا الى الارض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين ، لا يمكن ان يجد فيها لونا من الوان التفرقة العنصرية . ولكنه عندما وجد آثر ان يكون واحدا منا فى المحلة لكى يستكمل تعليمه العالى ويبنى لنفسه مستقبلا افضل . كان النزلاء كما ذكرت خليطا من الشباب وغيرهم . وكانوا متباينين فى السمات وفى الثقافات ، ولكنهم فى المحلة على المستوى الظاهر ، او من حيث المبدأ ، كانوا يعتبرون آدميين . وماداموا يؤدون واجباتهم فلهم حقوقهم على السواء .

استرحت نفسيا لوجودى فى محله نورفلك ، ولكنى كنت قلقا على مصير التحاقى بالجامعة لكى ادرس الدراسات العليا التى تؤهلنى للحصول على درجة الدكتوراه . وانا اذكر الآن عندما ذهبت الى الجامعة . كانت وجهتى الذهاب الى « جامعة بوستن » التى انشئت

فى عام ١٨٣٩ فاذا بى اجدنى امام « كلية بوستن » .
وهى كلية للخدمة الاجتماعية انشأتها الكنيسة الكاثوليكية
لتخرج اخصائيين اجتماعيين من الشباب الكاثوليك .
وعندما عرفت خطأى ذهبت الى « جامعة بوستن » ،
فاذا بى امام عميد كلية الخدمة الاجتماعية بالجامعة ،
وعلمت منه أن الكلية لا تمنح الا درجة « الماجستير » ،
وفى ضوء تاريخ حياتى الاكاديمية يرى انه من الخير لى
ان التحق بكلية الآداب « قسم الاجتماع والانثروبولوجيا »
وقال ذلك كما اذكر وهو يقلب بعض الاوراق التى كانت
بين يديه والتى عرفت فيما بعد أنها كانت تتضمن
خبراتى الاكاديمية والعملية ، وذكر ايضا اننى اذا وافقت
على ذلك فانه سيحول اوراقى الى كلية الاداب وذكر اسم
« البروفسور البرت موريس » الذى كان يرأس قسم
الاجتماع والانثروبولوجيا فى ذلك الحين لكى اذهب اليه
ويحقق رغبتى وهى حصولى على درجة الدكتوراه لا فى
الخدمة الاجتماعية ولكن فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا
حسب التخصص الذى ارغب فيه . وعندما سمعت اسم
البروفسور البرت موريس ، وافقت العميد على تحويل
اوراقى الى قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بكلية الآداب
بجامعة بوسن . وكنت قد قابلت البروفسور موريس فى
القاهرة فى خلال شهر دبسمبر عام ١٩٥٣ وكان فى طريقه
الى الولايات المتحدة آتيا من استراليا مرورا بنيوزيلاندا .
كنت فى ذلك الحين فى رئاسة مجلس الوزراء حيث اقوم
بمساعدة الصاغ مجدى حسنين مدير مكتب رئيس مجلس
الوزراء فى ذلك الحين . وكان البروفسور موريس ضيفا
على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة الذى
كنت اديره فى خلال الفترة من اول دبسمبر عام ١٩٤٤

حتى اوائل شهر فبراير عام ١٩٥١ عندما سافرت الى لندن للمرة الثانيه لكى استأنف دراساتى العالية . وقد راى مدير المكتب الذى حل محلى ان يدعونى الى تناول طعام الغذاء مع البروفسور موريس ، وكان قد أعده فى احدى حجرات المكتب . وكان يشاركنا فى تناول الطعام آخرون لا اذكر واحدا منهم وقت كتابة هـذه السطور . ولما علم البروفسور موريس عن خبراتى فى ميدان علاج الجريمة وجناح الاحداث ابدى اهتمامه بشخصى الضعيف . وقد تحدثنا كثيرا فى موضوعات شتى عن اساليب العلاج والمشاكل التى يصادفها الاخصائى الاجتماعى المصرى فى اثناء عمله فى هـذا الميدان . كانت مقابلة عابرة ولكنها تركت اثرا فى نفسى ، ويبدو انها تركت اثرا أيضا فى نفس البروفسور موريس . ذلك لاننى عندما قابلته فى مكتبه بعد ان حدد موعدا لهذه المقابلة ذكر لى أنه تذكرنى بمجرد ان اطلع على الاوراق التى تتضمن خبراتى الاكاديمية والعملية . وقد رحب بالتحاقى بقسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا الذى يرأسه على ان يكون تخصصى « علم الاجرام » الذى كان هو استاذه ، وعلى ان ابدأ الدراسة فى الموعد المحدد للحصول على درجة الماجستير ثم نترك موضوع درجة الدكتوراه قيد البحث والدراسة بعد حصولى على الدرجة الاولى . وقد ابلغته بأن المنحة التى حصلت عليها لمدة عام فقط وان املى فى ان احقق هدفى . كان موضوعيا فى تعليقه على هذا . فهو لم يعد بشىء وترك الامر كله فى يدى . ذلك لان مد المنحة عاما آخر او اكثر يتوقف على جهودى وليس على جهود احد غيرى . وسرعان مابدأ البروفسور موريس فى اعداد

كشف بالعلوم التى يجب على ان ادرسها فى الفصـــل الدراسى الاول من العام ، واوقات حضور المحـاضرات آخذا فى الاعتبار اننى قد جئت من بلد درجة الحرارة فيه بالنسبة لدرجة حرارة مدينة بوستن مرتفعة . ورأيت اهتمام البروفسور موريس وهو يعد الكشف باختيار الاساتذة ايضا . فالملاحظ أن العلم الواحد قد يكون له اكثر من استاذ . وقـــد علمت انه على ان امتحن فى موضوعات دراسية يكون عدد ساعات القائها فى الاسبوع فى اثناء فترة الدراسة ٣٠ ساعة . فآثرت ان يـكون اختيار موضوعات الدراسة فى الفصل الدراسى الاول عن العام الاكاديمى ١٩٥٣ – ١٩٥٤ على أساس ١٥ ساعة فى الاسبوع ، ويكون اختيار الموضوعات فى الفصـل الدراسى الثانى من هذا العام على نفس الاساس ، على ان ابدا فى القيام باجراء بحث عن موضوع « نظام الاختبار القضائى فى مصر الحديثة » الذى كنت قد أعددت له العدة من قبل . وفى ضوء خبراتى وافق البروفســور على هذا البرنامج بعد ان قال لى محذرا وهو يبتسم « اننى لا ارغب فى ان تكون عودتك الى بلادك فى تابوت»! وكانت موافقة البروفسور موريس على اجراء هــذا البحث مشروطة بأن يكون تحت اشرافه على ان يعين استاذ آخر ليشاركه هذا الاشراف . ولم تسعنى الدنيا عند الانتهاء من هذه المقابلة ، وتركت البروفســـــور موريس راضيا متفائلا وشاكرا . وبدات اردد فى سرى ان الامر كله « يتوقف على جهودى وليس على جهـود احد غيرى » . وكانت موضوعات الفصل الدراسى الاول تشمل « جناح الاحداث » الذى كان مسئولا عن تدريسه الاستاذ « ايدوين بورز » ، و « المذنب الشاذ » الذى

كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ج . ك . ستروب » وكان استاذا زائرا جاء من الدانيمارك ، و « علم الاجرام » الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور البرت موريس » ، و « الابنية الاجتماعية المقارنة » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « سانت كلير دريك » ، و « مناهج البحث فى الزواج » الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور ج . ت . جرين » ، ثم « طريقة خدمة الفرد ورعاية الطفل » الذى كانت مسئولة عن تدريسه « الدكتورة ن . دنبار » ويلاحظ القارىء ان الموضوع الاخير هو احدى طرق الخدمة الاجتماعية . وكنت احضر المحاضرات فيه فى كلية الخدمة الاجتماعية بالجامعة . وذلك لان « الخدمة الاجتماعية » مثلها مثل « علم الاجرام » جزء لا يتجزء من علم الاجتماع . فعلم الاجتماع كما كانت تراه جامعة بوستن فى ذلك الحين ينقسم من حيث التخصص الى اربعة ميادين هى :

- علم الاجتماع العام .
- علم الاجتماع التطبيقى .
- نظريات علم الاجتماع .
- مناهج البحث فى علم الاجتماع .

ومن ثم فقد كان اختيارى لعلم الاجرام يعنى ان ميدان تخصصى هو علم الاجتماع التطبيقى . أما موضوعات الفصل الدراسى الثانى ، فقد كانت تشمل « حلقة بحث فى علم الاجرام » وكان المشرف عليها « البروفسور موريس » ، و « حلقة بحث فى النظريات الاجتماعية » وكان المشرف عليها « البروفسور أ . زالنجر »و«المجتمع والثقافة والشخصية » الذى كان مسئولا عن تدريسه البروفسور زالنجر ايضا ، و « المجتمعات الحضرية »

الذى كان مسئولا عن تدريسه « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « مناهج البحث فى الزواج » الذى كان مسئولا عن تدريسه البروفسور جرين .

واذا كانت ميادين علم الاجتماع كما كانت تراهـا جامعة بوستن فى ذلك الحين اربعة ميادين ، وان على عالم الاجتماع ان يستخدم قوانينه فى حل المشـاكل الاجتماعية مثل البطالة والجرائم والفقـر والامراض والتعصب العنصرى والامراض العقلية والحروب ، فان ذلك يرجع الى الاهتمام فى ذلك الحين بالقيام بدراسة تأثير العلم المادى على المجتمع وبالتعاون لا فى سـبيل تقدم العلم المادى فحسب ، وانما فى سبيل توطيـد السلام والحرية الفكرية بين الامم ، حتى يتسنى للعـلم المادى ان يوالى تقدمه وانتشاره ، وان يضفى خيراته بسخاء على النوع البشرى . ومن ثم فان الدعـوة الى ان يستدعى ميدان الخدمة الاجتماعية تلازم البحـث الاجتماعى والعمل الاجتماعى اصبحت فى هذا الضوء ضرورة . فقد كان يقال فى ذلك الحين انه ليس مـن المعقول ان ندع المجتمع يتهدم رغبة فى ان نهيىء لاحـد الباحثين فرصة لدراسة عملية التهدم بهـدوء وعـدم اكتراث . ولذلك كان يدعو البروفسور «ويندل كليلاند» استاذ علم الاجتماع بالجامعة الامريكية بالقاهرة ، اول من علمنى ا ب علم الاجتماع ، علماء الاجتماع الى ان يتسعوا بروح ملؤها العطف المتزايد مجهودات الاجتماعيين فى الميادين العملية ، والى استخدام علم الاجتماع فى حل المشاكل الاجتماعية بقصد القضاء عليها . ولم يكن من غير المتوقع ان لا يدعو البروفسور كليلاند هـذه الدعوة فى ذلك الحين ، وذلك لان جامعـات الولايات المتحدة ، ومنها جامعة بوستن ، كانت تدعو الى نفس هذه الدعوة . وقد اصبح بمرور الزمن لعلم الاجتماع

كمفهوم انسانى ليست فقط معانى عديدة بل أصبحت له أيضا صور عديدة . فنحن نجد الآن « فى الثمانينات» علم الاجتماع التاريخى وعلم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع الطبى وعلم الاجتماع العائلى « الاسرة والزواج والقرابة » وعلم الاجتماع المعرفى وعلم الاجتماع الريفى وعلم الاجتماع الحضرى وعلم الاجتماع السياسى مثلا وبدأ اساتذة الخدمة الاجتماعية فى مصر أسوة بغيرهم فى البلاد الاخرى بأن يقوموا باجراء البحوث والدراسات انفسهم او بأن يشرفوا عليها لكى يصنعوا دعائم « علم الخدمة الاجتماعية كعلم مستقل كغيره من العـــــلوم الانسانية ، اسوة بما حدث فعلا فى علم الاجرام وعلم جناح الاحداث وعلم العقاب .. الخ . ولعله ان يــكون لعلم الخدمة الاجتماعية المستقل فى المستقبل القريب او البعيد صور مستقلة جديدة أسوة بعلم الاجتمــاع مثل « علم خدمة الفرد » و « علم خدمة الجماعــة » و « علم تنمية المجتمع » .. الخ . ومهما يكن من الامر فان الوصول الى كل ذلك وتحقيق هذا الطموح العلمى لن يتأتى الا اذا بذل المسئولون عن الخدمة الاجتماعيــة فى مصر الجهود المستمرة وذلك عن طريق الخبرة المتطلبة اى عن طريق نتائج البحوث الواقعية فى المجتمع المصرى ذاته وعنده يمكن ان توجد النظريات والقوانين العلمية وهى من العلوم التى تأسس على هذه النظريات والقوانين وانى أدعو الى ذلك فانى ارجو أن يبدأ المسئولون عن الخدمة الاجتماعية فى مصر بالاهتمام بتقييم طـــرق الخدمة الاجتماعية المهنية ، كما تطبق فى مجتمعنا ، تقييما علميا ، اى عن طريق البحوث الواقعية ، تمهيدا لتقنينها وفقا لظروف محتمعنا الثقافية الاجتمـــاعية والاقتصــادية ، فى الريف وفى الحضر وفى مجتمــع

البداوة .
وقبل ان اواصل حديثى فاننى اود ان أؤكد هنا انه اذا كان المغفور له الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام والبروفسور جون لويس قد تركوا ، كأساتذة لى ، بصماتهم على شخصيتى ، كل فى حدود اختصاصه وفى حدود الاساليب التى اتبعها معى ، فان البروفسور البرت موريس هو ايضا كأستاذى قد ترك بصماته على شخصيتى . انه كان فى تخصصه كعالم اجتماع متخصص فى علم الاجرام موسوعة حية . وقد شهدت بذلك كتبه والجامعات العديدة التى كان يذهب اليها سنويا كأستاذ زائر فضلا عن آلاف الطالبات والطلبة الذين خرجوا من تحت عباءته . سواء كانوا من بنات وابناء الولايات المتحدة او من غيرهم . كان البروفسور موريس فضلا عن فيض علمه الغزير ابا رحيما لى . لم يكن وحده الاب الكريم الذى احتضننى وانا التائه الغريب فى محيط الحياة فى مدينة بوستن ، بل كانت السيدة الفاضلة زوجته « دوروثى » الام الكريمة الرحيمة التى كانت تستقبلنى ، عندما كان يدعونى البروفسور موريس الى تناول طعام الغداء او طعام العشاء فى بيتها ، وكأننى احد ابنائها . اننى بكل الصدق والامانة وانا الان اكتب هذه السطور فى الوقت الذى كدت ان ابلغ سن السبعين من عمرى ، اذكر بالحب والاحترام هذا الرجل . انه كان يقول لى دائما عندما اشكره على شىء كريم بذله من اجلى « لا تشكرنى ياسيد انت تستحق كل الرأى التشجيع التى اسديها اليك كما يسديها اليك اساتذتك الاخرون . لانك طالب جاد ومجد ولانك شخص مهذب ولانك صديق » . كنت احس وانا معه فى المكتب او فى العربة بجواره وهو

بسوقها او فى بيته بالسعادة الحقة تغمرنى . فقد كان مصدرا للحب ومصدرا للاحترام ومصدرا للعلم والمعرفة كان وانا جالس معه يشع كل ذلك ، وكنت اتذوق كل ذلك بنهم المحروم الذى يعيش مغتربا فى بلاد الغربة .
وكان البروفسور موريس رجلا كريما حقا . ولا يضن على الاخرين بشىء يملكه ، معنويا كان اوماديا ، اذا كان السائل فى حاجة اليه . واقصد بالشىء المادى هنا المراجع النادرة التى لا تجدها الا فى مكتبته . فلم يكن يعطى نقودا لاحد مثلا . ولكنه اذا عرف أن شخصا فى حاجة الى مال ويستحق ذلك فانه يسعى جهده لكى يجد العمل الذى يدر عليه هذا المال . أنظر اليه وهو يحاضر الطالبات والطلبة . تجده لا يحاضر فقط فى علم الاجرام ولكن يضيف الكثير من خبراته التى استقاها من المجتمعات التى زارها وهى عديدة منها المجتمعات المحلية « كاليفورنيا ونيوميكسيكو وكولومبيا مثلا » او المجتمعات الاجنبية « ملبورن باستراليا ونيوزيلاندا ومصر والدانيمارك مثلا » . وكان أسلوب القائه واضحا سلسلا عذبا . كنت وانا الاجنبى فى الفترة الاولى من حياتى فى جامعة بوستن افهم كل ماكان يقوله فى المحاضرة ، على عكس الاساتذة الاخرين فكنت افهم من بعضهم ٥٠٪ مما كانوا يقولون ومن بعضهم الاخر ٧٠٪ مما كانوا يقولون . وخبراته فى صميم علم الاجرام كانت عديدة وعميقة . فقد كان رئيس اللجنة التى كانت تخطط من اجل وضع برنامج خاص للشباب فى مدينة بوستن ، وكان مستشارا للجنة المتفرعة من « اللجنة التشريعية لمجلس الشيوخ الاميركى « عندما كانت تبحث مشكلة جناح الاحداث ، وكان عضوا فى مجلس ادارة « الجمعية المتحدة للسجون في ولاية ماساتشوستس» ،

وكان عضوا فى مجلس أدارة « المنظمة الاميريكية لالغاء الحكم بالاعدام » ، وكان عضوا في « جمعية علم الاجتماع الاميريكية » ، وكان عضوا فى « الجمعية الشرقية لعلم الاجتماع » ، وكان عضوا فى « الاكاديمية الاميريكية لعلم الاجتماع السياسى » ، وكان عضوا فى « المؤتمر الاميريكي للعقاب » . وقد مثل البروفسور موريس لسنوات العديد من الهيئات والمنظمات وكان فيها على سبيل المثال لا الحصر « جمعية علم الاجتماع الاميريكية » و « منظمة السجون الاميريكية » . وكم حاولت عندما عدت الى القاهرة الحبيبة أن تدعوه ادارة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عندما كان لا يزال « المعهد القومى للبحوث الجنائية » وكنت قد عينت فيه خبيرا مساعدا ، وبخاصة فى بدء حياة هذا المعهد لكي يمنحها هذا الاستاذ الكبير بعض خبراته ولكن جهودي فى هذا الصدد مع الاسف الشديد ذهبت سدى . ان هدفى فى ذلك الحين من مجيء رجل مثل البروفسور موريس وبخاصة فى التوقيت الذى كنت قد ناديت بدعوته ، كما لايخفى على القارىء ، أن نبدا عملنا على أسس سليمة وبخاصة فقد كانت مهنة البحث العلمى الاجتماعي بعامة والبحث العلمى الجنائى بخاصة مازالت في أول عهدها فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، اقصد منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما عند كتابة هذه السطور .

وفى خلال شهر ابريل عام ١٩٥٤ ، فى الاسبوع الاخير منه ، بعد ان اديت امتحانات الموضوعات الدراسية للفصل الدراسى الثانى تمت الموافقة على البحث الذى قدمته عن موضوع « الاختبار القضائى فى مصر الحديثة» وفى يوم ٦ من شهر يونيو عام ١٩٥٤ ، منحت درجة

الماجستير . ولما كانت الدرجات التى حصلت عليهـا فى الموضوعات الدراسية للفصل الاول والفصل الثـانى درجات مرتفعة ، فقد حصلت على الدرجات النهائية فى سبع موضوعات من احد عشر موضوعا ، فان البروفسور موريس قام بجهد كبير من اجل مد المنحة الدراسـية سنة اخرى . كتب من أجل تحقيق هذا الهـدف « الكبير » تقريرا لم ار مضمونه الى « ادارة التربيـة الدولية » التى كانت تشرف على علميا فى اثناء وجودى في الولايات المتحدة ، وقد ضمن هـذا التقـرير خبر حصولى على « الدبلوم العالى للتربية : جامعة لندن » الذى جاءنى عنه خطاب رسمى من جامعة لنـدن قبل ذلك ، وعلم به البروفسور موريس فى حينه . وكـانت النتيجة ان وافقت الادارة « على مد المنحة لمدة عـام آخر . وكان حصولى على درجة الماجستير قد أسعدنى حقا ، وبدأ الامل يداعبنى فى الحصول على درجـة الدكتوراه . لم أكن أعلم متى سيحدث ذلك . ولكن كما قال لى البروفسور موريس ذات مـرة ان الامر كله « يتوقف على جهودى وليس على جهود أحد غيرى » .

وجاء يوم التخرج والجامعة تحتفل بهذا اليوم احتفـالا كبيرا . كان كل الخريجات والخريجين مع ذويهم وضيوف الجامعة يحضرون هذا الاحتفال المهيب . وكان على ان استأجر « روبا » من الجامعة لكى البسـه وانا اتسـلم الشهادة الدالة على حصولى على الدرجة الممنوحة لى .

وكان كل خريج عندما ينادى على اسـمه ويعطى شهادة الشهادة يرفعها بيده لكى يراها الحاضرون ومنهـم بالضرورة أعضاء أسرته . وانني أذكر انه قد نودى على اسمى وتسلمت الشهادة ورفعتها بيدى لـكى يراها الحاضرون الذين بسبب الدموع التى غطت عينى لم

ار امامي منهم احدا . كنت الوح بالشهادة كما كان يفعل غيري فحسب . ولم اكن ادري اذا كانت دموعي دموع فرح وانتصار او دموع حزن واسى . فقد كنت في هذا الاحتفال ، على الرغم من جموع الآدميين الذين كانوا حولي ، وحدي . لم يكن اعضاء أسرتي الصغيرة بينهم . لم يرني واحد منهم . أن من رآني لم يكن يمتون لي بصلة قرابية . كانوا من البشر مافي ذلك من شك . وربما فرح بعضهم من أجل حصولي على الدرجة فرحا صادقا . وربما لم يفرح احد . ولكنني كنت متأكدا عندما يعلم اعضاء أسرتي الصغيرة اذا مانقلت اليهم عن طـــريق خطاب خبر نجاحي أنهم سيفرحون حقا وصدقا .

وكان امامي شهور ثلاثة اعيشها خارج الجامعة حتى تبدأ الدراسة في شهر سبتمبر عام ١٩٥٤ . وفوجئت بأن زميلاتي وزملائي بالمحلة قد غادروها الى أسرهم . وبقيت مع الشاب الكندي الذي آثر البقاء في المحلة . وقد توطدت الصلة بيننا . فقد كنا نتحدث سويا ونأكل سويا ونقرأ الجرائد سويا . ونذهب الى دار السـينما « احيانا » سويا . ومع ذلك فان معظم الوقت كنت وحدي . وكنت في الليل ابقى ســاهرا اذكر المــاضي القريب عندما بدأت الحياة في محلة نورفلك وقابلني مستر ديفيز مديرها . تذكرت الجماعة التي كنت أشــرف عليها ، اقصد « جماعة الفيبرز » الشبان الزنوج . كيف بدأت معهم وكيف كان رد الفعل عندما علموا بأنني ساكون المشرف عليهم كأعضاء في المحلة . كنت لا املك لهم ، وانا لا املك غير ذلك ، الا الحب والاحترام . كانوا في اول الامر لا يثقون في الثقة التي أبغيها منهـــم لـكي افيدهم بخبراتي وافيد بخبراتهم . كانت اللغـــة في

اول الامر عائقا بينى وبينهم ، فقد كانوا يتحدثون اللغة « الاميركية » بأسلوب الرجل العـــادى غير المثقف ، وكانوا اذ يتحدثون معى او مع بعضهم البعض ، يتحدثون بسرعة . وكنت عندما اتحدث اليهم وكانت لغتى هى اللغة الفصحى يسخرون من لغتى ويداعبوننى . كنـــا نتقابل يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة مساء . وكنت اسبق حضورهم ، اذ كانوا يتلكأون فى الحضور ويتاخرون عن المواعيد المحددة . وكنت اجلس انتظر مؤمنا بأن حبى لهم واحترامى سيشعرون بهما حتما فى يوم من الايام .
وفى احدى الليالى فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ انتظرت جماعة الفيبرز ، ولكن لم يحضر احد . ومر الوقت فاذا بالساعة تشير الى السابعة والنصف مساء . فحزمت امرى على ان اذهب اليهم ، فقد كنت اعلم ان المدارس فى حى روكسبرى تفتح ابوابها للشباب مساء لكى يقضوا اوقات فراغهم كلما عن لهم ذلك . لم يكن هناك اشراف مهنى فى هذه المدارس على من يحضر من شباب الحى او من غيرهم من الشباب . وذكرت لمستر « دن يونج » ماعزمت عليه فلم يقف فى ســـبيلى وترك الامر لى . وذهبت فى شوارع حى روكسبرى التمس المدارس التى تقع فيه ، وكان البرد قارسا حقا ، وسرعان ماوجدت اعضاء جماعة الفيبرز فى احد الملاعب فى احدى المدارس . رايتهم وما ان رأونى حتى ســارعوا الى استقبالى وطلبت منهم الذهاب معى الى محـــلة نورفلك ، فقد انتظرت طويلا ولم يحضر احد . وابلغتهم فى حب واحترام ان هذه المحلة قد اتاحت لهم الفرصة كى ينشطوا ماشاء لهم من النشاط المشروع فى حدود الوقت المحدود . ورايتهم يحيطون بى ويتبعوننى ، وذهبنا

الى المحلة ودخلنا من الباب الى الحجرة المخصصة لنا حيث تعهد الجميع على عدم التاخير في يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع فى خلال الفترة المسائية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة . وقد وفوا بوعدهم منذ ذلك الحين الى ان تركت المحلة بعد ان اديت مهمتي الدراسية بحصولى على درجة الدكتوراه فى شهر مايو عام ١٩٥٦ . لقد ايقنت منذ تلك الليلة فى اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ باننى كسرت « لوح الثلج » الذى كان يقف عائقا بينى وبين جماعة الفيبرز . وقد تأكد ذلك عندما تبرعوا لكى يشتروا لى « هدية » بمناسبة « عيد الكريسماس » ، وعندما دعونى لحضور كنيستهم صباح يوم احد من الآحاد ، وعندما دعاني رئيسهم الي طعام الغداء في بيتهم المجاور للمحلة . وعندما كنا نتبادل الزيارات العديدة بعد ذلك ، هم ياتون عندي في المحلة وانا اذهب الى بيوتهم . وتوطدت صداقتى الخالصة بهم وبأعضاء اسرهم . ولن انسى ما حييت زياراتي لبيت عضوين منهما وهما « بنى » و « دبى » . كان البيت فى احدى حوارى حى روكسبرى الفقيرة جدا ، واذا بى وانا فى الشقة اجدها نظيفة جدا واثاثها يتضمن « البيانو » و « المكتبة » التى تتكدس فيها الكتب والمجلات من كل نوع . ولن انسى الرجل الزنجي كبير السن الذى قابلته فى احد الممرات ، كان الجد الكبير ، ويبدو انه كان فى الثمانين من عمره ، للعضوين المذكورين . وقد كان هذا الرجل الهرم لطيفا معى واحتفى بى ، فانا قد جئت من قارة افريقيا ، احتفاء كبيرا . وتحدث معي كثيرا وكان يقول لى فى يقين « يابني لا تثق ابدا فى الرجل الابيض ولا تذهب الى دار سينما ولا الى مطعم وتجنب الرجل الابيض » . وانا اذكر الآن انني عندما ابلغت مستر « دن يونج » عن

اول دعوة الى زيارة بيت من بيوت اعضاء الجماعة ، شجعني على الذهاب . فهولم ير في حياته بيت زنجي من الداخل واذا اضطر الى الذهاب الى بيت احدهم فان اهل البيت لا يسمحون له بالدخول ويتعمدون أن يبقى واقفا أمام البيت حتى يقضى حاجته . ان مستر دون يونج اعتبر هذه الدعوة الاولى لى نجاحا ساحقا لى فقد تأكد من توطيد الثقة بيني وبين اعضاء الجماعة .
وانا اذا ذكرت « بني ودبي » فانني لايمكن ان انسى ذكر « البرني ومنك واريك » . كان عدد أعضاء الجماعة خمسة عشر شابا من سن الخامسة عشرة الى سن العشرين . وكانت مواهبهم شتى . كانوا يغنون وكانوا يرقصون وكانوا يتقنون لعبة كرة السلة . وكانوا في كل هذه النشاطات وغيرها موضع حسد باقي أعضاء المحلة . واعتبروني اخا كبيرا لهم ، وكان بعضهم يعتبرني ابا . وكان عندي يوم الاثنين مساء ويوم الاربعاء مساء من اسعد الايام التى قضيتها لا في محلة نورفلك فحسب بل في الولايات المتحدة الامريكية كلها . كنت انتظر هذين اليومين . فقد كانا لى بمثابة العلاج لما كنت اعاني من الوان الاغتراب في المجتمع الذى كنت اعيش فيه في ذلك الحين . كنت اشعر بانهم اقرب الناس الى وانني من اقرب الناس اليهم . كان بعضهم من السمر ، وكان بعضهم من السود ، وكان من بينهم شاب ملامح وجهه كلها ملامح وجه اى شخص اسود وكان شعره « أكرت » ولكنه كان ابيض ذا شعر احمر . وقد قبله اعضاء الجماعة على انه زنجي لانه كان من المحال ان يقبله الاعضاء البيض على انه ابيض مثلهم . كان هذا الشاب قريبا الى نفسي لانني كنت أحس بكل ماكان يشعر به ، ولعلى أن نجحت في تيسير اشتراكه مع اعضاء جماعة الفبرز

فى كلّ نشاطاتهم . كان هذا الشاب يتسولَ الاعتراف به بل كان يتسول الحنان والحب من الآخرين . تماما كما كنت افعل . فانا فى حجرتى اذا دخل على واحد من النزلاء زملائى كنت ابادر بأن اقدم له كل ماعندى من فاكهة او حلوى او .. او . كان هؤلاء الزمـــلاء يعرفون ذلك عنى فيتناوبون الدخول الى حجرتى لـكى ياخذوا دون ان يعطوا ، وكنت اعلم ذلك علم اليقـين ولكنى كنت راضيا عن تصرفى كل الرضـــا . ذلك لان حضور احدهم يعنى وجود انيس لى كما يعنى الاعتراف بوجودى ، ويعنى كذلك كسر حدة الاغتراب الذى كنت اعانيه . كل ذلك نظير ثمن بخس : برتقالة مثـــلا او تفاحة مثلا او قطعة من الشيكولاته مثلا . وكان الاطفال يسارعون الى لكى يفعلوا ماكان يفعله الكبار ، كـانوا لا يكفيهم ما امدهم به من حاجات عينية ولكنهم كانوا يطلبون نقودا لا تعدو بضعة السنتات . وعندما يخرج احدهم من الحجرة ومعه « نيكل » « مايوازى خمسة سنتات » مثلا يذهب توا الى امه او الى ابيه او الى اخته او الى اخيه ليرى من يذهب اليه كيف نجح فى « نشل » هذا المبلغ منى ! ولكنى كنت سعيداً بكل ذلك فقد كان هؤلاء الاطفال يذكروننى باطفالى عندما كانوا فى مثـل سنى ، وكانوا يملأون كيانى بالسعادة الحقة . فانا كنت نفسيا فى حاجة الى حضورهم كما كنت ايضا فى حاجة الى حضور آبائهم او حضور النزلاء الشبان زمـلائى . اننى كنت كما ذكرت اتسول الاعتراف بى واتســـول الحنان والحب من الاخرين نظير ثمن بخس . ولم تمنع نشاطاتى فى المحلة وزيارات ضيوفى من النزلاء والاطفال من استذكار دروسى فى المواعيد المقررة . بل على العكس لقد كانت عونا على ذلك . كما كانت فرصة رائعة لاغوص

في بعض الالوان من الظواهر الاجتمـــاعية والروابط الانسانية وانماط الســلوك البشرى ، ومن ثم تزداد خبرتى بالانسان مما ييسر لى ان اعلم اكثر لكى افهـم اكثر ومن ثم استطيع ان اعلم اكثر . اليس من تعلم عليه ان يعلم ؟ وانا قد نذرت نفسى لذلك سواء كنت ف الولايات المتحدة الاميريكية او في مصرنا الخالدة . وكان ما اسعدنى ان ارى مصريا ، واننى اذكر اننى رايت احد المواطنين الذين يدرسون للحصول على درجة الدكتوراه في اللاهوت . وكان وحيدا مثلى . فدعوته الى تنـاول الطعام العشاء فى احد المطـــاعم التى يديرها بعض اللبنانيين وهم كثير فى مدينة بوستن لكى تأكـــل بعض اصناف الطعام التى تعودنا عليها فى وطننا العزيز مثل « المحشى » و « الكباب » و « الكسكسى » .. الخ . وذهبنا وكان البرد قارسا ، ولكن حرارة اللقاء بددت برودة الجو . وتناولنا الطعام ، وكان طعام العشاء ، وحمدنا الله جل وعلا . ثم آثرنا ان نسير على الاقـدام فى الشارع على الرغم من البرودة القاسية . كـانت المشاعر الحميدة تغمرنى وتسعدنى فى نفس الوقت ، ولم اكن آبه الا اننى فى صحبة مواطن مكث معى بضع ساعات . وفى اثناء الطريق قابل المواطن احد القساوسة الاميريكيين سائرا ايضا فى الشارع ذاهبا الى الجهة المضادة ، فسلما بحرارة وتبادلا التحيات الطيبات وانا واقف بجوار مواطنى وانا صامت حتى يقـدمنى الى صديقه . وقدمنى اليه ومد الرجـــل يده وسرعان ماسحبها اذ سمع مواطنى قوله اننى فلان ادرس للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، واننى مسلم . ورايت الرجل يمد يده للمصافحة فمددت يدى ولكن المصافحة لم تتم عندما سمع كلمة « مسلم » . وسرعان

ما احسست بحبات العرق تسيل من وجهي خجلا على الرغم من برودة الجو واكفهراره . واحسست بأن حبات العرق قد تجمدت على وجهي . ثم سرنا الى مقصدنا ، اى سرت ومواطنى الى حيث نسكن . كان يسكن بعيدا عنى ، وكنت اقرب الى بيتى منه الى بيته . وعندما عاتبته على اسلوب تقديمى الى هذا الرجل المتعصب اعتذر فى حرارة ، وقبلت اعتذاره وانا ساخط . وسرت فى طريقى وانا امارس كونى عضوا من اعضاء جماعات الاقلية فى المجتمع الذى اعيش فيه . والتمست العذر لاعضاء جماعات الاقلية فى المجتمع المصرى ، وبخاصة جماعة الاقباط على الرغم من سيادة قيمة التسامح فى ربوع هذا المجتمع .

واذا كانت الحياة فيها الشر ويتمثل فى البغضاء والتعصب مثلا ، فان فيها ايضا الخير ويتمثل فى المحبة والولاء مثلا . وانا اذكر ذلك فالقارىء يعلم الان ما كان من امر استاذى البروفسور البرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه الكثير ، وهو يعلم أيضا ما أحاطنى زملائى فى المحلة فى ضوء ثقافاتهم من رعاية واهتمام وتشجيع . وحتى الزميلات كن فى الغالب أكثر من زميلات ، وكن يحاولن وبخاصة فى عطلة نهاية الاسبوع اقناعى وآخرين من الشبان لنذهب الى احد محلات « هوارد جونسون » المشهورة لكى نتعاطى طعاما أو شرابا . وكان يدفع كل واحد منا ثمن مايتناوله . وكانت وسيلة الانتقال احدى السيارات التى يملكها احدهم او تملكها احداهن . وانا اذكر اننى ذهبت فى اثناء أحدى العطلات الى « ولاية فيرمونت » التى تلامس حدودها حدود « كندا » . واننى اذكر ايضا اننا وصلنا الى هدفنا بعد أكثر من ست ساعات وسرنا فى خلالها فى حقول من التفاح التى

تركها اصحابها تثمر دون ان يجمعوا المحصول حتى لا يزيد العرض من التفاح فى السوق فينقص الثمن . وكنا نأخذ من ثمرات التفاح « الطازجة » ماتريد ولا رقيب ولا حسيب . ولا يمكن الا ان اذكر احد الزملاء من نزلاء محلة نورفلك الذى دعانى لقضاء عطلة « عيدالكريسماس » فى منزله . وقد رحبت بى السيدة زوجته وابنه « ميكى » وكان فى العاشرة من عمره وابنته « مارثا » وكانت فى الثامنة من عمرها . رحبوا بى جميعا ، ونمت فى احدى الحجرات وقضينا وقتا طيبا فى البيت وفى خارج البيت . وقد ذكرت لى احدى الانسات المصريات التى قابلتها فى الجامعة ان المشرفة على احدى الجمعيات والتى كانت تدير دارا للضيافة ينزل فيه من يحب نظير تأدية بعض الخدمات ، سمعت عن وجودى وتطلب مقابلتى . كانت « مس وليامز » وقد بدت لى عندما رأيتها انها فى الستين من عمرها ولكنها كانت فى صحة جيدة جدا . وتحدثت اليها تليفونيا وسرعان ما دعتنى الى زيارتها . وزرتها فعلا وكانت كريمة فى كل حركاتها وسكناتها وحديثها . وانني اذكر اننى تناولت مع طالبة يابانية معها طعام العشاء ، فكانت ـ على الرغم من انها لم تسعد بممارسة الامومة ـ اما لنا . واتصلت علاقاتى بهذه الانسانة وتكررت زياراتى لها . وقد اصرت على دعوتى الى مصيف « روك بورت » بعد حصولى على درجة الماجستير لقضاء اسبوع للاستجمام . وهذا المصيف عبارة عن مدينة صغيرة تقع على المحيط الاطلنطى وقد ذهبت فعلا الى المصيف ، وكنت ضيفا عليها طوال الفترة التى قضيتها فى هذا المصيف ، وعندما قابلت « دكتور موريس ساندرز » الذى كان « ملحقا صحيا » فى سفارة الولايات المتحدة بمدينة بيروت . وبدا لى منذ

اول وهلة ان هذا المصيف مصيف كبار القوم . وتأكد لى حدسى بأن عائلة « فوستر دلاس » لها بيت فيـه ، وغيرها من الاسر ذات المكانات العالية سواء كانت هذه المكانات سياسية او اقتصادية او ثقافية لها بيوت فيه . وكان للدكتور ساندرز بيت كبير مزود بالاثاث الفاخر الذى يملأ الحجرات العديدة فيه . وفى روك بورت قابلت الكاتب المعروف « شارد بورز سميث » ، وهو مثل الكثيرين الذين يسكنون فى المصيف « يانـكى » مائة فى المائة تماما مثل دكتور ساندرز . ويكفى أن اقول هنا ان هذا الكاتب شاعر ومؤرخ ويكتب الرواية . وقد يخالفنى الرجل عندما ذكرت انه يانكى مائة فى المائة . لانه يرى ان ٣/٤ سـلالته تتكون من سلالة « انجلترا الجديدة » اما الربع الاخير فمن سلالة هاجـرت من انجلترا فى القرن التاسع عشر . والمعروف ان انجلترا الجديدة هى معقل كل « يانكى » فى الولايات المتحدة . كان هذا الرجل ضيفا مثلى فى صيف عام ١٩٥٤ على مائدة احدى السيدات الامريكيات الثريات جـدا التى كانت تستأجر الآنسات « الاسكاندينيفيات » للعمـل فى بيتها الفخم بأجر نقدى لا يقل عن ثلثمائة دولار شهريا اى بأجر يماثل ماكان يحصل عليه اخصائى اجتمـاعى حائز على درجة الماجستير فى ذلك الحين . ولا يجب الاجر النقدى المشار اليه ان تحصل الآنسة العاملة على طعامها وملبسها وماشابه ذلك مجانا . اى ان الواحـدة منهن كانت تحصل على ضعف ما احصل عليه من نقود المنحة الدراسية التى كنت ارسل منها الى أسـرتى الصغيرة مايسر لاعضائها مواجهة ظروف الحياة . كان وجودى فى محلة نورفلك قد وفر على أجر المكان الذى كان يجب ان ابيت فيه . ولم يكن يقل هذا الاجر فى

ذلك الحين عن ٦٠ او ٧٠ دولارا شهريا . هذا اذا كان المكان متواضعا وليس عاديا . اى الذى قد لا توجد فيه مياه ساخنة او اجهزة للتدفئة مركزية او غير مركزية . وانا اذكر ان علاقتى بالمحلة والمشرفين عليها ونزيلاتها ونزلائها كانت اكثر عمقا من علاقتى باساتذتى فى الجامعة ماعدا البروفسور موريس . كنت احترم هؤلاء الاساتذة نعم ، ولكنى فى السنة الاولى لم استطع ان اكون عنهم رايا موضوعيا . ومهما يكن من الامر فان خبراتى عن المجتمع الذى كنت اعيش فيه فى خلال العام الدراسى الاول كانت مبتورة . فقد كنت كالطفل الذى تاه من امه ريسلك الطريق وحده وكانه ضائع احيانا او شبه ضائع احيانا اخرى . ولكن العام مر مر الكرام ولم اشعر بالايام وهى تجرى وتمر مر السحاب . لقد افدت خبرات منتظمة وخبرات غير منتظمة فى خلال ذلك العام مافى ذلك من شك . وقد يسرت لى هذه الخبرات بنوعيها استقبال العام الثانى استقبال الشخص الواثق بنفسه لا الشخص الحائر المتردد مافى ذلك من شك ايضا .

وعلى الرغم من كل ماكان يواجهنى من مهام فقد كنت اتابع ماكان يجرى من احداث سياسية فى الولايات المتحدة وفى العالم وبخاصة فى مصرنا الغالية . كنت اقرا الصحف السيارة والمجلات ، وكنت اسمع للاذاعة ولكننى لم اكن اناقش احدا فى الامور السياسية . فقد عرفت من التجربة ان نوع هذه المناقشة على الرغم مما يقال عن حرية الراى فى المجتمع الاميريكي من غير المرغوب فيه . وان مجرد نطق كلمة « شيوعية » او كلمة « اشتراكية » كان يعتبر طامة كبرى . ومع ذلك فقد كنت اجد فى الحجرة التى نستقبل نحن نزلاء محلة نورفلك ضيوفنا كتبا عن نكبة هيروشيما ونجازاكى

ملقاة على الكراسي ولا يعرف احد من الذى القاها . انها وضعت لتقرا . وقد وجدت يوما كتابا بعنوان « الحرية الاميريكية وقوة الكاثوليك : طبعة عام ١٩٤٩ لمؤلفه « بول بلانشارد » ، وهو كتاب ينعى على هذه القوة التى تزداد برما بعد يوم فى العالم . ويعتبر مدينة « روما » معقل الكاثوليكية مثل مدينة « موسكو » معقل الشيوعية . اى ان المدينتين فى الاهداف سواء . وفى خلال شهر مارس عام ١٩٥٤ جاء فى الاخبار خبر الازمة التى حدثت فى مصر فى ذلك الوقت . تلك الازمة التى كانت متوقعة وبرزت الى حيز الوجود فى ذلك الحين وكانت بين الرئيس محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة ، وفى نفس هذا الشهر وقع الاعتداء المشين على الفقيه العالم الدكتور السنهورى ، وقام الاضراب العام الذى دبره عمال النقل فى مصر وانتهى هذا الاضراب فى يوم ٣٠ من شهر مارس عام ١٩٥٤ ، وانتهى الامر فى يوم ٢٦ من شهر اكتوبر ، من نفس العام ، الى حادث محاولة اغتيال عبد الناصر ، الذى امكنه بعد تصفية حركة الاخوان المسلمين وتتابع القوى السياسية المضادة من قبل ، ان يجعل السلطة الشرعية والفعلية فى يده ، وبخاصة بعد ان فقد الرئيس محمد نجيب مبرر بقائه فى رئاسة الجمهورية فى يوم ١٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ، لقد علمت بكل ذلك وغيره فى خلال عام ١٩٥٤ وانا فى مدينة بوستن . فقد كنت اتابع الاخبار اولا بأول ، وتحققت نبوءة الدكتور « دريك » الذى كان يحاضرنا فى موضوع « الابنية الاجتماعية المقارنة » حيث كان يقول ان فى الثورات يأكل القائمون بها عادة بعضهم البعض وان ثورة عام ١٩٥٢ المصرية ليست استثناء ولن تكون . كان دكتور دريك يقول ذلك وهو يوجه بصره

الى أمام الطالبات والطلبة الذين يحضرون المحاضرة . ولن انسى وساذكر دائما وقع سقوط قلعة « ديان بيان فو » فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ ، وهى التى حاصرها الفيتناميون الاحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قـادة الولايات المتحدة السياسيين وغيرهم عندما استمعت الى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة ، كان رثاء « ندابة » مصرية ، صدر عن قلب مكلوم حزين حقـا . وقد دهشت لان هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى مـن « اقليم فيتنام » ، وان الذين هزموا كانوا من جنـود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة . ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب ، كلها ، هى التى دفعت هـذا المذيع المكلوم الحزين ان يبث مرثاته على بنات وابناء الشعب الاميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ . وبعد أن استمعت الى هذا الرثاء تذكرت « مســتر ومسز بريموكوم » وضيوفهما من النزيلات والنزلاء ، وكان بينهم غيرى اجانب آخرون ، وكان من بين هـؤلاء التى كانت تسكن فى لندن ، وكانوا يتحدثون الفرنسية ، شابان من فيتنام . وقد جاء معظمهم عند هذه الاسرة لكى يتدربوا على الحديث باللغة الانجليزية ، تذكـرت حياتى فى حضن هذه الاسرة فى خلال عام ١٩٤٨ عندما ذهبت الى مدينة لندن لاول مرة ، وتذكرت الشـابين الفيتناميين بعد أن تم انتصار الاحرار من مواطنيهم على الاستعمار الغادر . وقلت فى نفسى لعلهما كانا ضـمن المحاربين او لعل واحدا منهما كان ورجوت من صميم فؤادى أن يكونا قد خرجا اذا كانا قد حاربا بعد الانتصار سالمين . واذا كان الانتصار يولد الانتصار مثل العنف يولد العنف ، فقد طالعتنا الصحف فى خلال شهر مايو

عام ١٩٥٤ بظهور اكتشاف « مركب الشمس » فى مصرنا العزيزة بالقرب من الهرم الاكبر ، هرم خوفو ، لقد دوى هذا الخبر فى الولايات المتحدة بل فى العالم دويا مفرحا . اكد عظمة بلادى ، كما اكد قدمها وخلودها . لقد كان هذا الاكتشاف يرجع الى حوالى ٢٦٥٠ ق.م اى الى مايزيد على ٤٦ قرنا من الزمان . والمعروف ان مصرنا الخالدة قد عرفت عقيدة عبادة الشمس منذ فجر تاريخها ، وكان القدماء يفسرون سير الشمس من الشرق الى الغرب بأن الاله « رع » كان ينتقل فى مركبه عبر السماء حتى يصل الى الغرب ثم يقطع بها العالم الآخر فى اثناء ساعات الليل لتولد الشمس من جديد فى صباح اليوم التالى . واذا اعتبرنا ان المركب التى اكتشفت هى مركب الملك خوفو أو احدى مراكبه ، حيث ان المصريين القدامى قد ذكروا فى نصوص الاهرام اسماء اكثر من خمس مراكب كان الملك يحتاج اليها فى حياته الاخرى : واحدة منها لرحلة الشمس فى أثناء النهار ، وثانية لرحلة الليل ، أما المراكب الاخرى فكانت لنزهاته فى نيل العالم الاخر أو ليركبها فى اثناء عبوره لبعض البحيرات فى العالم الاخر أيضا ــ فان المركب المكتشفة فى خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كما وصفتها الصحف فى ذلك الحين ، كانت فى داخل حفرة مستطيلة منقورة فى صخر هضبة الجيزة جنوبى الهرم الاكبر . لقد كانت مفككة الى اجزاء صنعت من قطع عديدة من خشب الارز التى رتبت بدقة داخل الحفرة . وكان طول الحفرة المستطيلة ٣١ مترا وعرضها ٢ر٦٠ متر وعمقها ٣ر٥٠ متر وتغطيها وتحكم غلقها ٤١ كتلة حجرية تزن الواحدة منها ١٨ طنا فى المتوسط حمتها من تسرب

المياه وتأثيرات المناخ . كنت اقرأ هذه الأوصاف والحقائق وانا مذهول . وايقنت ان سعادتي الحقيقية تغمرني دائما كلما وجدت نفسي امام انتصار الانسان ، انتصاره على الزمن أو انتصاره على الطبيعة وظواهرها أو انتصاره على اية ظاهرة اجتماعية تواجهه وهو يعيش في المجتمع . والانتصار هنا لايعني وجود هزيمة هناك ، وانما يعني التسلط من اجل التغيير الى الافضل حتى ترتفع هامة الانسان الى آفاق الآفاق . وفي خلال الفترة التي تلت اكتشاف مركب الشمس من خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كنت ، وانا في بلد الغربة ، اعيش حالات الاغتراب ، موضع اعجاب من حولي . وكنت عندما يثار الموضوع أؤكد لهم ان فكرة المركب من ورائها أفكار وافكار ، اهمها فكرة البعث . فالشمس تحيا في اثناء النهار . وفي الغروب تبدأ في الموت ، وتموت فعلا في اثناء الليل ، ثم تولد من جديد مع خيوط الفجر . وهكذا دواليك . كذلك الانسان يولد ثم يموت ثم يبعث . عقيدة قديمة قدم الدهر يسرت للانسان ان يعتنق عقيدة قيامة الاموات ، وهذه بدورها قد يسرت عقيدة محاسبة الاموات بعد قيامهم ، اى يسرت الاعتقاد بالمسئولية الخلقية في الحياة الآخرة ، اى أن الحياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقا لسلوك الانسان على وجه الأرض . وفي هذا الضوء اعتقد المصريون القدماء ان الانسان بعد موته سيمثل امام القضاة بشأن هذا السلوك . وعقيدة الحياة بعد الموت لم تحجب ان تكون الحياة قبل الموت عند المصريين القدامى مشتهاة . وكنت في اثناء احاديثي حول هذه الموضوعات التي أوجدها الى حيز الوجود اكتشاف مركب الشمس جنوبي الهرم الاكبر أؤكد على ان المصريين طوال التاريخ وحتى الآن

يكرهون الموت ويخشونه ولكنهم لا يخشون الموتى . وقد كانوا ، ومازالوا ، يخصصون جزءا غير صغير من اموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبة الموت . وذكرت لهم فى اثناء حديثى ان عدم خشية الموتى عند المصريين القدامى والمحدثين يثبته الايمان بقيامتهم وانتشار سرقة مقابرهم ومهما يكن من الامر فان اكتشاف مركب هرم خوفو كان عندى انتصارا لبلدى وانتصارا على ألوان عديدة من القلق التى كانت تساورنى فى ذلك الحين . لقد بدات بهذا الاكتشاف صفحة جديدة فى حياتى كان من شأنها ان زادت من تفاؤلى وان بددت بعض احزانى . وقد ساعدنى على ذلك بعض المواقف التى كنت اواجهها من حين لآخر . فقد كنت قد تعودت عندما اذهب الى الخارج ، فى اللحظات الاولى من وصولى الى البلد الذى اقصده ، خصوصا اذا كانت فترة حياتى فيه طويلة ، ان افعل ثلاثة امور : ان اشترى خريطة تبين معالم البلد ، وان اشترى « راديو صغير » ، لاننى اعتبر جهاز الراديو نافذة رائعة تطل على البانوراما الثقافية الاجتماعية للبلد ، وان اشترى جهازا متواضعا لسماع الموسيقى « بيك آب » وبعض الاسطوانات الموسيقية التى اعرفها ، وبعض الاسطوانات الموسيقية الاخرى التى احاول ان اتعرف عليها . فالموسيقى فى رأيى غذاء روحى لا يمكن الاستغناء عنه خصوصا وانا فى غربتى . وقد فعلت ذلك فى التو واللحظة عندما وصلت الى مدينة بوستن ، كما فعلته من قبل عندما وصلت الى مدينة لندن . وفى يوم من ايام الاحاد ، وانا اذكر الان ذلك جيدا ، لاننى استيقظ فى هذا اليوم متأخرا . وهى عادة اكتسبتها من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة . وقد اكتسبتها فى الواقع مضطرا منفذا حرفية المثل القائل « اذا كنت فى مدينة

روما افعل كما يفعل اهل مدينة روما » ! وكان قد مر على فى مدينة بوستن اكثر من عام لم اسمع فى خلال هذه الفترة كلاما عربيا ، ولم اتحدث بالطبع مع احد باللغة العربية . استيقظت فى ذلك اليوم متأخرا ، وحاولت ان افتح الراديو الصغير ، وكان بجوار السرير . وكنت مازلت شبه نائم ، ويبدو ان المشير الى المحطات قد تحرك فى اثناء ذلك واشار الى محطة معينة لم اكن اعيرها اهتماما من قبل ، لافى ايام الآحاد ولا فى غيرها . وبعد برهة سمعت من هذه المحطة ما اذهلنى . كنت نائما او شبه نائم فاستيقظت ، عيناى مفتوحتان ، ونبضات قلبى تدق فى عنف ، والدم دمى يسرى فى سرعة مذهلة الى وجنتى . ووجدت نفسى على الارض ارض الحجرة تاركا السرير ارقص على نغمات اغنية « المطربة اسمهان » ، واذكر انها كانت اغنية :

« اهوى .. اهوى .. يامين يقوللى قهوة »

وعرفت المحطة ، وتأكدت من رقم موجتها ، ومن فترة العمل بها . وعرفت انها تذيع برنامجا عربيا خاصا بالاقلية السورية واللبنانية التى تعيش فى مدينة بوستن وكان يذاع هذا البرنامج كل يوم احد فى نفس الوقت الذى حدث لى فيه ماحدث ولمدة نحو ساعة . وكنت دائما مع هذا البرنامج فى موعده المحدد طوال الفترة التى مكثتها فى مدينة بوستن بعد ذلك . وكان اذا حدث لسبب قهرى اننى لم استمع له كنت اشعر بأننى فقدت شيئا عزيزا . ومما دهشت له ، ولا ازال ، ان التغيرات التى حدثت فى كيانى ، وبخاصة البيولوجية منها ، عندما استمعت لهذا البرنامج فى اول مرة كانت تحدث وتتكرر فى كل مرة استمعت له . واننى اذكر ان بعض زملائى فى محلة نورفلك قد عرفوا ذلك . فكانوا

هم ايضا يأتون فى الموعد المحدد ويستمعون للبرنامج .
وكانوا يروننى وانا على هذه الحال من السرور الغريب
الذى كان يملأ على كيانى . كما كانوا يرون انفعالاتى
وآثار ازدياد نبضات قلبى واحمرار وجنتى وخفتى
ورقصى .. الخ . اما هم فقد كانوا يجلسون كالاصنام
مبهوتين ، ينظرون الى وافواههم شبه مفتوحة . أما
الموسيقى فقد كانوا لا يعيرونها اى اهتمام ، وكذلك
الاغانى . وكان اذا حاول احدهم ان « يتظرف » أو
يسخر ينطلق مقلدا الموسيقى او الاغنية المذاعة بصوته
المزعج مما كان يدعونى الى الثورة عليه ويدعو الاخرين
الصامتين الى محاولة اسكاته مجاملة لى . وانا أسائل
نفسى فى هذه اللحظة ، لحظة كتابة هذه السطور قائلا :
اذا حدثت التغيرات البيولوجية عند استماعى لهذا
البرنامج فى كيانى ؟ وانا لا اعرف الاجابة الشافية عن
هذا السؤال .. ولكن لعلنى ان لا اكون مخطئا خطأ
جسيما اذا بدا لى ان الجهاز العصبى فى جسمى يفعل
مايفعله الجهاز الهضمى . فالجهاز الهضمى اذا أكلت
كسرة من الخبز ، مثلا ، يضعها ثم يبلعها ثم يهضمها
ثم يتمثلها ، ويصبح الجزء الصالح منها بعد ذلك جزءا
من جسمى . فهل يفعل الجهاز العصبى ، ياترى ، ذلك
فى كيانى بطريقة او باخرى ازاء المواقف الاجتماعية التى
اواجهها والخبرات الثقافية الاجتماعية التى اعيشها ،
وازاء القيم التى اعتنقها فضلا عن الاتجاهات التى تكون
من ورائها عادة هذه القمم ؟ اى هل الجهاز العصبى
يستوعب هذه الامور ثم يهضمها ثم يتمثلها ؟ ولكن
يلاحظ أن كسرة الخبز تؤثر مافى ذلك من شك فى
جسمى بيولوجيا . ومن التجارب السابقة فعلت ذلك
فى جسمى : الموسيقى العربية التى سمعتها وكذلك الاغانى

العربية وحتى الالفاظ العربية . وكسرة الخبز كما يعلم القارىء شيء مادى والاستماع للموسيقى العربية أو للأغانى العربية او للالفاظ العربية يعنى الاستماع لقيم وافكار . فهل يعنى هذا ان المادة « كسرة الخبز مثلا » وان الفكرة « قطعة الموسيقى او الاغانى او الالفاظ العربية المشار اليها مثلا » تتلاقيان ؟ أو ان الجهاز العصبى والجهاز الهضمي يعملان متعاونين ؟ واذا كانت المادة فى شخص كسرة الخبز مثلا والفكرة فى شخص قطعة الموسيقى او الاغانى او الالفاظ العربية مثلا تتلاقيان ، فهل هما تتلاقيان فى شخصيتى وفى شخصية كل من الاشخاص الذين يمرون بنفس التجارب؟ هل هما ، فى ضوء كل هذه الامور ، شيء واحد ؟ اى هل المادة تغنى عن الفكرة؟ او بالاحرى هل الفكرة تغنى عن المادة فى بعض الاحيان ، عشت فى هذا المحيط من الاسئلة والاجابات وتذكرت الحديث الشريف :

« ليس لابن آدم حق فىُ سوى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز ، والماء رواه الترمذى وقال حديث صحيح . « الجلف : الخبز ليس معه ادام » .

ومن المواقف التى لايمكن الا ان أتذكرها موقف احد الزملاء فى محلة نورفلك . كان اذا اتى عيد«الكريسماس» يصر على دعوتى . فالكل يذهبون الى ذويهم فكان يأبى أن يتركنى وحدى . وقد مرت على وانا اعيش فى مدينة نوستش ثلاثة اعياد ، ذهبت فى اثنائها كلها معه فى منزل اسرة ابيه حيث نجد أمه واخوته الذكور الاربعة وزوجاتهم وبناتهم وبنيهم . وكان الجميع وبخاصة الاب والام يعاملاننى وكأننى ابن لهما . وكنت أعيش هذه الفترة مع الجميع وانا احاول بصعوبة نفسية شديدة ان اكون

ابنا للاسرة الكبيرة . كنت أفعل مايفعلون . فاذا أكلوا
اكلت واذا شربوا شربت وعندما كانوا يحوطون حــول
« شجرة الكريسماس » كنت تجدنى معهم . وكــانت
توزع الهدايا وكان لى نصيب منها . كانت اسرة بسيطة
وكان اعضاؤها على اختلاف مشاربهم مرحين . تجدهم
يغنون باصواتهم على نغمات آلة الكمنجة التى كان يتقن
اللعب عليها اكثر من واحد منهم . ويمر الوقت سريعا
وسط الضجيج والضحكات والنكات وانغام الاغــانى
والموسيقى ، ثم يستعد الجميع الى العودة بعد أن يبيتون
لدلتهم ، وكانت الام تهتم بمكان النوم الذى اختير لى
لكى أبيت فيه . كنت اشعر بصدق حنانها واهتمامهــا
بى . وكان لسانى لا يفتر عن شكرها الشكر الجزيل على
الكرم الذى اولانى به جميع اعضــاء الاسرة وهى على
راسهم . وانا اذكر اننى عندما كنت استيقظ فى صباح
يوم ٢٥ من شهر ديسمبر يكون طعام الافطار معدا لى
ويكون ابناء الاسرة وزوجاتهم وبناتهم وبنيهم ماعدا زميلى
فى محلة نورفلك قد عادوا من حيث أتوا بعد أن ادى
كل واحد منهم واجبه نحو الاب الشيخ والام العجوز .
وابقى مع زميلى فترة من الوقت مع الاب الذى كــان
يحادثنى فى شتى الامور فى مايعرفه منها حق المعــرفة
ومالا يعرفه منها حق المعرفة ، وكنت احاول ان اسعده
بالانصات اليه ، وكنت قد قررت عدم مناقشة مايقول
ولكنى مع الاسف الشديد لم اكن التزم بقرارى فى بعض
الاحيان . ومهما يكن من الامر فان قضاء الوقت مع هذه
الاسرة البسيطة المرحة المتماسكة فى ذلك الوقت مــن
العام كان يعتبر تغييرا لطيفا لجميع الاطراف . وقبــل
الظهيرة او بعدها نعود بدورنا زميلى وانا الى محلة نورفلك
اى من حيث اتينا . وتكرر الذهاب الى هذه الاســرة

ثلاث مرات . وكانت المرة الاخيرة عندى اسعد المرات . لاننى كنت قد اديت بعدها مهمتى العلمية وحان الحين لكى أعود الى مصرنا الخالدة .

واستقبلنى الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ كخطوة فى سبيلى للحصول على الدرجة المرموقة « اقصد درجة الدكتوراه » . واستقبلته بترحاب شديدة . وقدعلمت انه على ان امتحن فى موضوعات دراسية يكون عدد ساعات القائها فى الاسبوع من خلال فترة الدراسة ٤٨ ساعة للحصول على هذه الدرجة . وبالاضافة الى ذلك على ان اقدم بحثا فى موضوع مبتكر يضيف شيئا جديدا الى الدراسات التى يهتم بها علم الاجرام ميدان تخصصى الذى اختير لى . ويعنى ذلك أننى لا استطيع أن أقوم بهذا العبء فى عام اكاديمى واحد . ومن ثم طلبت مساعدة البروفسور موريس فى اختيار موضوعات الدراسة فى الفصل الدراسى الاول كما فعل قبل ذلك . وقد رجوت البروفسور موريس أن يأخذ فى اعتباره عند الاختيار أن أواصل الدراسة فى خلال شهور الصيف اذا كان ذلك متاحا . ومن حسن حظى ان ذلك كان متاحا . وقد تم اختيار موضوعات الدراسة فى الفصل الدراسى الاول من العـــام الاكـــاديمى ١٩٥٤ــ١٩٥٥ على أساس ١٥ ساعة فى الاسبوع . على أن يكون اختيار موضوعات الدراسة فى الفصل الدراسى الثانى من هذا العام على نفس الاساس . وفى خلال شهور الصيف ادرس موضوعات اخرى على اساس ست ساعات فى الاسبوع . ويعنى ذلك اننى اذا نجحت فى هذه الموضوعات أكون قد درست حتى بداية الفصل

الدراسي الاول من العام الثاني ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ،موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها في الاسبوع في فترة الدراسة المشار اليها ٣٦ ساعة . وتبقى بعد ذلك موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها في الاسبوع ١٢ ساعة على ان احضر محاضراتها وانجح في امتحاناتها . ومن ثم يتسع لي الوقت بعد ذلك للشروع في القيام باجراء البحث المطلوب . وبعد النجاح في كل الدراسات في خلال عامي الدراسة الاكاديمية ٥٤ ـ ١٩٥٥ و ٥٥ـ١٩٥٦ وبعد مناقشة البحث الذي سوف تضمه رسالة تقدم الى الكلية تحت اشراف البروفسور البرت موريس ، وبعد أن تتم هذه المناقشة بنجاح فانني أكون مستحقا لدرجة الدكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجرام . وكانت موضوعات الفصل الدراسي الاول للعام الاكاديمي ٥٤ـ١٩٥٥ تشمل « الحركات الاجتماعية المعاصرة » الذي كان مسئولا عن تدريسه « الدكتور ج . بارنز » ، و « علم الاجتماع الحربي » الذي كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ا . ل كابوتس » ، و « علم النفس والشواذ » الذي كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ج . ف . سوندرز » ، و « علم النفس والوراثة » الذي كان مسئولا عن تدريسه الدكتور سوندرز ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذي كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « د . ماكول » . أما موضوعات الفصل الدراسي الثاني، فقد كانت تشمل « النظريات السوسيولوجية » الذي كان مسئولا عن تدريسه الدكتور « ت . س . ماياكاوا »، و « حلقة بحث في البحث الاجتماعي » وكان المشرف عليها « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « حلقة بحث في افريقيا المعاصرة » وكان المشرف عليها « البروفسور و . براون » و « حلقة بحث في مناهج

البحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها «البروفسور البرت موريس » ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور ماكول . وفى خلال شهور الصيف من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ تفرغت مع تسعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة « مادة العلاج الجماعى » تحت اشراف الدكتور « روبرت و . هايد » وكيل المستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن فى ذلك الحين . وكان مكان الدراسة فى هذا المستشفى ذاته . وكنا نذهب الى المستشفى من الساعة التاسعة صباحا ولا نبرحه الا فى الساعة السادسة مساء . ومن ثم احتسبت دراسة هذا الموضوع لكل منا على أساس ست ساعات فى الاسبوع . أى اننى وقد نجحت فى كل موضوعات الدراسة فى الفصلين الدراسيين للعام الاكاديمى ٥٤-١٩٥٥ وكذلك تم نجاحى بتفوق فى مادة العلاج الجماعى ، اصبح عدد ساعات الدراسة فىالاسبوع حتى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ ، التى حصلت عليها ، ٣٦ ساعة . وبقى لى من الساعات ١٢ ساعة ادرس فى خلالها موضوعات دراسية بنفس عدد هذه الساعات فى الاسبوع . وبدأت هذه المهمة فى خلال الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى الثانى للدراسة للحصول على درجة الدكتوراه أى فى خلال الفصل الدراسى من عام ١٩٥٥-١٩٥٦ . وكانت موضوعات الدراسة المطلوبة « النظريات السوسيولوجية» الذى كان مسئولا عن تدريسه الدكتور ماياكاواه ، و « حلقة بحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها البروفسور براون ، و « حلقة بحث فى مناهج البحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها البروفسور البرت

موريس . وقد اجتزت الامتحانات كلها وكنت متفـوقا وحصلت على الدرجات النهائية فى اثنى عشر موضـوعا من خمسة عشر موضوعا . وبدات فى اختيار احـد الموضوعات لاقوم باجراء البحث المطلوب للرسالة التى سأقدمها الى الكلية . وكان هذا الموضوع هو : « تطبيق مفهوم منطقة الجناح فى مجتمع غير غربى » وكان عبارة عن دراسة لحى « روكسبرى » فى مدينة بوسـطن كمنطقة جناح بالمقارنة بحى « بولاق » فى مدينة القاهرة كمنطقة جناح ايضا . وكان الاشراف على هذا البحث للبروفسور البرت موريس بوصفه استاذا لعلم الاجرام بالجامعة ويشترك معه فى الاشراف الاستاذ « ايدون بورز » استاذ « علم العقاب » المعروف والذى اشرف على اجراء البحث المشهور عن « تجربة فى الوقاية من الجناح » . وكنت قد بدات فى اثناء الدراسة الاكاديمية فى اجراء البحث المشار اليه . وكان قد وعـدنى البروفسور موريس بانه بمجرد اتمام الرسالة على الوجه المرضى سيقوم اساتذة القسم ، كمـا هى العادة ، بمناقشتى فيه مناقشة غير علنية توا . ويعنى ذلك اننى سأناقش الرسالة ومن ثم احصل على درجة الدكتوراه قبل مرور عامين منذ حصولى على درجة الماجستير . وكنت اعمل ليل نهار حتى يتحقق هذا الهدف واعود الى احضان اسرتى الصغيرة احبائى واعزائى . ولكن حدث أن دعانى البروفسور موريس الى مكتبه ذات صـباح بمجرد اتمام الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى ٥٥-١٩٥٦ ، اى بمجرد اتمام الساعات المقـررة فضـلا عن اتمام الرسالة التى كانت بين يديه منذ اكثر مـن اسبوعين . وذهبت فى الموعد الذى تحدد ووجـدت بعض أساتذة القسم الكبار . ولمحـت على وجـه

البروفسور موريس علامات عدم الارتياح . وظل في مكانه ولم يتكلم كلمة واحدة . وترك للاساتذة الحاضرين الحديث الذى وجهوه الي وكان ملخصه انه لا يمكن للجامعة أن تمنحنى درجة الدكتوراه الا بعد مرور سنتين على الاقل منذ حصولى علي درجة الماجستير . وهذا الشرط بالنسبة لى لم يتحقق ومن ثم فعلى ان اصبر حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ حتى يمكن تحقيق هذا الهدف . وقال كل استاذ كلمة فى الموضوع نفس الموضوع واكد أحدهم أنه حصل على درجة الدكتوراه بعد مرور اكثر من خمس سنوات من حصوله على درجة الماجستير وقال آخر وهو يوجه الكلام الى انه من حقى ان استريح من عناء الدرس والدراسة وان الايام تجرى وتمر . وقال ثالث مثلا شعبيا باللغة الانجليزية معناه « انني لا يصح ان اقضم اللقمة الكبيرة التى لا استطيع ان امضغها اذ قال سيادته Don't bite more than you can chew – . تكلموا جميعا ولم يقل البروفسور موريس شيئا . كان قد وعدني ولكنه ازاء هذه « الهبة » من اساتذة القسم حاول أن يتركهم لكي يقنعوني بالصبر شهورا خمسة . وما كان لي الا ان اقتنع والا ان اصبر هذه الشهور الخمسة . ولكن كان موقف البروفسور موريس الصامت قدحز فى نفسى . ولم أكن له شيئا بغيضا ابدا ، بل على العكس التمست لهالاعذار كل الاعذار . ولم انسى له مواقفه الاخرى الكريمة معي . وساذكرها دائما بالشكر والعرفان بالجميل وهل يتطرق الى ذهنى نسيان موقفه معى فى صيف عام ١٩٥٥ عندما لم استلم مبلغ ال ١٥٠ دولارا الشهرى من « ادارة التربية الدولية » التى كانت تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات المتحدة . يومها

احسست بالدنيا تدور بى وانا ادور بها ، وكادت الارض من تحتى ان تميد . وكان دور البروفسور موريس بلسما شافيا . فعندما علم بما حدث طلبنى وطلب منى ان اعمل معه نظير النقود ، وربما اكثر ، التى كانت ادارة التربية الدولية تبعثها الى شهريا . قال جزاه الله خيرا اننى اما ان اختار لاعمل معه فى اوقات الفراغ فى مكتبه او ان اختار مساعدته فى المحاضرات التى كان يلقيها او ان اختار ان اعمل فى بيتى مايطلبه من انجازات . وشكرته من صميم فؤادى بكل الحب والصدق والاخلاص .
وعند عودتى الى محلة نورفولك بيتى وجدت خطابا مرسلا الى من ادارة التربية الدولية ومرفق به الشيك كالمعتاد . وقد تضمن الخطاب ان المنحة الدراسية قد مدت عاما ثالثا . وكان المفاجاة سارة جدا لى .
وسرعان ماتحدثت الى البروفسور موريس عن عودة المياه الى مجاريها . وبعد ان اطمأن قال لى ، وكان صادقا مافى ذلك من شك ، أن العرض الذى عرضه على مازال قائما ، ولكنى ابلغته بأن هذا العرض فى ضوء ماجد من ظروف اولى به طالب فى حاجة اليه . لايمكن لشخص مثلى الا ان يذكر هذا الموقف الكريم الذى وقفه معى البروفسور موريس . ولهذا فاننى لم اكن له فى الماضى الى الان وبعد الان الا الحب والاحترام . وقد التمست له الاعذار عندما اضطرته الظروف الى ان يواجهنى ببعض اساتذة القسم الذى يراسه بشأن تأجيل حصولى على درجة الدكتوراه الى شهر مايو عام ١٩٥٦ وقلت لنفسى فى ذلك الحين ، وكثيرا ما أقول لنفسى ، وتقول نفسى لى ، ان اعقل الناس أعذرهم للناس .
وفى ضوء مرور فترة ثلاث سنوات اكاديمية فى جامعة بوستن تمكنت من استخلاص بعض الحقائق من الاساتذة

الذين تشرفت بالتلمذة على ايديهم . كانوا على وجه العموم اساتذة مجتهدين وان كان يبزهم بالضرورة البروفسور موريس والاستاذ ايدون بورز والدكتور هايد والدكتور ماياكادوا والبروفسور زالنجر والبروفسور براون والدكتور ماكول . هؤلاء كانوا اساتذة يعملون فيهيئة التدريس بالجامعة ويستثنى منهم الدكتور هايد الذى كان يعمل وكيلا للمستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى ذلك الحين . وكان من الاساتذة الذين كانوا يعملون خارج الجامعة ، وكانوا فى الغالب من الاساتذة الزائرين الذين لم يكن لهم موضوع معين يقومون بتدريسه وان كانوا يجيئون لالقاء بعض المحاضرات فى بعض الموضوعات المقررة او القريبة منها ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، «البروفسور كلايد كلاكهوهن » و « البروفسور تالكوت بارسونز » . وكان وجود هذين الاستاذين فى حرم جامعة بوستن يعتبر حدثا اجتماعيا لامعا لما كانا يتمتعان من شهرة علمية . وانا اذكر ان الاول قد شرح لنا كيف يقوم الانثروبولوجى بعمله فى الميدان وبخاصة اذا كان يعمل مع فريق ، وكان العمل مع فريق فى رأى كلاكهوهن امرا ضروريا . وضرب المثال بعد المثال من تجاربه العلمية التى اشترك فيها مع اخصائى نفسى واخصائى اجتماعى عندما كانوا يدرسون اسر احدى قبائل الهنود الاميريكيين . اما تالكوت بارسونز فاننى اذكر الآن وانا اكتب هذه السطور اصراره فى احدى محاضراته على ان « القانون » . علم . واخذ يدلل على ذلك بالامثلة الواقعية التى تمتلىء بها خزائن خبراته وتجاربه . ومنها ان حقائق القانون كلها هى من الواقع الاجتماعى وان نصوص القانون تعكس او يجب أن تعكس هذا الواقع الاجتماعى . وحتى اذا

وجدت الهوة بين النصوص والواقع ، وكثيرا مايحدث ذلك ، فان على المتخصص فى القانون ، كعلم ، ان يبادر الى تضييق هذه الهوة وذلك عن طريق البحث العلمى الاجتماعى الواقعى . اما اساتذة الجامعة فقد وجدت ان من بينهم من يخرج عن الموضوع دون مادداع او من كان يستغل استاذيته فيحاول ان يرهب الطالبات والطلبة الذين يستمعون لمحاضرته أو يحاول ان يتملق بعض هؤلاء الطالبات والطلبة . واذا ذكرت بعض هؤلاء فاننى اذكر الاستثناء لا القاعدة . كان الدكتور « بارنز » الذى كان . كما سبق ان اوضحت ، مسئولا عن تدريس موضوع « الحركات الاجتماعية المعاصرة » يرهبنا نحن الطالبات والطلبة وبخاصة فى المحاضرات الاولى . فقد كان علينا ان ندرس حركات مثل الفاشية والماركسية والراسمالية والصهيونية وغيرها . وكان عدد الطلبة لايعدو العشرين طالبا وقد وزع الحركات التى اشرف على تدريسها وكانت عشرا على ان يكون نصيب كل اثنين منا حركة يقومان بدراستها ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان من نصيبى ومعى احدى الطالبات أن نقوم بدراسة الماركسية ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان الدكتور بارنز لا يكتفى بالعرض بل كان يطلب من باقى الحاضرين من الطالبات والطلبة ان يناقشوا ماتم عرضه ، ثم يترك لنفسه بعد ان تتم المناقشة التعليق على كل ماقيل . وانا اذكر لهذا الرجل موقفين لايتوقع ابدا أن يصدرا عن استاذ يحترم العلم ومن يقوم بتعليمهم . درست وزميلتى « الماركسية » دراسة وافية ، وجاء الموعد لعرض الدراسة . وتركت لى زميلتى ان ابدا الحديث ، وما ان بدات الحديث

وبعد مرور ثلاث دقائق فقط وجدت الدكتور بارنز يقاطعنى قائلا فى سخرية ان ماقلته أمر معروف للجميع وعندما حاولت الاحتجاج فمازال وقت العرض « وكان عشر دقائق » لم يستنفد ، صاح أمام الجميع قائلا انه هنا يسأل من المسئولين فى الدولة عن كل طالبة وطالب ويبعث بتقرير عن مدى تصرفاتهم سواء كانت هذه التصرفات فى اثناء العرض او فى المناقشة . وحاولت زميلتى ان تقول شيئا ولكنه قاطعها . وبدأ الحاضرون يلقون السؤال تلو السؤال ولكن بارنز كان المجيب ولم يترك لى ولا لزميلتي الاجابة . وانتهت فترة المحاضرة وخرجت من حجرة الدراسة وأنا لا ادرى موضعا لقدمي . وعندما ذهبت الى « الكافيتريا » لاتناول فنجانا من القهوة وجدت بعض الزميلات والزملاء يلتفون حولى، وقد بدأوا يستنكرون مافعله بارنز ولكننى لم اعلق بكلمة . فقد وعيت الدرس الذى كان قد ذكره لنا الزميل محمد محمد شلبى عندما كان يدرس فى كلية الآداب بجامعة كولومبيا بنيويورك : قسم الاجتماع للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع بعد حصوله على درجة الماجستير فى شهر مايو عام ١٩٤٩ ، وطلب منه استاذه ان يكون موضوع رسالته « اتجاهات المصريين المسلمين نحو اليهود « فأبى الزميل ذلك . فما كان من الاستاذ الا ان اضطره الى أن ينتقل الى كلية التربية ليحصل على درجة الدكتوراه ان اراد . وقد فعل الزميل ذلك ، اى انه التحق فعلا بكلية التربية وحصل على درجة الدكتوراه فى التربية . وقد اضطره الاستاذ الى هذا التغيير عندما التف حوله بعض الزميلات والزملاء منددين بتعسف الاستاذ وضغطه المعنوى على الزميل دون مامبرر . فما كان من الزميل شلبى الا ان

اخرج مافى نفسه ومافى مكنونات مشاعره نحو الاستاذ ، فنقل زميلاته وزملاؤه كل ماقاله الى الاستاذ . ومن ثم كان اصرار الاستاذ على ان ينقل الزميل شلبى ، وكان وعيده المرذول انه لن يحصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من الجامعة مادام ، اى هذا الاستاذ ، حيا يرزق . وعيت الدرس فصمت ولم اتحدث الا فى أمور لاتمت بصلة لما حدث . واذكر لنفس الرجل موقفا عندما جاء موعد عرض الحركة الصهيونية . يومها اخذت فى حقيبة كتبى بعض الوثائق عما حدث لفلسطين من شهر مايو عام ١٩٤٨ وقبل ذلك وبعد ذلك استعدادا لما قد يحدث من مفاجآت ، ويومها قلت لنفسى ان استمع ولا اناقش ، ويومها اصبح عدد من كان فى الفصل اكثر من اربعين شخصا . دعى ضيوف لا نعرف عنهم شيئا . كان منهم الزنوج وكان منهم البيض . كان منهم الشبان والشابات وكان منهم كبار السن . وتحدث الطالبان عن الصهيونية ، وبدأت المناقشة ، وناقش معظم الزميلات والزملاء ، ولكنى لم اناقش . وفوجئت بالرجل مشيرا الى وطالبا منى ان اسهم فى المناقشة . واذا كان للطالبين المسئولين عن عرض الموضوع عشر دقائق ليعرضا فيها كلاهما او احدهما ماعن لهما ان يعرضا ، فان من حق المناقش من الوقت دقيقتين . فبدأت اتحدث عن آثار الصهيونية فيما يتعلق بفلسطين وبمصير المليون لاجىء من الشيوخ والاطفال والنساء والرجال ، واكدت حديثى بما معى من وثائق ، وبدأت اشرح الآثار الاخرى وخاصة ماتعلق منها بالسلام والحرب ولكن الرجل قاطعنى لكي اصمت ولم يكن قد مر على حديثى سوى نصف دقيقة بالتمام والكمال . كنت اتوقع ذلك من برنز فقد سبق ان اخرجنى دون مامبرر ، وحاول

ان يرهبني وان يرهب الاخرين عندما ذكر من قال عنهم المسئولين في الدولة . وقد ذكرني ماحدث بموقف واجهته عندما وصلت الى مدينة بوستن وقابلت نزيلات ونزلاء محلة نورفلك . جاءني احدهم في حجرتي ولم يكن قد مر من الوقت على وصولي الى هذه المدينة اكثر من شهر ، وتحدث معي في اشياء كثيرة . وكان ضمن ماتحدث فيه « اسرائيل » وقال ضمن ماقال ، وبدأ الاصرار على ماقال : « اسرائيل وجدت لتبقى » ! ويومها قلت لهذا الشخص ان لاينسى « الحروب الصليبية » وان يذكر دائما « صلاح الدين » فلن يعدم العرب ان يجدوا في المستقبل القريب اكثر من صلاح الدين ، كنت متحمسا ومتفائلا ، ولكنه كان الامل ، في ضوء وقائع التاريخ ، هو الذي جعلني متحمسا ومتفائلا ولا ازال .
وفي يوم من الايام دعاني البروفسور موريس الى تناول الشاي مع آخرين في احد مباني الجامعة ، اي بعيدا عن مباني كلية الاداب التي يعمل فيها وادرس فيها . وفوجئت بالآخرين فقد كانوا رجالا ونساء لم اعرف منهم احدا . وتركني البروفسور موريس اجلس في المقعد الذي اختاره . ولا ادري اذا كان قد تركني عن عمد او ليترك لي الحرية في ان افعل ما اشاء . وترك من كان يجلس بجواره مقعده لآخر . ووجه الشخص الاخر الذي جلس سؤالا لي على مسمع من الحاضرين ومنهم البروفسور موريس . وكان وهو يوجه سؤاله يخرج من محفظة نقوده ورقة صغيرة مقطوعة من جريدة يومية . وقال لي الرجل اقرأ مافي هذه الورقة قل لنا رأيك في مضمونها . وقد كتب في هذه الورقة « ان زوجا مسلما ضرب زوجته المسلمة ، فلما اشتكت الزوجة زوجها للمحكمة في الاردن ايدت المحكمة ما فعله الزوج » .

فقلت له أن للزوج تحت راية الديانة المسيحية ان يفعل ذلك ، فله أن يؤدب زوجته اذا كانت ناشزا ولم تكن مطيعة له . والكتاب المقدس قد جعل الرجل رأسا للمرأة ومن حقه أن يؤدبها اذا لم ترع قدسية الحياة الزوجية ، او اذا اساءت التصرف بما يسيء الي سمعة الزوج وسمعتها . بيد ان التأديب ليس معناه ان يقسو الرجل على زوجته أو يغدر بها او يضربها ضربا شديدا يحدث عاهة ، بل ينبغي أن يكون بهدف الاصلاح والتقويم لا بهدف الانتقام والايذاء والاضرار وكل ذلك ما يدعو اليه الاسلام . قلت كل ذلك على مسمع من الحاضرات والحاضرين . ولم اكن أظن ان من بينهم يهودا او صهاينة فالبروفسور موريس مسيحى الديانة ، وكنت اظن ان اعضاء الجمع الموجودين مسيحيون ايضا . واتضح لى ان الشخص الذى أبرز الورقة التى تتضمن حكم المحكمة الشرعية فى الاردن والتي قطعها خصيصا من جريدة يومية ووضعها فى محفظة نقوده كان يهوديا بل كان صهيونيا . وكان ردى عليه غير متوقع . لذلك جاءت مواضيع اخرى بدأ يتحدث الحاضرون فيها ونحن نتعاطى الشاى . ولكن الرجل ظل يلازمنى وتحدث الى على انفراد عن موضوع « السد العالى » ويبدو انه كان فى الدوائر السياسية الاميركية موضوع الساعة . وقد تحدث الرجل عن هذا الموضوع فى أوائل عام ١٩٥٦ ، ولم اكن ادرى عنه شيئا . وقال لى ضمن ماقال ان هذا السد لن يقام ابدا . واننى اذكر أننى رددت عليه ، وكنت عنيدا فى ردى مافى ذلك من شك ، ومن أدراك أنه لن يقام ؟ ان الشعب المصرى قادر على المعجزات . ولن يكون السد العالى آخر معجزة يقوم هذا الشعب بانجازها . وانا اليوم ، وقت كتابة هذه السطور ،

اعجب مما حدث بينى وبين هذا الرجل وبخاصة فيما يتعلق بموضوع السد العالى . لعله كان اعلم منى ببواطن الامور ولم اكن ادرى . اننى لم اعرف اسمه ولم اعرف عمله فى ذلك الحين وحتى الآن . وعلى غرار الدكتور بارنز كان الدكتور « كايوتس » ، بدا هذا الاستاذ حياته قسيسا . وهو من أصل مجرى . وكانت لى معه ومع زوجته المجرية الاصل ايضا علاقات ، فقد دعيانى الى منزلهما مرارا وبخاصة فى عطلة نهاية الاسبوع . وكان الدكتور كايوتس وهو يحاضر يرفع صوته وكأنه يلقى موعظة . وكان يبدأ حديثه فى المحاضرة منافقا بقوله مثلا « ان ثقافتنا اليهودية المسيحية » « وكان يقصد ثقافة المجتمع الاميريكى » يقولها وهو ينافق الطالبات والطلبة اليهود الذين كانوا يدرسون معنا . وفى محاضراته كان يدعو بعض كبار رجال الاعمال ليلقوا علينا حديثا فى ضوء خبراتهم العملية . وقد دعا أحدهم فى احدى المحاضرات . وبدأ رجل الاعمال الضيف يتحدث عن مصر وعن الفساد الذى يستشرى فيها ، فقاطعه كايوتس قائلا وهو يشير الى « ان هذا الشاب المهذب مصرى » .
ولم يواصل الضيف حديثه عن مصر وغير مجرى حديثه. وكانت العادة انه بعد ان ينتهى المحدث الضيف من حديثه يسأله الحاضرون بعض الاسئلة وكان يجيب عن كل سؤال . اما ضيفنا رجل الاعمال فعندما سئل عن الاسباب التى جعلت من مصر موطنا للفساد فانه تنحى عن الاجابة واشار الى لكى اجيب انا . ولم اجب عن السؤال نفسه ولكنى ذكرت ما أعلمه عن مجتمع الولايات المتحدة من فساد وافساد ، ثم قلت أن الاستعمار الذى كان ولا يزال كابوسا على قلب مصر كان فى معظم الاحيان بل فى كل الاحيان أصل الفساد فى مصر ومصدر

الافساد . ولم يعقب على اجابتي احد . فما قلت الا حقائق اول من يعلمها رجل الاعمال الضيف . ومع ذلك فقد كانت زياراتي الى منزل الدكتور كايوتس وزوجته تغييرا حقيقيا لي . كانا يأتيان الى محلة نورفلك في سيارتهما واذهب معهما الى المنزل ويعودان بي الى نورفلك بعد ان اكون قد قضيت نهار يوم السبت أو يوم الاحد معهما . كانا وحيدين فأولادهما قد تزوجوا وتفرقوا في انحاء الولايات المتحدة . وكانا يعيشان في جناح من قصر منيف يملكه زوج ابنتهما الوسطى لكي يرعيا اطفالهما الصغار ويعيشان في كنف أسرة ابنتهما التي يملك زوجها الغني هذا القصر المنيف ، وكنت أعيش وقتي مع الاطفال ، فقد كانوا يذكرونني بأعز من عندي ومن اعتز بهم : اولادي عندما كانوا لايزالون اطفالا : احمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . وكان الدكتور كايوتس وزوجته كريمين معي . وكان كرجل دين يود لو انني اعتنقت الديانة المسيحية . قالها لي ذات مرة مبررا انه « مسيحي ميثودي » وان ابنتــه وزوجها مــن « الكويكرز » وانني اذكر انني قلت له الا تعلم انني كمسلم اومن بالسيد المسيح وأمه السيدة مريم العذراء . ان الاسلام يقر كل الاديان السماوية لانه دين سماوي . ولا يمكن الا أن اذكر ولن انسى ماقاله لي الدكتــور كايوتس أمام زوجته من ان محادثة تليفونية جاءته من جهة عليا وكلف بمهمة سرية يؤديها في المجر ، وقال ماقاله مفاخرا . فهو قد اختير من بين آلاف او اكثر لست ادري ليقوم بأداء هذه المهمة وكان ذلك في شتاء عــام ١٩٥٥ ، اى قبل ان تحدث حوادث المجر في أثناء الاعتداء الثلاثي على مصرنا الخالدة في شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ . واذا كان القارىء يرى انني في روايتي عن الدكتــور

كابوتس اتشكك في تصرفاته وبخاصة عندما ادى ما قال عنها مهمة سرية كلف بها من جهة عليا . فربما كان الحق معى . فالتوقيت اقصد توقيت المهمة كان معقـولا ، والرجل مجري الاصل أمريكى الجنسية وكان قد جاء الى الولايات المتحدة مهاجرا وهو يافع . اى ان اللغـة الهنغارية التى كان مازال يتقنها فضلا عن سمات وجهه وأساليب تصرفاته تنم كلها على انه مجرى . وهو اذا كان قد ادى المهمة التى وكلت اليه وهدفها ان يثـم الشعب المجرى على حكامه ، فانما فعل ذلك كما يبدو لى الآن وقبل الان وحيا من الدين الذى يعتنقه ولا اقـول وحيا من وطنيته كشخص امريكى الجنسية . ان عقيدته تقف متعارضة مع عقيدة قادة الشعب المجرى الشيوعيين مافى ذلك من شك . واود هنا ان اقول شيئـا عن البروفسور موريس ودعوته الى حفل الشاى الذى ذكرته من قبل والذى حدث فيه ماحدث . اننى أتذكـر الآن وانا اكتب السطور الحالية ان البروفسور موريس لم يقصد احراجي قبل ذلك ابدا . ومن ثم فاننى اشك فى انه جاء بى خصيصا الى ذلك الحفل لكى يحرجنى . ان هذا الرجل على الرغم من علمه الغزير لا يعرف الكثير عن السياسة أو عن رجال السياسة . انه يعيش حياته الاكاديمية حتى الثمالة . وتراه اذ يتحدث عن رجـال « الكرملين » وهو يقصد حكام روسيا السـوفيتية يشتبههم برجال عصابات « مدينة شيكاجو » الاميريكية . تفكير سياسى ساذج لا يصدر عن شخص يعرف السياسة ويحاول ان يحلل مواقفها وآثارها واهدافها . انه بهذا التفكير كنت اراه ومازلت افعل بجارى رجل الشـارع الاميريكى الذى يترك لحكومته عادة ان تفكر له . اننى لا ادافع عن البروفسور موريس اذ دعانى الى حفـل

الشاى وحدث تحت سمعه وبصره ماحدث لى . وانا لا انزه نفسي عن ان اكون متحيزا له لانني ومازلت احب الرجل . وهذا يذكرني بموقف آخر واجهته عندما جرت الانتخابات المحلية ولم يذهب الى صناديق الانتخابات سوى ٢٠٪ من الذين من حقهم ان ينتخبوا ، وعندما ابديت دهشتي من ذلك قال احد الاساتذة لا اذكر اسمه الآن ، ولماذا الدهشة ؟ ان الشوارع تكنس وتنظف والتيار الكهربائي لا يتوقف والمرافق تسير على مايرام فلماذا يذهب الناخبون وتتعطل الاعمال ويقل الانتاج مادام كل شيء يسير وفقا للنظام المعتاد ؟ ولما قلت له ان رجلا يدعى «كنيدى » ولم يكن من عائلة كيندى المعروفة قد اخذ اكثر الاصوات وهو مسجون لحكم صدر ضده . فوجدت هذا الاستاذ الذى لا اذكر اسمه الان يبتسم وبدت ابتسامته لى فى ذلك الحين ابتسامة بلهاء . واستاذي بروفسور براون كان مديرا « لمعهد الدراسات الافريقية » التابع لجامعة بوستن . وكان هذا المعهد الاول من نوعه فى الولايات المتحدة . وعندما كنت اتلقى دروس عن موضوع « افريقيا المعاصرة » او عن موضوع « مشاكل افريقيا المعاصرة » كان البروفسور براون يرى ان افريقيا هى « ما تحت الصحراء الكبرى » ولا يعتبر دول شمال افريقيا جزءا من القارة . وكان اذا ذكر دول شمال افريقيا يذكر ، بطريقة تعسفية ، انها ليست دولا عربية ولكن «للبربر» فيها شأن سياسي واجتماعي كبير . وكان هذا الاستاذ الذى جاب افريقيا شبرا شبرا اذا تحدث عن حركة « الماو ماو » فى كينيا مثلا يشوب حديثه السخرية . وكان الدارسون فى حلقة البحث التى يشرف عليها البروفسور براون كلهم من الرجال . كانوا يتعاطون معنا

متباينة . فقد كان منهم القسيس والصحفى وطـالب الدراسات العليا والمشتغل بالسياسة وبخاصة ما تعلق منها بافريقيا « السوداء » . وكان لايذهب صحفى غير دارس فى المعهد الى أى بلد افريقى الا اذا مر على المعهد ليتزود من ملفاته و « اضابيره » المعلومات عن هذا البلد . لم تكن هذه المعلومات جغرافية فقط أو اقتصادية أو سياسية فحسب ، بل كانت معلومات عن قادة البلد وزعمائه كذلك . لان هذه المعلومات كانت تتضمن سجلا حافلا عن كل واحد منهم يشتمل على مستوى ثقـافته ومستواه الاقتصادى وحالته الصحية ونزواته فضلا عن مدى سلطانه على شعب البلد وميوله السياسية وماضيه منذ ان ولد حتى اللحظة الراهنة . والملاحظ أن هذه الملفات والاضابير كانت كلها ضـــمن محفوظات وزارة الخارجية الاميريكية وكانت تعتبر محتوياتها فى ظروف معينة سرية جدا . ولما تغيرت الظروف تيسر للمعهد ان يحصل عليها كخلفية ثقافية للبلاد الافريقية التى تكون موضوعات دراساته ، فهى بالنسبة لدارســيه تعتبر مراجع ، وهى بالنسبة لغير الدارسين المهتمين بـبــلاد افريقيا تيسر لهم الاطلاع على أمور قد يكونون هم فى حاجة اليها . ومع البروفسور براون كان لى جولات .
وكنت أومن فى ذلك الوقـــت بالزعيم الـــــكينى هى فقط « ماتحت الصحراء الكبرى » كما كان يدعى .
وكنت اومن فى ذلك الوقـــت بالزعيم الـــــكينى « جوموكينياتا » الذى عرفت عنه وأنا فى لنـــدن ، وتصفحت فى ذلك الحين رسالته التى قدمها للجامعة . كنت اكن له الاحترام والتقدير . وعندما وجدت براون يسخر من « حركة ماوماو » الكينية التى أشـــعل شرارتها كينياتا وزملاؤه أعترضت على الســـخرية ،

واكدت له امام الحاضرين ان الذى يستدعى ازاء هذه الحركة هو الاعجاب لا السخرية . وعندما برز فى أثناء حلقة البحث موضوع تحكم الاقلية فى الاغلبية وبخاصة فى جنوب افريقيا ، لم اتمالك الا أن أقول اننا لا نجد هذا النوع من التحكم الا فى السجون والمعتقلات . وكان معنا قسيسان من الكاثوليك يعملان فى بلدين من البلاد الافريقية . وقد حاول احدهما عندما ذكر موضوع « التفرقة العنصرية » ان يؤكد أن الناس كلهم سواسية فدم الجميع ذو لون واحد ، ومن ثم فان هذه التفرقة غير ذات موضوع . انه كلام ذكره هذا القسيس الكريم فى أثناء فترة من فترات حلقة البحث التى تضمنا والتى كان يشرف عليها براون . ولكن العبرة عندى ، وهذا ماحاولت ان اقوله ، ليس فى القول النظرى ولكن فى الممارسة . وكانت من القضايا التى اثارها براون فى أثناء المناقشة انه وهو فى مدينة « الخرطوم » وكان ينزل فى احد فنادقها الذى وصفه وصفا غير لائق قابل بعض المسيحيين من الاقباط المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، وذكر انه علم منهم ان الحكومة المصرية تتعمد ان تظهر نسبة عدد مسيحيى مصر ، فى التعداد العام ، اقل مما هى عليه فى الحقيقة . اى ان هذه النسبة ليست فى ذلك الحين نحو ٧٪ كما كان يسجلها التعداد العام المصرى « الرسمى » . بل هى أعلى من ذلك . كان ذلك فى اوائل عام ١٩٥٥ ، وكنت اسمع هذه المعلومات لاول مرة ، ولم استطع أن اكذب ذلك ولا ان اصدقه ، وظهر تحيز بروفسور براون عندما احضر احد المتخصصين الفرنسيين الى الحلقة كمحاضر زائر . ولما اعترضت على بعض ماقاله هذا الضيف من ان الدين الاسلامى يبيح للرجال فى شمال افريقيا

« تونس والمغرب والجزائر مثلا » ان يتزوجوا اكثر من اربع زوجات بل ربما عشرات من الزوجات ، كان موقف براون مني موقفا لا يمكن الا ان اصفه بأنه غير موضوعي. حدث كل ذلك في خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الاكاديمي ١٩٥٤–١٩٥٥ عندما كنت احد الدارسين في « حلقة بحث في افريقيا المعاصرة » . وقد فـــوجىء البروفسور براون عندما وجدني سجلت نفسي لكي أحضر « حلقة بحث في مشاكل افريقيا المعاصرة » في خـــلال الفصل الدراسي الاول من العام الاكاديمي ١٩٥٥–١٩٥٦ وانا لم افعل ذلك الا لانني افدت فعلا من الحلقة الاولى، ولانني وجدت هذا البروفسور على الرغم مما قلته عنه استاذا فحلا في تخصصه وانني اولى من غيري لاكون احد تلاميذه استقي من فيض علمه ما استطيع . كـان براون عالما حقا ، ولكنه كبشر كان متحيزا للغرب ضد ماهو غير غربي .

وانني اعتقد انه من الصواب ان اتحدث قليـلا عن تجربتي في المستشفى السيكوباتي بمدينة بوســـتن لدراسة مادة « العلاج الجماعي » تحت أشراف « الدكتور روبرت و . هايد » وكيل هذا المستشفى . كنت كما ذكرت من قبل واحدا من عشرة من طلبة الدارســات العليا بجامعة بوستن الذين وقع الاختيار عليهم لدراسة مادة العلاج الجماعي في خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وكان الطلبة المختارون من الذكور ومنهم سبعة مـــن الاميركيين البيض وواحـد امريـكي زنجي وواحـــد اندونيسي ، وكل هؤلاء كانوا قساوسة من غـير المذهب الكاثوليكي او المذهب الارثوذكسي ، ويضاف اليهـــم كاتب هذه السطور . وقد تضمنت الدراسة أوجها عديدة

من النشاط . منها التعرف على جهاز المستشفى العلمي : اعضائه ووظائفه ، والاشتراك فى اوجه نشاطه فى حرية وبطريقة تلقائية . ومنها عقد اجتماعات نهارية ومسائية . وكانت الاجتماعات النهارية يعقدها الطلاب وحدهم . وكان يحضر الدكتور هايد الاجتماعات المسائية باستمرار . وقد جرى التقليد فى السنين السابقة على ان يقوم طلبة مادة العلاج الجماعى باختيار مشروع بحث معين وكتابة تقرير عنه . وعلى الرغم من ان هذا كان تقليدا فقد تركت للطلبة حرية الاخذ به أو عدم الاخذ به . وعلى هذا فقد كان من الجائز أن لايخرج هذا البحث الى حيز الوجود . فقد افهم الطلبة فى صراحة تامة انهم ، كجماعة ، احرار فى القيام او عدم القيام بهذا المشروع . كما تركت لهم الحرية فى اختيار اى موضوع للبحث فى حالة قيامهم به . واعتقد الطلبة منذ البداية انه فى حالة اخذ قرار بعدم القيام بهذا المشروع فلا يترتب على هذا القرار ابداء الاسباب التى فى ضوئها رفضوا القيام به . ولكن اعضاء جماعة الطلبة بعد مناقشات طويلة وعنيفة وصلوا الى قرار بخصوص موضوع البحث . وكان الموضوع الذى اجمعوا على اختياره هو « محاولة تفسير الشعور بالعداوة » . وبعد الوصول الى هذا تحمس الاعضاء وارتفعت روحهم المعنوية ، وعلى الرغم من ان الوقت كان محددا تحديدا تعسفيا ، بمعنى أنه للقيام ببحث الموضوع المشار اليه وكتابة التقرير النهائى عنه ، يجب الانتهاء من كل ذلك فى خلال الفترة المحددة لدراسة مادة العلاج الجماعى . وقد تقدم الاعضاء فعلا فى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ بتقرير مكتوب عن الموضوع المختار . واذا كنت أدعى بأن معظم المواد التى درستها فى الجامعة منذ

اول فصل دراسى من العام الاكاديمى ١٩٥٣-١٩٥٤ حتى الانتهاء من دراستى وحصولى على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع تخصص علم الاجرام قد سبق وعرفت الكثير عنها من الدراسات الاكاديمية وغيرها من الدراسات التى حصلتها فى خلال الفترة من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ وانا فى مدينة لندن . فانني مافى ذلك من شكمدين للاستاذ هايد الى خبرته الواسعة التى كان لايضن على وعلى زملائى بها فضلا عن المنهج الذى اتبعه معنا فى الاجتماعات المسائية . لقد نجح هذا الرجل فى الوصول الى اعماق كل واحد من الطلبة ويكشفها للجميع . لم يفعل شيئا مثيرا ولكنه كان يتبع منهجا يسر لكل واحد منا ان يكشف عن نفسه ويعريها لكى يعرفها الاخرون لكى يقوموا بدورهم بالكشف عن نفوسهم وتعريتها فتعم الفائدة الجميع . ان هذا الرجل الذى يسر لى ان احاول معرفة نفسى عن طريق معرفتى عن نفوس الاخرين وان يعرف الاخرون بدورهم عن نفسى ، يسر لى ايضا ان اتحلل من مشاكل نفسية كانت تعيش فى أعماقى منذ طفولتى وعندما كنت صبيا ويافعا ثم شابا ورجلا ، وبهذا أمكننى فى ضوء هذه الخبرة ان احاول التعرف على نفوس الآخرين الذين تضطرنى الحياة ان اتعامل معهم سواء اكانوا من الكبار ام من غيرهم . من الاناث ام من الذكور ، ولست بهذا احاول ان اقلل مما بذله اساتذتى الآخرون معى وبخاصة البروفسور البرت موريس . فقد افدت منهم ما فى ذلك من شك . وكان أهم ما افدته منهم فى الواقع ان اتاكد من صحة ماكنت اعرفه من قبل . فانا كطالب علم كنت ، ومازلت ، فى شوق الى التعرف على وجهات

النظر الاخرى المتباينة لاننى كنت على استعداد لتغيير رايى اذا تبين لى خطؤه . وبقدر شوقى الى تحقيق هذا الامر فاننى لم اغير كثيرا مما ثبت فى ذهنى من معلومات وخبرات استطعت فى فترة الثمانية عشر شهرا التى قضيتها فى لندن ، المشار اليها ، ان اتمثلها . ان التعليم فى جامعة بوستن يختلف اختلافا كبيرا عن التعليم فى جامعة انجليزية او حتى مصرية . فالجامعة الاميريكية كجامعة بوستن مثلا تحرص على ان تثبت فى طالبها منهجا اكاديميا وتترك له الخيار فى استيعاب أو تمثل مايختار من موضوعات . وعلى العكس من ذلك فقد كنت اجد ان الجامعة الانجليزية ترى ان يكون مضمون المادة التى تدرس محفوظا فى دماغ الطالب ويجرى فى تلافيف هذا الدماغ مجرى الدم فى عروقه . وفى جامعة بوستن وكما علمت فى غيرها من الجامعات الاميريكية كان يعطى للطالب أسئلة الامتحان لكى يجيب عنها وهو فى منزله ثم يحضرها الى الاستاذ فى حدود فترة معينة . ان الجامعة الاميريكية ترى أن العلم فى الكتب ويستطيع الطالب الذى يكتسب موهبة اكاديمية معينة ان يفيد من الكتب انى وجدت . فالعبرة ليست فى حفظ الدروس ولكن فى كيفية استخراج المعلومات من مصادرها والافادة منها . واننى اذكر عندما أمتحنت فى اللغة الفرنسية استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه التى تقضى بأن يمتحن الطالب فى لغتين اجنبيتين ، ورات الجامعة ان اللغة الانجليزية هى اللغة الاصلية واللغة العربية ، لغة امى ، هى اللغة الاجنبية الثانية — أبيح لى ان احضر القواميس معى فى الامتحان . وكذلك عندما امتحنت فى احدى المواد امتحانا تحريريا وكان من واجبى ان اجيب عن اربعة اسئلة ، فلما تبينت

انني اجبت عن ثلاثة فقط اخبرت استاذ المادة بذلك فتركني في حجرته بعد انتهاء موعد الامتحان لكي أجيب عن السؤال الرابع المطلوب وطلب مني أن اضع ورقة اجابتي في مكان معين ثم اغلق باب حجرته من ورائي بعد الانتهاء من الاجابة عن السؤال الرابع المطلوب .
وكانت التجارب التي خضتها وانا في المستشفى السيكرباتي بمدينة بوستن عديدة . لقد توجتها خبرتي مع الدكتور هايد كما سبق أن اوضحت . والعمل الجماعي مع الزملاء التسعة وقد كانوا من القساوسة كان مثمرا حقا . كانت الثقافات بيننا متباينة والاديان مختلفة ومع ذلك فقد عشنا زملاء احباء معظم الفترة التي قضيناها سويا في المستشفى . لقد احسست في الجزء الاول من هذه الفترة بنفور بعض هؤلاء الزملاء فقد كنت الوحيد الذي على وشك الحصول على درجة الدكتوراه فضلا عن التباين الثقافي الديني الذي ذكرته ولون جلدي الاسمر . كان القسيسان الزنجي والاندونيسي يشتركان معي في لون الجلد . ولكن سرعان ما التأم الجمع وتأكدت صلاحية العمل كفريق بيننا وبخاصة ونحن نجري البحث الذي أجريناه ، كجماعة ، عن موضوع الشعور بالعداوة . ومن الصدف الحسنة أن هذا البحث قد انتهى الى « ان الخطوة الاولى في سبيل التعبير عن الشعور بالعداوة تعبيرا سليما هي الاعتراف بوجود هذا الشعور . ويوفق الانسان منا في تحقيق هذه الخطوة اذا مااستطاع التعرف على الاسلوب او الاساليب التي عبر بها عن الشعور بالعداوة، ومن الواضح أن الانسان قد أصبح في الكثير من الاحيان، ماهرا جدا في اخفاء الشعور بالعداوة عن الاخرين فضلا عن

اخفائه عن نفسه . وفى بعض الاحيان نجد انه من الضرورى محاولة ادراك اساليبنا الظاهرة المعبرة عن الشعور بالعداوة قبل ان نتأكد من وجود هذا الشعور فينا . ومع هذا فالاعتراف بوجود الشعور بالعداوة ليس بالامر السهل . ولكنه الخطوة الاولى فى سبيل تحقيق التعبير السليم عن شعورنا بالعداوة . والخطوة الثانية فى هذه العملية هى ان نحاول معرفة العوامل او مصادر الشعور بالعداوة فى نطاق انفسنا اولا ثم فى خارج هذا النطاق . فغالبا ماتكون انفسنا مصدر الشعور بالعداوة ضد الآخرين وربما يكون ذلك عن طريق عملية «التحويل» التى قد يكون مبعثها علاقة سلبية سابقة . والخطوة الثالثة والاخيرة هى محاولة بناء علاقة طيبة مع الشخص او الاشخاص الذين نشعر بالعداوة ضدهم . وخير وسيلة لبناء هذه العلاقة هى ان يذهب الشخص الى من يشعر بالعداوة ضده ليحلا المشاكل سويا . فهذه الوسيلة تحقق ثلاثة امور كلها توصل الى بناء علاقات طيبة هى :

ـ انها فى ذاتها اسلوب من اساليب التعبير عن الشعور بالعداوة وقد لا تدعو الحاجة الى التعبير عن الشعور بالعداوة بأسلوب آخر .

ـ عندما يتحدث شخصان فى موضوع شعورهما بالعداوة المتبادل فانه يحاول كل منهما ان يذكر الاسباب التى دعت الى اثارة الشعور بالعداوة فى نفسه . فاذا امكن وصولهما الى التفاهم على هذا المستوى اللفظى فيكون تفاهما حقيقيا اذا عبرت الالفاظ عن شعورهما بالعداوة تعبيرا حقيقيا كذلك . وقد تحدث اخطاء فى بعض الاحيان ولكن ما ايسر اصلاح هذه الاخطاء

باستخدام الالفاظ كأسلوب للتعبير . ومهما يكن من الامر فان هذا الاسلوب ، استخدام الالفاظ مجرد الالفاظ خير الف مرة من استخدام اسلوب المعاملة الصامتة .

ان اتصال الناس بعضهم ببعض عن طريق استخدام الالفاظ واحد من الانواع العديدة للاتصال ، ولكنه ايسر اسلوب لاتصال الناس وهو اصلح اسلوب لحل مشاكل الشعور بالعداوة بينهم .

ـ عندما يتحدث شخصان في موضوع شعورهم بالعداوة المتبادل فانهما فى الواقع يتحدثان عن موضوع مشترك يهمهما وحدهما . والعلاقات الانسانية تبنى عادة اذا تحقق للناس وجود اشياء مشتركة تهمهم جميعـا . والشعور بالعداوة هو شعور عميق ، فاذا ماطـرح للمناقشة مع شخص آخر ، وليكن هذا الشخص هو الشخص الموجه ضده هذا الشعور فانه تتولد رابطة مشتركة بينهما تساعد على بناء علاقة طيبة بينهما » .

والملاحظ ان التعبير السليم عن الشعور بالعـداوة المذكور وان كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته ومحاولة اثبات فاعليته عن طريق التجربة ، فهو يتفق اجمالا من غير تفصيل مع مضـمون الآية القـرآنية الكريمة :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » « ٣٤ ك فصلت : ٤١ » .

وكانت علاقاتنا بالمرضى ، وكانوا من النساء والرجال تتراوح بين العلاقات العادية والعلاقات المتوترة . كان كل واحد منا يحمل « مفتاح » يفتح جميع حجـرات المستشفى ، وكان من حق كل واحد منا أن يجـوب

المستشفى ليرى بنفسه ويواجه التجارب وحده . كنا نلبس الملابس العادية ، وكان المرضى يلبسون ايضا الملابس العادية . ولم يكن يعرف المرضى ان العشرة من الطلاب طلاب . وقدكان يخطىء المريض ويظن ان احدنا مريض مثله . وكنا نشترك معهم فى مشاهدة برامج التليفزيون : كما كنا نشترك ايضا فى اللعب معهم كرة « تنس الطاولة » . وقد نذهب مع بعضهم الى الشاطىء وكان لا يعرف احد من المصطافين انهم مرضى . وكانوا دائما تحت اعيننا واشرافنا نعد حركاتهم وسكناتهم ونسجلها لكى نقدم مايحدث بيننا وبينهم الى المسئولين . وكنت لعوامل كثيرة محط انظار بعض المرضى . وقد ذكرت بعض هذه العوامل من قبل . وكنت اتحدث معهم ويتحدثون معى او كانوا عادة يبدءون الحديث معى .
وقد نجحت فى اخراج احد المرضى من صمته الطويل فتحدث معى وكان هذا فى راى الدكتور هايد والمسئولين خطوة الى الامام نحو شفاء هذا المريض . كان هذا المريض لا يتحدث مع اطبائه ولا مع زملائه من المرضى ولا مع احد من اعضاء اسرته عندما يزورونه . ولكنه تحدث معى وتحدثت معه . وكان هذا توفيقا من الله جل وعلا .
وانا اذكر الآن نزيلة محلة نورفلك « جاى » التى تركت المحله فى مايو عام ١٩٥٤ . وكنت اعلم انها حاولت الانتحار مرة ومرة ، كانت تجلس امام حجرة الدكتور هايد وتوقعت انها على موعد معه ، ولكنها عندما رأتنى فى المستشفى جرت ورائى وطلبت منى ، وهى تظن اننى مريض مثلها ، ان وجودى فى الولايات المتحدة وحدى ضار نفسيا بى ، وانه من الخير لى ان اعود الى بلدى الحبيب . وكانت هناك نزيلة اخرى من نزيلات محلة نورفلك التى التحقت بالمحلة فى خلال العام الدراسى

الاكاديمى ١٩٥٤ – ١٩٥٥ . وكنت وبعض النزلاء قد لاحظنا انها لا تسلك السلوك العادى الذى تسلكه زميلاتها النزيلات . وكانت قد ذكرت انها من ولاية «فيرمونت» احدى ولايات « انجلترا الجديدة » وهى نفس الولاية التى نشىء فيها الدكتور هايد الذى كنت أراه يوميا فى مستشفى بوستن السيكوباتى . واننى اذكر اننى رأيت هذه الآنسة عند الدكتور هايد عندما كنت ادرس على يديه « العلاج الجماعى » . ولكنى نجحت فى ان اختفى لكى لاتراني .

ولما انتهيت من أعمالى الاكاديمية : الدراسات وكتابة الرسالة ونجحت فى امتحان اللغة الفرنسية ، واجهت الفراغ فترة لا تقل عن خمسة شهور بالتمام والكمال . لم يكن فراغا مطلقا ولا كان وقتا ضائعا فقد كنت فى نورفلك اعمل مع جماعية الفيبرز ، وكنت فى الاوقات الاخرى اقرأ مايعن لى من قراءات ، وكنت اسير فى الشوارع اقرأ صفحاتها من ظواهر وانماط سلوك وعلاقات اجتماعية . ومنذ العام الثانى لى فى نورفلك عرفنى الجيران وعرفت الكثير من أحوالهم وانماط حياتهم التى يعيشونها . وقد تغير بعض النزيلات والنزلاء فى محلة نورفلك ، ذهب « دى » ذو الاصل الايطالى كما ذهب « جورج » ذو الاصل السورى ، وذهبت « سالى » و « ملدريد » المواطنتان الامريكيتان ، ذهبت الاولى الى استراليا لتعمل ممرضة والثانية الى المانيا الغربية لتتزوج من شاب المانى الجنسية كان أحد نزلاء محلة نورفلك قبل ان آتى اليها، وتمت بينهما العلاقات الانسانية ذات المشاعر العاطفية وتوج كل ذلك بالزواج. وذهبت « جاى » الامريكية وكانت تعالج فى مستشفى بوستن السيكوباتى ومعها « سونيا » التى كانت طالبة

فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن ليعيشا سويا اى لتعيش جاى تحت سمع وبصر واشراف سونيا . وجاء الى المحلة اخرون منهم « لافاى وميزى » وكانتا من « هوائى » احدى ولايات الولايات المتحدة ، ومنهم « دوروثى » التى كنا نختصر اسمها ونناديها « بدوتى » وكانت زنجية من جنوب الولايات المتحدة » « ولاية الباما » و « بارى فريمان » وهو مواطن امريكى من البيض . وبقى معنا جون جراى الزنجى ، كما بقى الشاب الكندى « اين » و « هيلين » و « مارى » و « جريس » المواطنات الاميركيات ، والتحق بموظفى المحلة اخصائى اجتماعى امريكى الجنسية ومن اصل يابانى واسمه « شيبا » . وتكونت جماعة من الشابات الزنجيات وكن من معارف أو صديقات الشبان الزنوج الذين كنت اشرف عليهم . وعهد الى « جريس » وهى طالبة فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن الاشراف على جماعة الشابات الزنجيات . وبعد مرور فترة من الوقت اى فى شهر اكتوبر او شهر نوفمبر عام ١٩٥٤، التحقت كنزيلة آنسة تدعى « بابارة بيل » ، وكان الجمع فى المحلة يناديها باسم « ب . ب » على غرار الاسم الذى تعرف به النجمة السينمائية الفرنسية « برجيت باردو » ! وبقى معنا مستر « ديفيز » مديرا للمحلة ومعه مستر « دن يونج » وكيلا له . وكان يساعدهما شاب متزوج يعيش مع زوجته يدعى «ديفيد» لا كموظف فى المحلة ولكن كنزيل متزوج . وكان يدرس لكى يتخصص فى علم النفس التحليلى . وكان وزوجته يتوقعان ضيفا جديدا عليهما . وعندما حدث ذلك اضيفت الى النزلاء طفلة جديدة . ولاحظت اننى المسلم الوحيد بين النزلاء وان ديفيد وزوجته وابنته الطفلة فضلا

عن الآنستين اللتين كانتا ضمن نزلاء العام السابق من اليهود . اما باقي النزلاء وموظفي المحلة ، فنيين واداريين وبوابي المحلة ، فقد كانوا من الكاثوليك ماعدا باري فريمان فقد كان ينتمي الى جماعة « الكويكرز » . وكان العمل فى محلة نورفلك يسير وفقا لبرنامج محدد ، وكان الجميع يعملون ، كل فى موقع عمله ، باخلاص وتفان . وكنا او بعضنا على مائدة العشاء فناكل سويا ما تطهره « مدام ستيلا سليفيا » طباخة المحلة وهى امريكية الجنسية من اصل بولاندى . وكان من يتناول طعام العشاء يدفع ثمن ماياكله وكان فى العادة ثمنا يستطيع كل واحد منا أن يدفعه . وقد كنت فى نظر الجميع شخصا يحب كل واحد من النزلاء أن يتحدث اليه ليعرف شيئا عن ثقافته وعن بلده مصرنا الخالدة وعن موضوعات اخرى . كنت فى نظرهم شخصا فريدا . فأنا لست من البيض وانا لست من الزنوج وان كان لون جلدى اسمر . وكان حديثى باللغة الانجليزية حديثا يقرب من حديث الانجليز لا الامريكيين . ويرجع ذلك الى تأثير اساتذتى الانجليز الذين بدءوايعلموننى اللغة الانجليزية منذ دراستى الثانوية فى مدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم بعد ذلك فى المملكة المتحدة وفى المعهد البريطانى بالقاهرة لفترة سنوات . وعلى الرغم من جلدى الاسمر فقد كان بعض الامريكيين يظنوننى اسبانيا . وقد فعل ذلك « ترى نيومان » الذى كان يدرس « علم المنطق » فى لندن . وبمرور الوقت توطدت صداقتى ببعض نزلاء محلة نورفلك . كان يجمعنا المستوى الثقافى والنظرة نحو الحياة . وقد حدث فى تلك الفترة ، أى فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ان هب على المجتمع الاميريكى زوابع « جوزيف مكارثى » الذى كان يظنه

بعض الناس من خارج الولايات المتحدة انه القـائد الاميركي « دوجلاس ماك آرثر » الذى قاد القـوات الاميركية فى الشرق الاقصى فى الحرب العـالمية الثانية ، والقوات المتحالفة المحتلة لليابان بعـد هـذه الحرب . اما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الاميركى عن ولاية « وسكونسن » وكان مـن اصل ايرلندي وكاثوليكى وينتمي الى الحزب الجمهورى، كان هو واتباعه فى تلك الفترة يتعقبـون بالشبهـة والشائعة العديد من المثقفين ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية واثارة الفتن . وكانت جلسات محاكمة الاخيرين تعقـد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا . وكـانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلالها ملايين الاميركيين حول التليفزيونات متتبعين ما يدور فيها . وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على ان نفعل ذلك ونرى امامنا مايحدث وكاننا نرى فيلما سينمائيـا مخيفا . وقد تأكدت ان مكارثى واعوانه ومن كـانوا وراءهم كانوا يبغون أن لايلفتوا نظر اعضاء المجتمـع الاميركى الى مايهمهم من امور عن عمد بوساطة جـذب انتباهم الى ماكان يحدث فى هذه المحاكمات . ان مجتمع الولايات المتحدة كما كنت اراه ويراه غيرى من العلمـاء والمثقفين الاميركيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة . فقد كانت اكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع ، وكانت اكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع ايضا . وكانت من كل عشر آنسات او سيدات اربع مريضات بمرض نفسى او عقلى ، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسيـة المثلية . وكان جناح الاحداث فى ذلك الحين يستشرى فى اكثر من مليون حدث . كل هذه الحقائق وغيرها مثلها

قد عرفتها وعرفها غيرى فى ضوء نتائج بحوث اجتماعية علمية اجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين . صحيح ان مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الامريكى مستوى عال مافى ذلك من شك . وان مستوى المعيشة فى محيط الامريكيين مستوى عال مافى ذلك من شك ايضا . ولكن القارىء يعلم كما اعلم تماما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ومهما يكن من الامر فاننا نجدفى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة ظواهر تشابه « ظاهرة المكارثية » . أى ان ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة . والملاحظ ان مقومات هذه الظواهر كانت فى الاغلب الاعم متشابهة . فنجد انها تستند الى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وان غباءها مستحكم لدرجة انها لا تستطيع نقد نفسها ذاتيا او ان تكون فكرة او تصورا عن ذاتها ، وهى تستند ايضا الى الاندفاع العصابى اما لتحقيق القوة او للاحتفاظ بها ، وهى تستند كذلك الى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة اخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف او النزوع الى الحصول الى المغانم غير المشروعة ، فضلا عما تقوم به من انواع الحقد وتعمد الاذى والرذيلة . كانت هذه المقومات ، كلها ، تتحدث عن نفسها امامنا ، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الامريكى ، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على شاشة التليفزيون . وقد شهدها قطعا اعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا من اعضاء « مذهب الكويكرز » واعضاء مذهب البابتستس » « المعمدون البروتستانتيون » ، وماحدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت « الساحرات » وعذبن فى مدينة سالم « بولاية ماساتشوست » لمدة ستة شهور . وفى خلال

اعوام ١٨٤٠ – ١٨٥٠ عندما ظهرت الحـركة المضـاده للمذهب الكاثوليكى . ولم اكن ادهش كثيراً عندما كنت ارى تابعا من اتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت اراها كما كان يراها الملايين غيرى على شـاشة التليفزيون . كنت ارى فى هذا التابع ظلام الجهل الذى يعشش فى دماغه ، وكنت ارى فيه الشعور بالنقص واضحا ، اما رغبته فى تحطيم من كان افضل واعظم منه فلم تكن تخفى على احد . وكنت أرى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليهاليظهر قدرته على أظهـار كل ماهو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته . وكانت تنتهى المحكمة واذكر اننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا . وكان لايتكلم منا أحد . ثم نتفرق واحدا وراء الآخر . لم يكن يتحدث معى عن ما رأينـاه وسمعناه احد ولم اكن انا أيضا اتحدث مع احد . حتى مع من كان يجمعنى واياهم المستوى الثقافى والنظـرة نحو الحياة . لم يكن يجرؤ واحد منهم ان يقـول لى شيئا او يعلق على مارآه وسمعه بشىء . ولعل ذلك ان يرجع الى اننى كونت فى حجرة المطبخ فى السـاعة الواحدة صباحا فى يوم من ايام هذه الفترة وكان معى « اين » الشاب الكندى . كنا نلتمس طعاما نسكت به « العصافير » التى كانت تزقزق فى بطن كل منا . واذا بالنزيل الزنجى « جون جراى » يأتى الى حيث كنا . كان فى الخارج وفى أثناء دخوله من باب المحلة ناداه احد رجال الشرطة من الزنوج . وقال لنا جون انه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون ؟ فنفى جون انه سمع شيئا غير عادى او راى فعلا استثنائيا . كـان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجـه وكـانت بداه ترتعشان . ولم نعلق بشىء ولكننا عرفنا اننا اى نزلاء

المحلة تحت المراقبة . ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له ان يعيش حياة الاغتراب ى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى آن واحد . ان المسألة ، كما كنت اقول لنفسى ، ليست جبنا او خوفا او خشية ، ولكن المسألة اهم من ذلك واعظم وهى أن احرص على حياتى ان تهدم بلا مبرر . اننى كنت اقتفى مثال « اسبارتاكوس » العبد الثائر ، الذى ثار على روما والدولة الرومانيةفىعنفوانها . كان اسبارتاكوس حريصا على ان يبقى حيا لكى يبدأ مهمته العظيمة ولكى يتمها بنجاح . وكان ينصح زملاءه بأن يحرصوا ما استطاعوا على صحتهم لكى يبقوا أحياء لكى يؤدوا ماعليهم من واجبات نحو انفسهم ونحو زملائهم ونحو المستقبل ، اقصد مستقبل الانسان لكى تتحقق انسانيته فعلا وحقا . وقد سمعت وقرأت عن مؤتمر « باندونج » الذى عقد فى شهر ابريل عام ١٩٥٥ ، وضم فى ذلك الحين تسعة وعشرين دولة من آسيا وافريقيا ، ممثلة فى رؤسائها ، وبحثت فيه موضوع مناهضة «الاستعمار» والتعاون الاقتصادى والثقافى فيمابينها . وكان الرئيس « جمال عبد الناصر » ومعه الزعيم الهندى « نهرو » والزعيم اليوغسلافى « تيتو » أول من اعدوا لهذا المؤتمر وشجعوا عليه توطئة لخلق « حركة عدم الانحياز » لتحقيق هذه الاهداف العظيمة . وقد عرفت أن الدولة المضيفة كانت « أندونيسيا » وان مدينة باندونج تقع فى جزيرة « جاوة » وهى واحدة من جزائر أندونيسيا العديدة . وكانت هذه المعلومات عندىجديدة ولكنها مهمة للغاية . وحاولت ان اتتبعها فى الجرائد وفى الاذاعات . وما انعلمت بأن احد أعضاء مجلس النواب الامريكى الذى ذهب مع من ذهبوا لحضور هذا المؤتمر ، قد أعد زيارات الى مدن الولايات المتحدة ليلقى فيها

محاضرات عن مؤتمر باندونج وان من بين هذه المدن مدينة بوستن ، وانه قد تحدد موعد حضوره فى مدينة بوستن في خلال شهر يوليو عام ١٩٥٥ ـ ما ان علمت بذلك الا وسارعت الى حجز مقعد لى فى الصالة التى ستلقى فيها المحاضرة فى نظير مبلغ معين لا اذكره الان . وعشت مترقبا الموعد حتى جاء ، وذهبت فوجدت القاعة غاصة بالمواطنين الاميركيين من الزنوج . ولم يكن من بينهم من غير الزنوج سوى عدد قليل جدا . وعلمت وانا فى القاعة ان المحاضر زنجي . وتمنيت ان استمع الى معلومات تشبع حب الاستطلاع لدى . فهاهو رجل شاهد عيان سيتحدث الينا عما رأى وعما سمع فى مؤتمر باندونج الذى يعتبر كما كنت اعتقد فى ذلك الحين انه علامة تاريخية سيكون لها آثار وآثار فى سبيل تقدم البشرية . ولكن ماذا قال المحاضر ؟ كان محاضرا لبقا مافى ذلك من شك ، تتدفق الكلمات من فيه بلهجته الزنجية الراقية سلسة عذبة . بدأ حديثه بأن وصف الفندق الذى نزل فيه . وصف طوابقه والصالات التى توجد فيه . ثم وصف الحجرة التى نزل فيها من حيث الاثاث الذى كان فيها ونوعه . ثم اذا به يتحدث عن الطعام الذى كان يتناوله : طعام الافطار وطعام الغداء وطعام العشاء . وعندما ذكر الاسعار التى تدفع نظير كل وجبة وجدت القاعة تضج والحاضرين يصفقون وهم مندهشون من رخص الاسعار . ثم بدأ المحاضر بذكر بالتفصيل ما رآه فى شوارع مدينة باندونج من الناس والبيوت من حيث ارتفاع طبقاتها ونظافتها . وكان فى كل ما قاله « الخطيب المفوه الذى يعى مايقول والغرض مما يقول» . وقد رأيت بعض الحاضرين عند ذكر اصناف الطعام قد سال لعابهم . واستمر هذا الخطيب المفوه يبدى ويعيد

ويكرر ماكان يقوله محاولا ان يستغرق من الوقت أطوله. وختم حديثه ، وكان التصفيق حادا ، عندما ذكر ان الملونين من الناس فى العالم هم اضعاف البيض ، وان النصر سيكون حتما حليفهم . لم يقل شيئا عن المؤتمر ولا عن الخطب التى القيت فيه ولا عن التوصيات شيئا. ان ماذكره كان استثارة للغرائز اكثر مما كان ملهما للتفكير المستنير . وقد حزنت لانني وجدت مثل هذا القائد الزنجى الذى تخلى عن واجباته نحو ذويه وأهله نظير دراهم معدودات يجمعها من هنا ومن هناك وستزيد حتما عن تكاليف ذهابه الى مؤتمر باندونج اذا كان قد صرف فعلا من حسابه سنتا واحدا . فمثل هذا الرجل يرسل خصيصا من جهة من الجهات المسئولة عن تخطيط السياسة فى الولايات المتحدة والنفقات تكون بالضرورة على حسابها . واثار هذا الحزن ذكرياتى عن زملائه المحاضرين الذين التى بهم عندما كنت شهدوا من اعضاء برنامج التوجيه الذى كنت قد حضرته فى احدى ضواحي مدينة نيويورك من قبل . وقلت لنفسى ان الشر لن يكون مطلقا ، والخير موجود حتما . وان الانتهازيين ليسوا وحدهم فى مجتمع الولايات المتحدة ، وان الاشراف أصحاب الرسالات والمبادىء موجودون بالضرورة ايضا فى هذا المجتمع . ولم يكن هذا الكلام ، مضمون حديثى الى نفسى ، مجرد عزاء لى ، ولكنى قلته وانا واثق مما اقول .

• وفوجئت كما فوجىء الملايين من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة بالاذاعات تبث فى خلال شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ ، وكأنها تنعق ، خبر الاتفاق على عقد صفقة لشراء اسلحة سوفيتية وقعه جمال عبد الناصر . وقد ذكرت تفاصيل هذه الصفقة فى الاذاعات وفى الصحف

اليومية والمجلات الاسبوعية . وأنا اذكـــر الآن بعض ماقرأت وسمعت عن هذا الموضوع من انه فى خلال عقد مؤتمر باندونج في شهر أبريل عام ١٩٥٥ تحـــدث عبد الناصر مع رئيس وزراء الصين الذى كان فى ذلك الوقت « شواين لاى » بشان شراء مايلزم الجيش المصرى من سلاح من الصين . ولكن شواين لاى أبدى عدم قدرة بلاده على توفير هذا السلاح ، ووعد بالعمل على الاتصال بالسوفيت فى هذا الخصوص . وجاءت موافقة الاتحاد السوفيتى على عقد صفقة شراء الاسلحة المطلوبة فى خلال شهر يونية عام ١٩٥٥ . واوفدت مصـــر بعثة عسكرية الى « تشيكوسلوفاكيا » لهذا الغرض فى خلال شـــهر اغسطس عام ١٩٥٥ . وبدا لى ان عقد صـــفقة شراء الاسلحة السوفيتية كان ضربة للحكومة الاميريكية وبخاصة لوزير خارجيتها « مستر فوستر دالاس » . والدليل عندي ان الاذاعات وكل وســائل الاتصال الاميريكية لم يقف نعيقها فترة من الزمان . واحسست ، وكان هذا الاحساس من دواعى اغتباطى وفرحي ، ان هذه الحكومة قد جن جنونها مما حدث ، على الرغم من لجوء الحكومة المصرية المرة تلو المرة الى حكومة الولايات المتحدة لشراء مايحتاجه الجيش المصرى من اسلحة واصرار الحكومة الاخيرة على عدم موافقتها على بيع سلاح لمصر . وكنت حريصا على ان يكون اغتباطى وفرحى لنفسى ، فلم اذعه او اتحدث عنه لاحد . وكنت اعتبر ان ماحدث هـــو احدى حسنات الحكومة المصرية على الرغم من السيئات العديدة التى اقترفتها وبخاصة ماتعلق منهـا بســيادة الحياة الديمقراطية واحترام الانسان المصرى واعطـائه الفرصة وهو على وشك التحرر من الاستغلال الاجنبى فى ان لايستغل من بنيه وذويه .

واننى اذكر ، وقد جاء الشتاء ، وانافى مدينة بوستن، وبدأ العام الدراسى الاكاديمى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ أقصد وبدأ الفصل الدراسى الاول منه ، ان الشعب الاميريكى قد فوجىء فى اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ بما قامت به السيدة الحائكة الزنجية « مسز روزا باريس » التى كانت تعمل فى معرض « مونتجومرى بولاية الاباما » ، واصبح ماقامت به هذه السيدة الزنجية تاريخا . كانت مسز روزا باركس بعد يوم شاق فى عملها فى طريقها الى « محطة الاوتوبيس » . وعندما ركبت وقفت فى القسم المخصص للزنوج وجلست فى اول المقاعد التالية للقسم المخصص للبيض . وكان « ألاوتوبيس » مزدحما فأمرها سائق الاتوبيس هى وثلاثة آخرين من الزنوج باخلاء مقاعدهم حتى يجلس مكانهم بعض الواقفين من البيض. واخلى الثلاثة الآخرون اماكنهم ، أما مسز باركس فقد رفضت . ولما كان مافعلته هذه السيدة الزنجية فى ضوء القانون يعد جريمة فقد قبض عليها وسيقت الى قسم الشرطة مشيعة ببعض ضحكات الركاب البيض ولعناتهم. وانقضى الحادث فى دقائق . ولكن من هذا الحادث الذى كان يبدو صغيرا انبثق مايشبه بالثورة فى محيط زنوج الولايات المتحدة . كان موقف مسز باركس يعتبر انفجارا دوى فى ارجاء الدولة ، وقد ابلغتنى « دوتى » النزيلة الزنجية فى محلة نورفلك انها تعرف هذه السيدة ، وانها سيدة طيبة « وفى حالها » ، وهى أى دوتى دهشت كثيرا لما حدث منها . والواقع أن دوتى لم تكن وحدها التى كانت تحاول اكتشاف السبب الذى حدا بمسز باركس الى اتخاذ هذا الموقف ، فقد علمنا أن سلطات مونتجومرى كانت تصر على أن « اتحاد تقدم الملونين » هو الذى دفعها الى ذلك والمتطرفون قالوا انها

عملية « شيوعية » . ولكن الحقيقة كما بدت لى أن مسز باركس انما عبرت عن روح العصر .لقد كانت واحدة من الزنوج الذين فاض بهم الكيل . وكان القبض عليها بمثابة الشرارة التى اشعلت نيران الحماس فى قلوب بعض السيدات الزنجيات فكون لجنة منهن التى اتصلت بالقسس وغيرهم من القادة الزنوج المدنيين ، وطالبت هذه اللجنة بمقاطعة الزنوج للاوتوبيسات وقد كانوا يكونون ٧٥٪ من ركاب الاتوبيسات . وأخذ « قس » شاب على عاتقه مسئولية توزيع المطبوعات التى تدعو الى المقاطعة . وكان هذا القس هو « الدكتور مارتن لوثر كنج » . كانت هذه الحوادث تجرى بسرعة مذهلة ، وكنا انا ومن حولى فى محلة نورفلك أو حتى فى الجامعة نترقبها اولا بأول ولم تكن ندرى ما الذى سيكون مصيرها، وان كنا ندرى ان ماحدث كله لم تكن ثورة ضد البيض بقدر ما كانت ثورة ضد قيادات الزنوج واهدافهم . وبخاصة امثال المحاضرين الزنوج الذين القوا محاضراتهم فى برنامج التوجيه الذى اعد لبعض الدراسات والدارسين الذين كانوا يزمعون الدراسة فى جامعات الولايات المتحدة عندما حضرت اليها فى النصف الثانى من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، او من امثال المحاضر الذى ذهب الى مؤتمر باندونج ليحاضر عندما عاد عن أحوال المعيشة فى باندونج وعن ألوان الطعام التى كان يتناولها وأسعارها الرخيصة التى كان يدفعها فى كل وجبة ، ولم يمس شيئا جوهريا عن ذلك المؤتمر . وفى اثناء هذه الفترة التى بدأتها مسز باركس وما اعقبها من حوادث كنت اتذكر ماحدث لى شخصيا عندما احسست بالحاجة الى شراء « اسبرين » فى يوم كان حارا وطقسه رطبا . اذكر اننى ذهبت الى احد المحلات التجارية المنتشرة فى احدى

محطات الاوتوبيس التى تقع فى حى روكسبرى ، لكى اشترى « الاسبرين » . والملاحظ أن جميع محطـات الاوتوبيس كانت مملوءة بالمحال التجارية التى يجد فيها المرء منا مايحتاج اليه ، وبخاصة اذا كان مايحتاج اليه من الحاجات العادية كالسجاير وعلب الشيكولاته والجرائد والاسبرين وغيرها . ولما سألت البائعة عن الثمن الذى كان على أن ادفعه نظير الاسبرين المطلوب ، وكانت المرة الاولى التى اشترى فيها هذا الصنف ، فاذا بها تنظـر الى بامتعاض ظانة اننى اتجاهل معرفة الثمن . واذا بها تندفع فى غضب وتقول لى « الا تعرف الثمن ايهـــا النجر ؟ » لم تقل « ايها النجرو » امعانا فى اظهار غضبها منى وازدرائها . فلما قلت لها اننى لست « نجرو او نجر » انما انا مصرى اطلب العلم فى جامعة بوستن لم يرقها كلامى وذلك لان جلدى الاسمر كان دليلا على صدق ماقالت . ولم يكن رد هذه البائعة على احتجاجى الا ان قالت لى « ادفع كدا ولا تزعجنى » ، ودفعت ماطلبت . ولكنى ذهبت الى حال سبيلى وانا اعذر زنوج الولايات المتحدة ومن فى حكمهم ، فقد عشت موقفا من المـواقف التى يعيش الواحد منهم المئات منها فى كل يوم . وتذكرت الرجل الزنجى العجوز الذى استضافتنى اسرته فى يوم من الايام لاتناول طعام الغداء عندما قال لى وهـــو ينصحنى « ياولدى لاتثق أبدا فى الرجل الابيض » . ومما حز فى قلبى انه كان يقف بجوارى احـد الزنوج الشبان عندما كان الحوار يجرى بينى وبين بائعـــة الاسبرين ، فاذا بى اراه وقد راى قسمات وجهى وقد تغيرت بعد المفاجأة التى سببها حديث البائعة لى ، يضحك ملء فمه . كان الموقف كما كان يبدو لى دراميا دعاه الى الضحك بصوت عال . ولم ادر فى ذلك الحين وحتى

الآن اذا كان ضحكه سخرية منى او من اجل ماحدث لى . ولكنى وانا اترك المكان قلت لنفسى صحيح ان شر البلية مايضحك .

وانا اذكر ترحيبى الشديد عندما دعيت الى «الكنيسة الخلاصية » او « كنيسة الخلاصيين » ، تلك الكنيسة البروتستانية التى يؤمن اعضاؤها ويعتقدون فى ان جميع الناس سينعمون آخر الامر بالخلاص . دعيت لا الى الصلاة ولكن لكى اشترك متطوعا فى الاشراف على دار حضانة اعدت للاطفال الذين يحضرون مع ذويهم الذين يحرصون على الصلاة فى هذه الكنيسة كل يوم احد . كان مبنى دار الحضانة ملحقا بالكنيسة وكان الآباء والامهات المصلون الذين يحضرون معهم اطفالهم يسلمونهم لدار الحضانة حتى تنتهى مراسيم الصلاة . وكان يشرف على هذه الدار سيدة مؤهلة حاصلة على درجة الماجستير فى علم النفس ، وقد دعيت لكى اساعدها فى الاشراف على اطفال الدار . وقد لبيت الدعوة لكى اعيش احدى التجارب فى الاشراف على الانسان عندما يكون طفلا ، كان الاطفال فى معظمهم من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة وكان امامهم اللعب اشكالا والوانا واحجاما . وكان يترك لكل طفل ان يمارس ماشاء له ان يفعل . وكانت التعليمات الموجهة الى ان لا اتدخل ضد رغبة اى طفل . وما على الا ان اراقبه واسجل مايقوم به من افعال او مايصدر عنه من انماط سلوكية . كانت تجربة رائعة لى وكنت ارغب رغبة اكيدة فى ان اواصل قيامى بها لولا الامتحانات والاستعداد لتحضير البحث الذى ستضمه الرسالة التى كنت ساقدمها للحصول على درجة الدكتوراه . ولم يمنع اشرافى على دار الحضانة ، اقصد الاشتراك فى هذا الاشراف اننى كنت اسمع الموعظة التى

تلقى فى الكنيسة بعد الصلاة . كان مضمون احدى هذه المواعظ لدهشتى الكبيرة دعوة للتبرع الى « الصين الشيوعية » حيث قد جرفت فياضانات بعض الانهار بعض الاماكن واغرقت من اغرقت ودمرت مادمرت ، وان من حق الصين ان نتبرع لها حتى تستطيع ان تواجه هذه الكوارث . والتبرعات قد تكون نقدية كما قد تكون عينية . وعندما نظرت الى سقف الكنيسة وجدت هذا السقف مزين بمثلثات كتبت على كل مثلث عقيدة من العقائد التى يعتنقها بنو الانسان على وجه الارض على اختلاف الوانهم وجنسياتهم ومكاناتهم الاجتماعية . وكان للديانة الاسلامية مثلث فى سقف الكنيسة الذى يظلل المصلين ويؤدون ماعن لهم من صلوات تحته . وقد علمت فيما بعد السبب الذى كان من وراء دعوتى للاشتراك فى الاشراف على دار الحضانة متطوعا . كان السبب الاول وربما كان الاخير لاننى أجنبى ، ووجودى بين الاطفال يعودهم على التعامل مع الاجانب فيما بعد عندما يشبون عن الطوق . وربما كانت هناك أسباب اخرى لم يذكرها لى احد ولم استطع ان احدسها.

ومن التجارب التى خضتها فى مجتمع الولايات المتحدة فى خلال تلك الفترة معاملتى للطلبة الاجانب الذين كانوا يدرسون في الجامعة ومعاملتهم لى . كنا نجد انفسنا دون ماسابق ترتيب نجتمع بعضنا ببعض فى زاوية من زوايا « حرم الجامعة » او فى « الكافيتريا » . اننا نعرف بعضنا بمجرد أن يرى احدنا الآخر . فلوننا مختلف وسمات وجوهنا متباينة وحتى اجسامنا من حيث الطول والقصر تكشف عن كوننا طلبة اجانب اذا كنا فى حرم الجامعة او فى الكافيتيريا او مجرد اجانب اذا كنا نسير فى الشارع او نركب الاوتوبيس . وكنت

اعرف طلبة من الهنود ومن الباكستانيين ومن سوريا ومن نيجيريا ومن السودان . وكنت اسعد بوجودي معهم في اوقات فراغي واعتقد انهم ايضا كانوا يستمتعون بصحبتي . ولاحظت في احدى المرات التي كنا مجتمعا مع بعض الطلبة من الهنود لا ينضم الينا احد الطلاب من الهنود . واذا كنت اجتمع مع هذا الطالب لا يجتمع معنا غيره من الطلبة الهنود . وكنت اعلم ان الطالب الهندي كان يعمل قاضيا في بلده وانه جاء ليستكمل دراساته العليا . وعندما حاولت ان اعرف لماذا لا نجتمع جميعا نتجاذب الاحاديث ونتبادل الخبرات في المجتمع الذي نعيش فيه في ذلك الحين . قال لي طالب من الهنود وكان يعتنق العقيدة الهندوسية انه وزملاءه لا يمكن أن يجتمعوا بالطالب الهندي « القاضي » لانه لا يعتنق عقيدتنا وليس من طبقتنا فهو من طبقة المنبوذين في بلده . وذكرت له محتجا بأنني وانتم نعيش والجميع من حولنا يعيشون في مجتمع مختلف من حيث القيم والعادات والتقاليد . وان هذا الطالب اولا وقبل كل شيء آدمي مثلنا ، فضلا عن انه يمارس مهنة شريفة في بلده ؛ وهو الآن ، اى في ذلك الحين ، يؤدى دورا شريفا انا أؤديه وكلنا نؤديه هو دور الطالب . وذهبت احتجاجاتي كلها وكل ماحاولت ان اذكره لانصاف هذا الطالب « المنبوذ » أدراج الرياح . وامتنع الطلبة الهنود الذين كانوا يعتنقون العقيدة الهندوسية عن مقابلتي والاجتماع بى ، وتركتهم يفعلون ذلك وانا غير آسف . وفى ضوء خبرتي الماضية تذكرت الرواية التى كتبها « مالك راج اناند » وكان عنوانها « المنبوذ : طبعة عام ١٩٤٧ » . واننى اذكر اننى كنت اقرؤها والغضب يملأ على كياني والحزن على الانسان المقهور يعتصر فؤادي .

انني اذكر بطل هذه الرواية جيدا . كان اسمه «باخا» ، وكان يعمل « كناسا » ، وكان يحتبر ومن كانوا من طبقته انهم مجرد « قذارة » ولكنه [illegible] في نحو الاعمال التي كانوا يقومون بها ، في حقيقة الامر ينظفون قذارة « الاخرين » ! كانت لدي هذه [illegible] المبادىء او المثل العليـــا ، ومع ذلك فانني احسست عندما قابلت الطالب الهندي المنبوذ بعد ذلك لاول مرة احساسا غريبا لا يمت بالمبادىء والمثل العليا التي كنت ، ومازلت ، اتشدق بها عن الانسان وكرامة الانسان [illegible] ماهذا الاحساس الذي شعرت به عندما [illegible] هـذا الطالب المقهور ياربي ؟ هل [illegible] نفسي ياترى ؟ انني لم اكن ادري ، وحتى الان ، وعلى الرغم من مواصلة معاملتي لهذا الطالب معاملة كلها الحب والاحترام حتى افترقنا، تفسير ما ساورني من احساس عندما قابلته بعد ان قيل لي عنه انه من المنبوذين في المجتمـع الهندي . واذ اصف هذا الاحساس الان فانني اقول انه كان احساسا ظالما . ولكن من حسن الحظ انه لم يستمر سوى لحظات ، ولكنني مارسته . ولماذا حدث ذلك ياربي ؟ ولعل ماحدث لي كان من قبيل ما حـدث عندما قابلت القسيس صديق مواطني الذي كان ضيفي وكان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، فما ان عرف هذا القسيس صديق مواطني هذا « انني مسلم » رفض ان يصافحني بعد ان مـــددت يدي لمصافحته . انه مد يده لي فعلا استعدادا لمصـــافحتي ولكنه سحبها ورفض ان يسلم علي لمجرد انني كما قال له مواطني ، دون مادلع ، « انني مسلم » . ولعل ذلك مثل ماكان يحدث في محيط جماعة الطالبات والطلبـة الجامعيين في جامعات مدينة بوسطن ، الذين كـــانوا

يتخذون محلة نورفلك مقرا لهم في صيف كل عام . وذلك ليقوموا بعمليات تنظيف الشقق التي يسكن فيها فقراء « حي روكسبري » ، بعد ان يتفقوا مع اصحابها في خلال فصل الشتاء . وكان اصحاب هذه الشقق من البيض الفقراء ومن الزنوج المطحونين .وكان طالبات وطلبة جامعات بوستن هؤلاء من الاسر التي تستطيع أن تدفع مصاريف الجامعة العالية فضلا عن المصاريف الاخرى التي تتطلبها المعيشة الرغدة لبناتها وابنائها . كان هؤلاء الطالبات والطلبة من طبقة غير الطبقة ، ويحاولون أن ينزلوا الى الطبقات الدنيا ليحتكوا ثقافيا باعضائها فيفيدوا . وفي نظير ذلك او في سبيل تحقيق ذلك يلتمسون القيام باداء خدمة مثل تنظيف الشقق عن طريق تبييضها او نقشها او اعادة تبييضها أو نقشها . وكنت ترى اعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم « السلم الخشبي » او في ايديهم الفرشاة او « جردل البوية » ويسيرون في الشارع باصرار ودون ماوجل او خشية من احد . وكنت ارى ذلك مع من يرون ، وكنت ارى اعمق من ذلك في كل عضو من اعضاء الجماعة ، كنت ارى الحماس «العاقل»، وكنت ارى الزهو احيانا ، وكنت ارى التواضع او ماكان يبدو لي انه تواضع . ولانني كنت احد نزلاء محلة نورفلك ، ولان وقت الفراغ عندي في خلال فترة الصيف اطول منه في فصل آخر ، فقد كان المسئول على اعضاء الجماعة يوجه الدعوة الي لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية . لم تكن هذه الدعوة توجه الي يوميا بالطبع . فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها ولم اكن عضوا فيها . وكانت الجماعة تعيش في محلة نورفلك في فترة الصيف حيث لا عمل فيها او في

الجامعة . أن اعضاءها في حقيقة الامر كانوا يقيمون فى المحلة اقامة فعلية لفترة لا تقل عن شهر . وفى الاجتماع الذى كنت أحضره ، أجد ان كل عضو يدلى من ورقة بشيء يشبه التقرير عما مر به من تجارب وما اكتسب من خبرات . وكان من بين اعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل « ولاية الباما » و « ولاية جورجيا » . وفى احد الاجتماعات ادلى أحدهم وكان من احدى العائلات البيض الثرية تقريره اليومي وكان مع آين يسهم فى تنظيف احدى الشقق لاسرة زنجية . كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة جامعة « هارفارد » فى منطقة « كامبردج » التى لا يفصلها عن جامعة بوستن الا كوبرى صغير . وبدت على وجه الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا . وقال ضمن ماقال انه لا يطيق رؤية احد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له ان يقوم بتنظيف شقة اسرة زنجية او ان يسهم فى هذا التنظيف . انه ، وكان شابا ذكيا ، لايرى بعقله ضرورة للتقزز والاشمئزاز والازدراء من هذا العمل ، ولكن مشاعره تأبى عليه أن يواصل مابدأ . كان الموقف حرجا وبخاصة وكنت حاضرا وكان رئيس الجماعة او المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة الى جلسة مقبلة ، وسرعان ما قام بعض الاعضاء ليعدوا لكل من الحاضرين وانا منهم كوبا من الشاى ومعه نوع من « الكعك » الذى يسمونه فى الولايات المتحدة « دونتس » . والذى لاحظت ان الاسرة التى ولدت لها طفلة حديثا توزع على الضيوف المهنئين هذا النوع من الكعك ، اما الاسرة التى ولد لها طفل ذكر حديثا فقد كانت توزع على الضيوف المهنئين « سيجارا » ! ومن هنا تبدأ التفرقة بين الذكر والانثى

حتى فى مجتمع الولايات المتحدة . اننى لاأذكر ماحدث امامى من هذا الطالب الذى ولد فى ولاية جورجيا ونشىء فى ظل مناخ ثقافتها حيث يعيش الزنوج حياة لا آدمية ، وحيث ينظر اليهم وكأنهم أقرب الى الحيوانات منهم الى بنى الانسان ، وحيث يلاقون كل ما يتصور او لا يتصور من الوان القهر — لكى أبرر الاحساس الغريب الذى ساورنى عندما قابلت الشاب الهندى بعد ان علمت انه من طبقة المنبوذين فى بلده . اننى لم أنشىء في مناخ يؤكد كرامة الانسان وتكريمه وانه « لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ». فلماذا أحسست بما أحسست هذه هى المسالة . لعل ذلك ان يكون بسبب ما قرات عن المنبوذين فى المجتمع الهندى . ولعل ذلك ان يحدث عندما لا يجحد الذى يعمل فى مهنة كمهنة « الحانوتى » صديقا يزوره وهو مريض او حتى يزوره وهو سليم ولكنه يحتفل بزواجه او بزواج احد أقربائه الاقربين ، ومهمايكن من الامر فاننى قد تأكدت من ان تصرفات الانسان منا لايمكن ان تكون مطلقة . فهى قد تكون تصرفات الاشرار الجبابرة الذين لا يرون الا اللذة فى التدمير والدمار . ومهما يكن من الامر « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى لا انعى على مجتمع الولايات المتحدة التفرقة فيه بين الذكر والانثى . اننى لا ادعو الى المساواة المطلقة بين الذكر والانثى ، اى اننى اذا دعوت الى المساواة بينهما فأنا لا اقصدر ابدا التطابق بينهما بل أننى اقصد ان تكون المساواة بينهما مساواة فى الفرص . اى ان يتيح المجتمع اى مجتمع للانثى مثل الذكر فرص التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والفرص فى

قوة العمل والعمل السياسي والقيادة .. الخ ومهما يكن من الامر فلعل ماحدث من احساس غريب أزاء الشاب الهندى « المنبوذ » كان رد فعل للمفاجأة التى واجهتها عندما اخبرنى الطالب الذى يعتنق العقيدة الهندوسية عنه انه من طبقة المنبوذين ، وان رد الفعل هذا كـان ، فى ضوء ماأعتنق من مبادىء اكتسبتها من تنشـئتى الاجتماعية فى ظل ثقافة المجتمع المصرى الخـالد ، احتجاجا عنيفاعلى ماسمعت بلغ من عنفه أن وصل الى اعماقى فكان هذا الاحساس الغريب .

واستمرت زياراتى لمس ويليامز فى المؤسسة التى تشرف عليها احيانا ، او فى مصيف « روك بورت » عندما كانت تدعونى فى خلال فصل الصيف اذا كان وقتى يسمح بذلك احيانا اخرى . وكما قابلت الدكتور موريس ساندرز عندها فى مصيف روك بورت فى صيف عام ١٩٥٤ ، فاننى فى المؤسسة قابلت المواطن « حليم الضبع » وهو موسيقار او اصبح كما تشهد صحف الولايات المتحدة ومنها « كريستان سينس مونيتور » موسيقارا يؤلف الموسيقى وله مريدوه الذين يحبـون موسيقاه ذات الطابع الخاص . قابلت المـواطن حليم وعلمت منه انه جاء الى الولايات المتحدة كخريج كليـة الزراعة ولكنه كان يعشق الموسيقى وبخاصة العزف على آلة « البيانو » ، فاذا به يترك البعثة التى جاء من اجلها الى الولايات المتحدة ويدرس الموسيقى . كان مازال فى اول السلم . وانا اذكر أننى عندما قابلته لاول مرة كان يعزف وحده امام جمهور ليس كبيرا موسـيقى مـن تأليفه ، وكان يستعمل مع آلة البيانو « الطبلة » التى نعرفها فى مصر حق المعرفة ، ونراها فى الافراح وفى المناسبات السعيدة بين أيدى البنات المصريات يعـزفن

عليها لحنا راقصا يحفز البنات الاخريات وحتى النساء الى الرقص . وكانت آلة الطبلة هذه آلة لايعرفهـا فى الغالب عامة شعب الولايات المتحدة . فكان وجودها مع حليم وهو يعزف عليها باتقان مدعاة للاعجاب . انتهى المواطن حليم من عزفه واستحسن بعض الحاضرين ماعزف وكان ماعزف عند البعض الاخر شيئا ينم على الغرابة . وكنت اجلس بين الحاضرين وانا مشفق كل الاشـــفاق متمنيا لمواطنى النجاح والتوفيق . وكـــانت تجلس بجوارى سيدة شابة ابلغتنى انها زوجة حليم وانهمـا قد انجبا ابنة اطلق عليها اسم « شادية » تيمنا بالمغنية المصرية المعروفة « شادية » . وقد تزاورت مع مواطنى حليم . كنت اذهب اليه عندما ازور مسر وليامز وكان يزورنى فى المحلة وكنا نقضى فى كل مرة وقتا سعيدا . وقد يسرت مس وليامز له مكانا لكى يسكن فيه على ان تقوم زوجته « مارى » وهذا اسمها بالخدمة فى المؤسسة التى تشرف عليها لفترة ساعات محددة فى كل اسبوع. وكانت مارى تعمل كل مافى وسعها لكى تيسر لمـــواطنى حليم الضبع « مشروع الموسيقار » فى ذلك الحين . المناخ الثقافى الصحى لكى يتفرغ لموسيقاه . كانت هذه الزوجة تؤمن ايمانا عميقـا بموهبة زوجها . وكانت ترفض اقتراح عودة حليم الى بلده لكى يشق طريقـه فيه . كانت ترى انه سيقابل بالعقبات الكؤود مما يبدد طاقته فيما لم تخلق له . ان هذه الطاقة طاقة حليم ، كما كانت تقول زوجته ، طاقة ثمينة ويجب أن تستنفد فى دراسة الموسيقى وتأليف الموسيقى والتفــــرغ للموسيقى . وقد ابلغتنى مارى كيف قابلت حليم لاول مرة . كانت قد تسلقت تلا من التلال التى توجـد فى الولايات المتحدة . وكانت وحدها . ثم صلت لله .

وتمنت ان من يأتي بعدها يكون شابا ، وان يكون هـذا الشاب من نصيبها كزوج المستقبل . واتى حليم فعـلا متسلقا التل بعدها . وتعارفا . وكان من نصيبها ان يكون زوجها وأبا لابنتها شادية التى عندما رأيتها لاول مرة كانت طفلة تحملها عربة يد ولم يكن قد بلغ عمرها اكثر من عدة شهور . وانا لا اعلم منذ عودتى الى مصرنا الخالدة عن حليم الضبع الموسيقار ولا عن زوجته مارى ولا عن ابنته شادية او غيرها من ابناء او بنات شيئا . ولكنى مازلت اذكر الساعات الحلوة المثمرة التى كنـا نقضيها فى اوقات فراغنا . وقد علمت ان حليم عاد الى مصرنا الخالدة ليجمع بعض الاغانى الشعبية المصرية من بلاد النوبة قبل الانتهاء من بناء السد العالى ، وغيرها . ثم غادر البلد الطيب ، ولم أحظ بمقابلته ، بما حمل من كنوز الى حيث ولدت زوجته مارى وابنته شادية ..

ومنذ ان قابلت الدكتور موريس ساندرز عند مس وليامز فى مصيف بورت فى عام ١٩٥٣ ، وهو لم يقطع زياراته لى فى محلة نورفلك . كان يأتى الى ليزورنى ويتحدث معى مرة فى كل أسبوع او مـرة فى كـل اسبوعين . كان يحاول ان يعرف عنى الشىء الكثير . وكنت تراه يقلب فى الكتب التى اقتنيها . وكنت أشترى هذه الكتب كلما مررت بمكتبة تبيع الكتب . انها زادى العلمى والثقافى . وان لم تكن المصدر الوحيد لهـذا الزاد . كان يأتينى على حين غرة ودون سابق ميعاد ، ويتصادف وجود أطفال الاسر التى تعيش معى فى المحلة عندى ، كانوا يأتون الى لكى ، كما كانوا يتصورون ، « يضحكوا على ذقنى » فيأخذوا بعض الحلوى والفاكهة التى عندى وقد يطلبون نقودا . وكنت البى رغباتهم فهم عندى لا يضيعون وقتى بل على العكس كانوا يزودوننى

باسمى العواطف التى كانت تتغذى روحى عليها فاجدنى بعد ان يذهبوا غانمين انشط لاستذكر دروسى او ابدا صفحة جديدة فى البحث الذى أقوم باجرائه . واذا جاء دكتور موريس وكان الاطفال عندى فانهم كانوا يصابون بخيبة امل كبيرة ويرفضون باباء كل مداعباته التى كان يحاول ان يجتذبهم بها اليه . وذات مرة وجدت أحدهم وكانت « المسطرة » التى استعملها على مكتبى ياخذها ويمسكها بيديه ويصوبها نحو دكتور موريس وكأنهــا « بندقية » وانه يقصد ان يقتله . واذا كان من حظى ومن حظه ياتى وانا وحيد فان الفرصة تكون متاحة للحديث . تحدثنا عن بيروت المدينة التى كان يعمل فيها ، وتحدثت عن ذهابى الى مدينة بيروت لاول مــــرة فى عام ١٩٤٩ لاحضر « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ، وتحدثت عن مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر وكيف نشأت ، وكان ضمن من تحدثت عنهم « الدكتور ويندل كليلاند » الذى أسهم فى انشاء « الجمعيــــــة المصرية للدراسات الاجتماعية » . وكان الدكتور موريس يتحدث عن « القضية الفلسطينية » وكان يؤكد ايمانه بحــق العرب ويشيد بمن عرفهم من قادتهم . ويحاول دائمــا ان يبدى العاطفة نحو قضيتهم . وكان يأتينى باخبار عن أناس شاهدوني وانا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » التى كنت أحد اعضائها ممثلا للجمعية المصرية للدراسات الاجتمـــاعية . او يأتينى بتحيــات دكتور ويندل كليلاند الذى قال عنه انه يعمل الان اى فى ثلاثة السعين فى وزارة الخارجية الامريكية ! وفى يوم من الايام ذكر لى عن « الدكتور حليم مترى » الذى كان يعمل معنا فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحـــكمة الاحداث لفترة قصيرة من الوقت ثم هاجر الى الولايات

المتحدة . وقال عن الدكتور حليم انه يود أن يرانى واعطانى رقم تليفون منزله واكد لي على الوقت الذى اجده فى المنزل اذا كانت لى رغبة فى التحدث اليه والاتفاق معه على موعد . ومن احاديث الدكتور موريس ومن الاخبار التى كان يأتى بها عنى علمت علم اليقين اننى تحت مراقبته . اى انه كان يحاول ان يتأكد من صدق المعلومات التى كنت ادلى بها اليه عن نفسى وعن مهنتى وخبراتى ومن اعرف من الناس . ووجدته ذات مرة وهو يزورنى فى حجرتى فى محلة نورفلك يقفز كالملسوع عندما راى كتابا كنت قد اشتريته لتوى ويتضمن « دراسة حالة » بعض شيوعى مجتمع الولايات المتحدة، وانتهى مؤلف الكتاب الى بعض النتائج منها ان هؤلاء الاشخاص اما ان يكونوا مرضى عقليا او مرضى نفسيا ، وانهم فى ضوء دراسة كل منهم عاشوا فى اثناء مراحل طفولتهم حياة خالية من الحب واقرب الى التعاسة منها الى السعادة . اى ان مؤلف الكتاب يحاول باسم العلم او باسم الدراسة العلمية ان يشجب « المذهب الشيوعى» عن طريق بعض قادته الاميريكيين . ومع ذلك فان الدكتور موريس بدا منزعجا لان مكتبتى تضم هذا الكتاب وطلب منى ان اسمح له باستعارته لكى يقراه ، واننى اذكر اننى اجبته الى طلبه . واذ ابحث عن هذا الكتاب فى مكتبتى منذ عودتى من الولايات المتحدة فلا اجده وتذكرت اخيرا ان الدكتور موريس لم يرده منذ ان استعاره منى . ومع ذلك فان هذا الرجل كان من العوامل الهامة لكى أعرف الكثير عن المجتمع الاميريكى وبخاصة عن اعضائه الذين يفخرون بأنهم « يانكيون » اى الذين يرون انفسهم من الصفوة المختارة فى هذا المجتمع . وتراهم ، والمجتمع الاميريكى فى تغير مستمر،

يدعون بأنهم هم اصل الحضارة الاميريكية وان الثقافات الفرعية مازالت تدين لثقافتهم الاولى بالشيء الكثير . فالفردية مازالت سائدة في المجتمع الاميريكي . وفضلا عن ذلك فان حب المبادرة وعشق النجاح المادى وروح المغامرة ، كلها ، من سمات هذا المجتمع . وقد تضاف الى هذه السمات كذلك سمات التدين والمثالية والمساواة والاستقلال فى ابداء الرأى والديمقراطية سواء كانت سياسية او اقتصادية « ومن قيم الاخيرة ان المستهلك ملك مثلا » . وكان موريس ساندرز يدعوني الى القاء المحاضرات ، وهو يباهى نفسه ويباهى الاخرين ، فى الجمعيات المنتشرة فى روك يورك حيث يعيش معظم ايام السنة . وكان يفاخر بي كأحد الدارسين الذين على وشك الحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، واذكر بهذا الصدد ان احدى الفتيات المعوقات ، وكانت من اسرة ثرية جدا ، ولا تجد الا اوقات الفراغ تملأ عليها حياتها . لا صديق ولا حبيب ولا زوج . فاستغلت هذه الاوقات لكى تتعلم الرسم ، وكانت لديها الموهبة فعلا ، فاتجهت الى الاعداد لقيام معرض لها ، ولم يكن المعرض الاول ، تتضمن لوحاته وجوه اشخاص متباينين ، ذكوراً واناثا ، فاختارنى الدكتور موريس لاكون واحدا من هؤلاء . واذكر ان هذا المعرض قد أقيم فعلا وحضر جميع من قاموا بدور « الموديل » من الذكور والاناث وغيرهم من الضيوف وكان يوما حافلا بدأ الناس الذين قاموا بدور الموديل وغيرهم ينظرون الى الصورة والى الاصل ويعجبون أو يبدون وكأنهم يعجبون . فالفتاة كانت لا اصابع لها ، واقدامها لا تستطيع الوقوف عليها ومع ذلك فقد كانت مثالا للشجاعة والاصرار . ولعل ظروفها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية قد يسرت لها أن

تقوم بما كانت تقوم به وان تشغل اوقات فراغها بعمليات الخلق الفنية وتذوق كل ماهو جميل . وقد جلست أمام هذه الفتاة بضعة ايام ، ولكنني كنت اجلس فى كل يوم بضع ساعات فقط حيث احدالخدم والحشم من حولى يحاولون ان يغرقوني بالالوان العديدة من المأكولات والمشروبات التى تدل لا على الكرم بقدر ماتدل على الثراء الفاحش . فالاوانى التى كانت تقدم فيها هذه المأكولات والمشروبات لا تقدر بثمن أو لا يستطيع شخص مثلى أن يقدرها بثمن . وكان موقع المكان الذى كنت اجلس فيه قطعة حية من الجمال بألوانه المختلفة . كان كل شيء جميلا: الحديقة ومافيها من ورود وثمار والارائك والكراسي والنظافة التى تلمسها فى الحوائط وعلى الارض وقطع الاثاث الفنية التى تزين كل ركن فى الحجرة فضلا عن الحديث والكلاسيكى من الصور التى تزدان بها الحوائط . اجل كان كل شيء جميلا وقد تعمد أصحاب القصر ان يجعلوا المكان كذلك لكى يجتذب انظار الزائرين فلا يرون فتاتهم المعوقة الا وهى فى هذه البيئة الخاصة فتجتذبهم الاشياء الجميلة التى فيها اكثر مما تجتذبهم ماكان تعانى الفتاة من عاهات وتشوهات . وفى الحقيقة ان كل ذلك بالاضافة الى المهارة التى كانت تبديها وهى تمارس عمليات الرسم والشجاعة والاصرار التى كانت تعكسها قسمات وجهها الدميم ، وغيرها ، كانت تجعلنى وانا جالس امامها لا أرى الا جمالا محببا سواء اكان هذا الجمال ماديا أم معنويا .

وقد تحادثت تليفونيا مع الدكتور حليم مترى وتواعدنا لاقابله ويقابلنى . فقد كان هذا الرجل انسانا كريما . كان اول من لبى لفحص امى عندما مرضت مرضها الاخير. فكان له على حق كبير . وكان لا يرفض

اداء خدمة طبية لاحد وبخاصة للفقراء وذوى الحاجة فكنت تراه في عيادته فى ميدان الجيزة وكأنهـا مسترصف خيرى . وقد كان شخصا مثقفا حقا ويتقن اللغات كما كان يتقن اداء مهنته كطبيب . كان يعمل معنا كعضو من اعضاء اسرة مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وعندما صمم على الهجرة الى الولايات المتحدة ليدرس علم النفس التحليلى ولكى يؤهل ليصبح طبيبا نفسيا ، ودعناه وكان حبنا واحترامنا له يسبقاننا . ذهبت مع الزميلات والزملاء الى المحطة لنقول له الى اللقاء والقطار يسير به الى مدينـة بورسعيد حيث يأخذ السفينة التى كانت ستقله الى مصيره . وكانت لحظات ، وبالها من لحظات . كنـا نحن الاخصائيين الاجتماعيين ومعنا السـيدة الزا ثابت قد احسسنا وكاننا فقدناه الى الابد . وتقابلنـا فى الموعد وكان سعيدا باللقاء وكنت باللقاء ايضا سعيدا . وجلسنا ساعة او بعض الساعة نتحدث عن الماضى وعن الحاضر . كان قد حقق امنيته واصبح طبيبا نفسـيا ناجحا فى احد المستشفيات . وقبل أن نفترق تحدثت معه عن المواطن حليم الضبع وزوجته مارى وابنتهمـا شادية ، فرحب بمقابلتهم فى مسكنهم ، وتم اللقاء فى مسكن حليم الضبع بعد موافقته هو وزوجته . وكانت جلستنا طويلة واحاديثنا اطول . تحدثنا عن مصـرنا الخالدة وعن الفنون بألوانها وعلى راسها فن الموسـيقى الذى يمارسه حليم الضبع . وكنت وهو من حين الى حين نتذكر الماضى ، الاماكن والاشخاص . وقد بدا لى انه تغـير بعض الشىء فى الوقت الذى أبدى نفس الملاحظة عنى ، فقد لاحظ أن شعر رأسى بدأ يتساقط . وداعبنى فى هذا الشأن مداعبة اسعدتنى كما اسعدت

المضيف وزوجته . ثم حان الحين لكى ننصرف ولكن الدكتور حليم مترى اصر على دعوتنا على تناول عشاء . وعلى الرغم من سنه الذى جاوز الخمسين فقد كان لم يتزوج ، ومن ثم كان تناول العشاء فى احد المطاعم المعروفة . وذهبنا حليم الضبع ومارى وانا ووجدناه ينتظرنا فى الموعد والمكان المحددين . وكانت ليلة سعيدة حقا . كان الطعام شهيا فعلا وكانت الاحاديث اشهى . وتفرقنا ولم ار الدكتور حليم مترى الا بعد ان انتهيت من مهمتى وتحدد موعد عودتى الى القاهرة ، وكنت وحدى ، وابلغنى رسالة شفوية للسيدة اخته عندما اعود . ولكنى كنت ارى المواطن حليم الضبع ومارى وشادية فى خلال الفترة التى كنت مازلت انتظر فى خلالها تحديد موعد مناقشة الرسالة التى قدمتها وفاء لمطالب الحصول على درجة الدكتوراه .

وعندما حان موعد مناقشة هذه الرسالة فى اول شهر مايو عام ١٩٥٦ كانت سعادتى مابعدها ولا قبلها سعادة . فقد مرت الايام التى كنت انتظر فيها هذا الموعد ثقالا وخفيفة . وكان بعضها حلوا وكان بعضها مرا . وحتى فى اثناء الايام الحلوة التى مرت بى فقد كنت اشعر دائما باننى احد اعضاء احدى اقليات مجتمع الولايات المتحدة . وقد عانيت المرض مرارا وتكرارا . وكنت احيانا اشعر بالمرض واعرف نوعه . وكان للصيدلى امريكى الجنسية اليونانى المولد الفضل الاكبر فى تخفيف آلامى . وقد كنت مريضا بعد انهيت مهمتى ولم اكن ادرى بمرضى حتى اكتشفه الاستاذ الدكتور « جان دوس جالى » عندما عدت الى القاهرة . ويبدو ان انقاذى من الاستجابة للنزوات الانسانية لم يكن مبعثه المرض وحده بقدر ماكان مبعثه استغراقى الشديد وعملى المتواصل من اجل تحقيق المهمة التى من اجلها جئت الى الولايات

المتحدة في يوم ٢٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ . وكم آلمني هذا الاستغراق الشديد وهذا العمل المتواصل ، وكم عانيت منهما نفسيا . وقد اصبحت في نظر من حولي « هزيلا » وتشع عيناي الحزن الدفين . ومهما يكن من الامر فان الاستغراق الشديد والعمل المتواصل كانا من عوامل خروجي من ازماتي النفسية ، كما كانا في الوقت نفسه من عوامل الامراض التي المت بي . اقصد الامراض الجسمية التي كان من بينها « مرض التهاب الكلية اليمنى ومرض التهاب المرارة « اللذين بسببهما او بسبب احدهما أصبت بمرض ارتفاع ضغط الدم » . وانا اذ احاول ان اشخص ما ألم بي ، من حيث لا ادري ، وانا اكتب هذه السطور ، فان هذه المحاولة هي مجرد اجتهاد . وذلك لانني في ضوء تعاليم الطبيب خضعت لاجراء عملية جراحية في « كليتي اليمنى » ولكن كان مرض « ضغط الدم » مازال قائما وكنت من اجل ذلك اتعاطى الادوية المستمرة لفترة طويلة ، ولما خضعت مرة اخرى لاجراء عملية « استئصال المرارة » ، لم يصف الطبيب دواء لضغط الدم ، وان كان قد وصف ادوية اخرى تتعلق باستئصال المرارة . ولم اكن اشعر فحسب بأنني احد اعضاء احدى اقليات مجتمع الولايات المتحدة ، ولكني كنت اشعر انني تحت المراقبة . كانت مس وليامز تكاد ان تطاردني ب « عزايمها » ودعواتها ، وكان الدكتور كاوتس وزوجته المجريين الاصل الاميريكيين الجنسية يطاردانى فعلا لكي احضر اسبوعيا الى منزلهما واقضي النهار بطوله معهما ، وكان الدكتور موريس ساندرز لايفتيء ان يحضر الى في محلة نورفلك في كل حين دون ماسابق انذار وكان يحاول ان يرسل الرسائل الى مدينة بيروت او الى مدينة واشنجطن والى غيرهما ليتأكد من « هويتي » ولكن يعرف عني ماشاء ان يحاول

ان يعرف . انني في البداية كنت أشكر الجميع لاهتمامهم بي ، ولكنني تأكدت بمرور الوقت أن هذا الاهتمام لم يكن « لسواد عيني » . وانني عندما كنت احس بالاغتراب وانني موجود وغير موجود في آن واحد اسعد بصحبة هؤلاء الناس ، ولكن سرعان ما كنت أفيق لنفسي واحاسبها على كل كلمة اقولها . وعندما تحدد موعد مناقشة الرسالة أصر الدكتور موريس ساندرز على أن يصحبني الى حيث يناقشني اعضاء هيئة التدريس في قسم الاجتماع والانثروبولوجيا الذي كان يرأسه البروفسور البرت موريس . وناقشني الاساتذة لمدة ساعتين مناقشة غير علنية . وقد كان الفضل للبروفسور موريس عندما التأم جمع الاساتذة وكنت جالسا في احدى الحجرات وحدي وقال لي بأن لااخشى أحدا لانني كما ذكر الوحيد الذي يعرف مضمون الرسالة من الالف الى الياء . وانتهت المناقشة على خير مايرام . وهنأني الاساتذة وشكرت كل واحد منهم شكرا مخلصا . وآن الاوان لكي أعود الى محلة نورفلك أقصد الى بلادي ، وخرجت الى الشارع فوجدت الدكتور موريس ساندرز منتظرا وسألني عما حدث وما أن ذكرت له بعض ماحدث ونتيجة ماحدث اذا به يقترح على ان يدعوني الى احد المطاعم التي تقدم ألوانا من الطعام على الطريقة الفرنسية احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . وقد لبيت هذه الدعوة شاكرا حامدا . وعدت الى محلة نورفلك واستقبلني الزملاء استقبالا طيبا واصروا ان يحيوا احتفالا على شرفي بالمناسبة . فحددت لهم موعدا متأخرا حتى اقوم بحجز مكان لي على السفينة التي كانت ستقلني الى بلادي . وبعد ان اتممت الاجراءات الضرورية ومنها انه لا توجد علي لحكومة الولايات المتحدة ضرائب مستحقة ، سارعت الى حجز مكان لي في

السفينة التى كانت ستقلع من مدينة نيويورك » فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . واقام الزميلات والزملاء فى يوم ٣ من شهرمايو عام ١٩٥٦ احتفالا على شرفى بمناسبة حصولى على درجة الدكتوراه . وقد شكرت لهم جميعا وبخاصة الذين تفضلوا بالإعداد والاشتراك . وقال كل منهم كلمة بالمناسبة ولكنى ، كما كانوا وكان غيرهم يروننى . كنت هزيلا وكان الحزن العميق العميق يبدو واضحا فى بريق عينى . لم اكن حزينا لفراقهم ولكن لما لاقيت ، كما استطيع الآن ان افسر هذا الحزن الدفين العميق من الوان العناء فى ضوء التجارب التى خضتها منذ ان مات ابى فى مساء يوم السبت ١٨ من شهر يناير عام ١٩٣٠ ولا يعنى هنا التفسير اننى اغمط حقوق هؤلاء الزميلات والزملاء على واحتضانهم لى وشغفهم بمحادثتى من حين الى حين واصرارهم على ان اكون بينهم فى رحلاتهم وفى حفلاتهم فى المناسبات ، ثم اخيرا وليس آخرا خطاباتهم التى ارسلوها لى بعد عودتى الى القاهرة وكانت تتضمن مايدل على العلاقات الطيبة الكريمة التى كادت ان تتوطد بيننا . ولن انسى « البرقية » التى انتظرتنى عندما اعطاها لى الشخص المسئول وانا فى طريقى الى حجرتى فى السفينة فى يوم السابع من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولا اخفى على القارىء الشعور بالذنب الذى كان ينتابنى كلما تذكرت معانى التعبيرات التى قالها زملائى وزميلاتى فى الحفلة فى الاحتفال الذى اقاموه على شرفى ، أو ذكروها فى خطاباتهم التى لم تنقطع لامد طويل ؛ وذلك لاننى لم احزن ابدا لفراقهم . ولعل ذلك ان يرجع الى اننى كنت اعيش فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى لم يكن يتفق فى كثير من الامور مع مبادئى وقيمى وما اقدسه من اهداف . وعزائى الوحيد اننى مازلت على اتصال باستاذى

البروفسور البرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه ، اتصال الحب والاحترام واعترافى بالجميل . شأنى شأن كل مصرى تتغلغل فى كيانه النفسى قيمة « المجاملة » التى تعنى « المعاملة بالجميل » ولا تعنى ابدا المجاملة على حساب سلب حق الآخرين . ومهما كانت وجهة نظرى نحو مجتمع الولايات المتحدة الذى عشت فيه مايقرب من ٣٤ شهرا ، فاننى مافى ذلك من شك قد افدت كثيرا سواء كان مصدر افادتى المصادر الاكاديمية او غيرها . وكما ذكرت من قبل فان المصادر الاكاديمية وان زادتنى معرفة وخبرات فقد اكدت معرفتى وخبراتى السابقة وبخاصة ماكنت قد اكتسبتها فى خلال الفترة التى عشتها فى مدينة لندن للمرة الثانية ، اى فى خلال شهر فبراير عام ١٩٥١ الى شهر يوليو عام ١٩٥٢ . اى انها اكدت هذه المعرفة والخبرات التى اكتسبتها فى خلال ١٨ شهرا فى مدينة لندن وان عارضتها جذريا فى بعض الاحيان .

واننى اذكر اننى ذهبت توا الى المحلة بعد ان انتهيت من مناقشة الرسالة لكى ارتب كتبى واضعها فى صناديق مصنوعة من الصاج . كان عدد هذه الكتب حوالى خمسمائة كتاب وربما اكثر من ذلك . وقد حرصت على ان اشحنها الى مدينة نيويورك فى اليوم التالى لحجز مكان لى فى السفينة التى كانت ستقلع من هذه المدينة فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكان هذا اليوم يوم ٢ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولم يكن يعلم احد بميعاد الحجز . وتم شحن الكتب نهارا فى يوم ٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ ، وحرصت على ان لا أخبر احدا بذلك . وما أن انتهى الاحتفال مساء نفس ذلك اليوم حتى ذهبت الى حجرتى لكى أرتب ملابسى فى ثلاث حقائب ، منها حقيبتان كبيرتان واخرى صغيرة يمكن

ان احملها بيدى . وفى يوم ٤ من شهر مايو عام ١٩٥٦ استأجرت « تاكسيا » الى المحطة ومنها الى مدينة نيويورك التى وصلت اليها فى ظهر نفس اليوم ، وكنت قد حرصت على ان اكتب خطابا لكل النزيلات والنزلاء و « مستر ديفيز » و « مستر دن يونج » و « مستر شيبا » اليابانى الاصل والاميريكى الجنسية . وكانت الخطابات كلها متشابهة وتتضمن الشكر الجزيل والتمنيات الطيبة لكل واحد منهم . ولم اسلم مكتاح ابواب المحلة لاحد ولكنى وضعته فى المكان المعد لمستر دن يونج لاستقبال الخطابات التى كانت ترد اليه . ويبدو اننى ذكرت موعد أقلاع السفينة الى « مس وليامز » التى أصرت على ان ابقى لحضور الاحتكال بيوم التخرج الذى تقيمه الجامعة سنويا . وكان هذا آخر ما كنت افكر فيه او اقبله . وكفانى ماقاسيت من عناء يوم الاحتفال بيوم حصولى على درجة الماجستير .. ولم تكن اعصابى تتحمل عناء اكثر . ان كيانى كله فى ذلك الحين كان متجها نحو مصرنا الخالدة . نحو مدينة القاهرة الحبيبة حيث تعيش زوجتى وفى ظل حنانها يعيش ابنائى : احمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . اننى كما تركت كل شىء وراء ظهرى عندما اقلعت الطائرة فى طريقها الى نيويورك ، تركت أيضا كل شىء وراء ظهرى عندما كنت اغادر مدينة بوستن الى مدينة نيويورك حتى اركب السفينة التى كانت ستقلنى ووجهة نظرها البحر الابيض المتوسط حيث تطل عليه عروسه الخالدة «مدينة الاسكندرية » . لقد الحت على مس وليامز الحاحا شديدا لكى أبقى الى يوم الاحتفال بيوم التخرج ووعدتنى بشراء هدية لى هى « روب » جديد يصبح ملكا لى بعد ان اؤدى مراسيم الاحتفال ! ويبدو اننى ذكرت لها موعد اقلاع الباخرة عندما كانت تحدثنى تليفونيا فى يوم

٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ لكى اتخلص من الحاحها المتكرر فى حديثها التليفونى الذى استغرق وقتا طويلا ، وكان ان ذكرت هذا الموعد بدورها للدكتور موريس ساندرز الذى وجدته امامى على ظهر السفينة فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ قبل أن تقلع من مدينة نيويورك ببضع ساعات . وما ان وصلت الى هذه المدينة تذكرت زميلى محمد شلبى الذى كان يعمل فى هيئة الامم المتحدة ويحاول فى الوقت نفسه أن يحصل على درجة الدكتوراه ولكننى لم اكن اعرف عنوان مسكنه وحدست أن يكون بالضرورة فى هذا المسكن تليفون .وكنت مازلت فى محطة السكة الحديد وحولى الحقائب التى اصطحبتها معى . وذهبت الى « كابينات » التليفونات العمومية الموجودة عادة فى محطات السكة الحديد فى الولايات المتحدة وحاولت ان اجد رقم تليفون الزميل شلبى من « دفتر » التليفون . ولكنى لم اجد دفترا واحدا بل دفاتر عديدة وتذكرت لتوى أن مدينة نيويورك ليست مدينة القاهرة . وعندما عثرت على رقم التليفون تنفست الصعداء ، ولكنى فى اثناء محاولتى الاتصال كانت دقات قلبى ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، تدق بعنف وبسرعة . فقد خشيت ان لا اجد الزميل شلبى فى منزله فى الساعة التى كنت احاول الاتصال به تليفونيا . اننى احسست فعلا وحقا فى تلك اللحظات باننى مجرد قطرة فى محيط ، فالنقود التى كنت احملها لم تكن مبلغا كبيرا وانا اجهل المدينة ولا اعرف الى اى فندق تكون اسعار استئجار حجراته تتفق ومامعى من نقود .وكانت حاجتى الى الاتصال بزميلى لكى يرشدنى الى هذا الفندق . ولكن من حسن حظى كان موجودا ورد على واستراحت نفسى فقد كان كريما لانه مالبث ان دعانى لزيارته فى منزله بعد

ان اعلمنى بارقام الاوتوبيسات التى كان يجب على ان اركبها لاصل الى اقرب محطة الى منزله . وعنـــدما تركت الاوتوبيس وجدته ينتظرنى وكانت فرحتى لاتقدر فقد غاب عن ناظرى سنوات . وابلغنى اننى ســابيت الليلة فى منزله حتى يتصـــل ببعض المواطنين المصريين الدين يوجدون فى مدينة نيويورك حيث يجدوا لى مكانا مناسبا لانزل فيه ليلتين فقط : ليلة الســـادس وليلة السابع من شهرمايو عام ١٩٥٦ . ونمت مع الزميـــل شلبى فى سريره وكنا بعد ان تناولنا طعام العشاء قد تحدثنا طويلا عن كل شيء اشتركنا فيه فى الماضى منـــذ عام ١٩٣٧ او مانود ان نفعله فى مستقبل الايام . وطال بنا الحديث حتى وجدنا الحاجة الماسة الى النوم تطاردنا وقبل ان نستغرق فى النوم تحدثنا ولكن كان الحديث حديث الشخص المتعب . واستيقظنا فى الصـــباح فاذا بالزميل صباح الدين على والزميل عدلى سرجيـــوس ومعهما المهندس على رافت يجيئون . وكان اســـتقبالنا لهم واستقبالهم لنا حارا حقا . فلم اكن قد رايت زميل الدراسة صباح منذ فترة طويلة جدا . وكانوا الثـــلاثة يدرسون للحصول على الدرجات العليا الماجستير ثم الدكتوراه . وقد نجح فيما بعد كل من الزميل شلبى والمهندس على رافت فى الحصول على درجة الدكتوراه فى حين ان الزميل صباح والزميل عدلى اكتفيا بالحصول على درجة الماجستير . وعشت ايام ٥ و ٦ و ٧ مع الاخوة والزملاء لم يتركونى فى اليومين الاولين الا عند النوم . وقد لاحظ من كان يعرفنى منهم كم كنت هزيلا فى ذلك الحين . وانا كنت فى الواقع مريضا ولكنى لم اكن ادرى . كانت الفترة القصيرة جدا التى مكثتهـــا فى مدينة نيويورك فى تلك الايام فترة استجمام لى . وعلمت

الكثير من الاخبار عن بلدنا الخالدة وقد نصحني الزميل
صباح انني عندما اضع قدمي على ارض الكنانة المقدسة
اذهب لتوى الى « سراى قصر القبة » لاسجل اسمي
« في دفتر التشريفات » ، وان اقابل بالضرورة الصاغ
مجدى حسنين حتى ابدأ حياتي مطمئنا على مستقبلي
وعلى مستقبل اسرتي الصغيرة ولكني لم افعل ذلك .
وقد رافقوني جميعا الى السفينة في صباح يوم ٧
من شهر مايو عام ١٩٥٦ . واصروا على التقاط صورا
جماعية على ظهر السفينة قبل ان يبرحوها مودعين .
وما ان ذهبوا الى حال سبيلهم اذا بالدكتور موريس
ساندرز يظهر امامي . وقد جاءني مودعا كما قال .
ولكنني فوجئت بحضوره . ولم تدر آثار المفاجأة كثيرا ،
فقد قدمني الى سيدة امريكية ذاهبة معنا ولم اعرف عنه
ولا منها الى اين كانت ذاهبة . وكان يصحبها زوجها
الذى لم اره طوال الرحلة . ولم اعرف بدأ ماالذى قاله
الدكتور ساندرز لها عني وقد احسست انها سيدة
من الطبقة العالية في مجتمع الولايات المتحدة . وانا غير
آسف لانني لا اذكر اسمها الان أى وقت كتابة هذه
السطور . واخيرا ترك المودعون الباقون السفينة وكان
من بينهم الدكتور ساندرز بالطبع . وبقيت وحدى احاول
بصعوبة كبيرة ان انسى مامضى وان انظر الى الامام .
وكانت السيدة الامريكية تأتيني من حين لآخر فقد كان
شكلي معروفا وتتحدث الى حديثا رقيقا . كانت سيدة
تبدو مثقفة ثقافة دبلوماسية . وكانت على الرغم من
التجاعيد التى كانت تحاول ان تخفيها « بالمكياج » تبدو
في صحة جيدة . لم تتحدث في شيء غير عادى .
وكانت فترات حديثنا قصيرة . وكنت اتعمد ذلك لانني
كنت اعيش في دنياى . كنت اتذكر الكتب التى

احضرتها معى وكيف أننى فرحت فرحا شديدا عندما وجدتها قد وصلت الى السفينة باسمى فى الوقت المناسب ، اى قبل ان تغادر الميناء . كنت اعيش فى ثنايا هذه الكتب . واحاول ان اعدها فى ذاكرتى وان اعيد عدها مرارا وتكرارا . كانت كتبا اكاديمية تتضمن المراجع التى اضطررت الى شرائها عندما كنت ادرس موضوعات الدراسة . وعلى الرغم من ان بعضها كان من الناحية الاكاديمية يتضمن المغالطات وربما الخطأ فاننى كنت اعتز بها . ولم انس ابدا الا اننى كنت اتذكر كتب استاذى « البروفسور البرت موريس » فى علم الاجرام وكتاب « ايدون بورز » عن (تجربة فى الوقاية من الجناح) وكتب « كلاكهوهن » وكتب « تالكوت بارسنز » وكتب كل من « ولسن وكولب » و « روث بنديكت » و « مارجريت ميد » و « جرث وميلز » و « كوبن وكاربنتر » و « سدرلاند » و « تافت » و « لينتون » و « جيلين » و « مالينوسكي » . وكل هذه الكتب وغيرها كانت مقررة . ومن غير هذه الكتب التى كانت مقررة أيضا كتب « دوركايم » وخصوصا كتابه المعروف عن « ظاهرة الانتحار » الذى قد قرأته باللغتين الانجليزية والفرنسية (لغته الاصلية) ، وكتب « فيلفريدوباريتو » و « روبرت ا . بارك » و « وليام ف . أوجبرن » ، وكانت أهم كتب الاول كتاب « العقل والمجتمع طبعة عام ١٩٣٥ » واهم كتب الثانى كتاب « السلالة والثقافة طبعة عام ١٩٥٠ » وكتاب « المجتمعات الانسانية طبعة عام ١٩٥٢ » واهم كتب الثالث كتاب « التغير الاجتماعى طبعة عام ١٩٥٠ » . وفضلا عن هذه الكتب كنت اتذكر كتاب « الزنجى فى أمريكا طبعة عام ١٩٤٨ » لمؤلفه « ارنولد روز » ، وكتاب « الاطفال المحتاجون طبعة

عام ١٩٤٨ » الذى الفته « ميليتا سلميد يربرج » وكتاب (الشباب المتمرد طبعة ١٩٥٥) لمؤلفه « أوجست ايخهورن » وكتاب « وليد القرن طبعة ١٩٥٥ » تأليف « بن هيخت » وكتاب « الامن والشرق الاوسط » وتذكرت كيف اشتريت الكتاب الاخير . كنت مارا أمام احد الحوانيت التى ببيع أصحابها الكتب ، فوجدت اعلانا ضخما عن هذا الكتاب ، وقد لفت نظرى عنوانه ، ووجدته عندما تصفحت صفحاته عبارة عن « عريضة » امضى عليها العديد من رجال الكنائس فى مجتمع الولايات المتحدة وغيرهم . وكان عدد هؤلاء الغير قليلا . وتتضمن العريضة التى وجهت الى رئيس الولايات المتحدة الدعوة ضد تسليح الدول العربية . وقد تضمن الكتاب ١٦٩ صفحة : ١٤ منها كتب عليها نص العريضة والباقى عبارة عن حيثيات مملوءة بالمعلومات الخاطئة والآراء الحاقدة التى ان دلت على شىء فانما تدل على التحيز الواضح ضد القضية العربية . ولا يوجد فى هذا الكتاب تاريخ ، ولكننى اذكر اننى اشتريته فى خلال عام ١٩٥٥ وهو من سلسلة « كتب بالنتين » . وكنت وأنا على ظهر السفينة وهى تسير عبر المحيط الاطلنطى أتذكر بعض الكتب الاخرى ومنها كتاب « اللاسامية عدو الانسان طبعة عام ١٩٤٦ » وقد قام بتأليفه « جيمس باركر » وكتاب « تاريخ الحرب العالمية الثانية طبعة عام ١٩٤٦ » تأليف « فرانسيس ت . ميلر » بمساعدة ٢٠ من الخبراء ، وكتاب « قبيلة الانجاس العراة : صائدو الجماجم الآدمية فى بلاد آسام فى وقت السلم وفى وقت الحرب طبعة ١٤٩٦ » تأليف « الدكتور كريستوف فون فوهرر هيميندورف » استاذ علم الانثروبولوجيا وكتاب (التوترات التى تسبب الحروب طبعة ١٩٥٠) تحرير

« هادلى كانتريل » وكتاب « نار فى الرماد طبعة ١٩٥٣ » تأليف « ثيودور هـ . هوايت » وكتاب « حقائق من الارقام طبعة ١٩٥٤ » تأليف « م . ج . مورونى » وكتاب « جذور الثقافة الاميركية طبعة ١٩٤٢ » لتحرير « كونستانس رورك » وكتاب (فن رؤية الفن طبعة ١٩٥١) تأليف « ميبتو مارانجونى » . وبالاضافة الى هذه الكتب كنت اتذكر روايات « همنجواى » و« ثيودور درايزر » و « جون شتينباك » و « آرثر ميللر » . وفضلا عن هذه الروايات كنت اتذكر رواية « المصرى » تاليف « ميكا والتارى » و (من هنا الى الابد طبعة ١٩٥٤) تأليف « جيمس جونز » و « الشياطين والعقاقير والاطباء طبعة ١٩٥٢ » تأليف « هوارد هـ . هاجارد » و (غابة السبورة طبعة ١٩٥٥) تأليف « ايفان هنتر » . وقد مصرت هذه الرواية فيما بعد وحولت الى مسرحية عرضت فى مصر باسم « مسرحية مدرسة المشاغبين » !! ورواية « ايفانهو طبعة ١٩٥٤ » تأليف « وولتر سكوت » ورواية « اللون المحلى طبعة ١٩٥٥ » تأليف « جون اندرو رايس » ورواية « الحائط طبعة ١٩٥٣ » تأليف « جون هيرسى » . كنت فى معظم الاوقات اعيش وحدى وانا على ظهر السفينة ، وكنت اتعمد ذلك . وكنت قد تذكرت هذه الكتب والروايات وغيرها كثير . وقد صاغت هذه المؤلفات بعض افكارى وفتحت امامى بعض الآفاق ماق ذلك من شك . وكنت سعيدا بالحصول عليها وعلى غيرها والمذكرات التى كنت اكتبها وانا فى المحاضرات . وبعض النسخ من رسالتى الماجستير والدكتوراه كنت اتذكرها كذلك فقد كانت تمثل عندى قطعة منى او مرحلة من حياتى . ولم تمر عشرة ايام وانا فى عرض المحيط حتى تذكرت زنوج الولايات المتحدة

وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن احضان ذويهم الحانية الى القارة الامريكية . كان الانجليز من اهم تجار « العبيد » . كانوا يبزون الاسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولانديين فى هذه التجارة اللانسانية . وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون ان زنوج افريقيا خير معين لهم فى القيام بالاعمال الشاقة فى مزارعهم الشاسعة . وتذكرت وانا وحيد فى احد اركان السفينة كيف كان الانجليز يقومون بهذه التجارة . تذكرت « تجارة المثلث » حيث كانت تخرج المراكب من ميناء « ليفربول » او ميناء « برستل » يملكها تجار ، ويقودها القراصنة من التجار الانجليز الذين كانوا يسولون لانفسهم تجارة البشر ، وتسير المراكب الى ان تصل الى مرساها عند ساحل افريقيا المطل على المحيط الاطلنطى . كانوا يحملون معهم الزجاجات المملوءة بانواع الكحول الرديئة والاسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة لكى يستبدلوا بها عبيدا من الذين كانوا يجمعون بعد ان يصطادهم الذئاب من التجار ثم يحشدونهم فى اماكن تقع على مايعرف الان ب « ساحل غينيا » . وتمثل هذه العمليات الضلع الاول من مثلث هذه التجارة المهينة . ثم يحشد ماتم استبداله من العبيد فى المراكب لكى يعبروا المحيط مرة ثانية فى طريقهم الى المستعمرات الامريكية . وتصورت جشع التجار والرغبة فى الربح الكبير الذى كان فى اعماق نفوسهم ، تصورت ذلك وانا اعبر المحيط الى بلادى ربما عندما كنت فى نفس المكان الذى كانت تعبره المراكب المملوءة من البضائع الآدمية الى احدى المستعمرات فى القارة الامريكية . وبتحقيق هذا الهدف يكون قد استكمل

الضلع الثاني من تجارة المثلث . ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التى انتجتها المستعمرات الامريكية ومن أهمها « عسل السكر » نظير مابقى من العبيد حسب اعمارهم ونوعهم وماتبقى لهم من عافية وصحة ، فى نفس المراكب التى كانت تقلع لتذهب من حيث أتت اى الى ميناء ليفربول أو ميناء برستل . كنت اعيش فى هذه الدراما الانسانية المرعبة ساعات وساعات وكنت اتصور انني كنت واحدا من هؤلاء العبيد واحاول ان اتخيل التجربة او التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر . كنت اشعر بأن شعر رأسى يكاد ان يقف فزعا ورعبا واشمئزازا . وقد تملكتنى فى ذات يوم وانا على السفينة افكار سوداء عن الانسان وكيف يكون وحشا كاسرا نظير الربح الزائل حتما مهما طال به الزمان . وسرعان ماتذكرت ابناء وطنى الذين كانوا مقهورين فترة طويلة جدا من الزمان . ومع كل ماعانوا وقاسوا بقوا حتى الآن يحافظون على الارض الطيبة . وهاهم اليوم يحاولون أن يرغموا ، وهم مصرون ، الانجليز المعاصرين احفاد القراصنة وتجار العبيد ليكونوا آخر المستعمرين لهذه الارض الطيبة . ودعوت الله فى سرى أن يحقق هذا الامل الكبير . وعلى الرغم من انني كنت احاول ان انسى بعض مامضى فى اثناء وجودى فى مجتمع الولايات المتحدة ، فانني تذكرت فجأة « الشجرة » التى كنت اشاهدها من نافذة حجرتى على مدار فصول السنة . كنت أسعد باللقاء تحية الصباح لها بنظراتى . فقد كانت انيسي الوحيد . ومالبثت أن تذكرت ماحدث لها عندما قام « اعصار » وخلعها فى شتاء ١٩٥٥ — ١٩٥٦ خلعا . لقد اتلف هذا الاعصار العنيف اشياء كثيرة ودمرها ، ومنها مبنى احدى

الكنائس المجاورة ، ولكنى تذكرت وانا فى عرض المحيط الاطلنطى ، والسفينة التى كانت تقلنى تسير قدما نحو مصرنا الخالدة ، كم حز فى نفسى ماحدث « لشجرتى » .
انني وانا اكتب هذه السطور لا اباهى برقة عواطفى ولا احاول ان اقلق القارىء بمشاعرى الذاتية ولكنى احاول جاهدا ان اكون صادقا مع نفسى ومع قارئي .
لقد كان تدمير الشجرة التى كنت اراها يوميا لحظة ان افتح عينى صباح كل يوم طوال ثلاثين شهرا او ربما اكثر من ذلك ، تدميرا لبعض ماكنت اعتز به واتعزى فى ضوء الظروف التى كنت اعيشها فى خلال تلك الفترة ومابعدها . وسرعان ماتركت هذه الحقائق السوداء التى تضمنتها مرحلة من حياتى ، وبادرت احتضن ذكرياتى عن بعض كتبى التى تقبع فى قاع السفينة التى اعيش ، فى غضون شهر مايو عام ١٩٥٦ علىها مرحلة اخرى من حياتى . كنت وانا فى « مدينة لندن » اتوق لكى ابتاع « الموسوعة البريطانية » المعروفة، ولكن النقود لم تكن تكفى . وكنت امنى نفسى بأن افعل ذلك يوما ما . فانا ارى ان الموسوعة تتضمن افكار الصفوة من علماء الانسان ومشاهير الزمان الذين صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق عمل نافع او الذين صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق الدمار واظهروا بجلاء صورا عديدة من انانية الانسان . كنت اتصور الموسوعة وهى بمجلداتها قابعة على « الرف » فى حركة دائبة . فقد كنت كلما مررت عليها فى مكتبة الجامعة اسمع همهمات رماتلبث ان تصبح همسات ثم صيحات .
وكان يخيل الي ان المفكرين الذين دونت افكارهم على صفحاتها قد انتصر بعضهم لبعض او اخذ بعضهم بتلابيب بعض . واذ اصارح القارىء فقد كانت امنيتى

ان يكون لى موسوعة تزودنى بالافكار واقرأ من خلال سطورها الخبرات على اختلافها سواء اكانت تتعلق بالانسان ام كانت هذه الخبرات تتعلق بالنبات او الحيوان او بالارض او بالفضاء . وهاندا وانا فى عرض المحيط الاطلنطى على السفينة بعد ان سارت سيرا متواصلا خمسة عشر يوما اتذكر بالفرحة واللهفة ان من بين كتبى « الموسوعة العالمية المستوى » الاميركية التى اشرف على تحريرها « البروفسور جوزيف لافان مورس » وتحتوى على ٢٥ مجلدا بالتمام والكمال . وقد كانت طبعة هذه الموسوعة التى تزدان بها كتبى هى الطبعة الاخيرة فى ذلك الحين ، وهى طبعة عام ١٩٥٥ ، ثم ما لبثت افكارى ان تداعت وتذكرت كتاب « فلسفة كأن طبعة عام ١٩٣٥ » الذى ترجمه « س . ك أوجدن» عن النسخة الاصلية التى الفها « هـ . فيهينجر »وكتاب (الموسيقى للجماهير طبعة عام ١٩٤٧) لمؤلفه « سيدنى هاريسون » وكتاب « عادات واعراف المصريين المحدثين طبعة عام ١٩٥٤ » لمؤلفه « ادوارد وليام لين » وكتاب (الاسهامات البريطانية فى الدراسات العربية طبعة المجلس البريطانى لمؤلفه « برنارد لويس » وكتابى « اليانكيون والاله طبعة عام ١٩٥٣ » و « سجلات تاريخ الشعراء طبعة عام ١٩٣٥ » تأليف « شارد بورن سمث » . وقد ذكرت من قبل عن مقابلتى للمؤلف فى « مصيف روك بورت » وكان معنا « الدكتور موريس ساندرز » وكنا نحن الثلاثة فى ضيافة احدى السيدات الاميركيات الثريات . وسرعان ماوجدت نفسى امام فيلم سينمائى يحكى سيناريو هذا اللقاء . كان هذا المؤلف هو المتحدث الاعلى صوتا فى هذا اللقاء . وكان ، على الرغم من انه من حيث السلالة كان مزيجا امريكيا

انجلبزيا كما ذكر فى كتابه « اليانكيون والاله » وانه كان يعتبر نفسه وهو يزهو ويفتخر « يانكيا » ، يتحدث لا بفمه فقط بل بكل اعضاء جسمه . وقد تحدث هذا الكاتب احاديث شتى اذكر منها عن « مذبحـــة الزنوج المسيحيين » كما كان يسميها . فعلى الرغم من ان هؤلاء الزنوج قد اتخذوا من الدين المسيحى وجاء وحماية فان هذا لم يمنع من ذبحهم فى احدى الفترات التاريخية فى احدى ولايات « انجلترا الجـــديدة » . وتنوعت احاديث شارد بورز سميث وتشتت ولكن موضوع هذه الاحاديث المفضل كان عن « البيوريتانز » « أى المتطهرين » الذين كانوا منذ هروبهم من انجلترا ووصولهـم الى « انجلترا الجديدة » فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر يطالبون بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد باهداب الفضيلة . كان يراهم سميث انهـم كانوا ومازالوا عقل « انجلترا الجديدة الكبرى » الذى اصبح يسود على عناصر المناخ الثقافى الاجتماعى لمساحة من أرض الولايات المتحدة تضم حوالى ٦٥ مليونا مـن السكان ، اى من ساحل انجلترا الجديدة « الاولى » الى ساحل المحيط الباسيفيكى . وسرعان ماضقت ذرعا بهذه الاحاديث وتركتها لانظـر الى الامام الى مصـرنا الخالدة . وتذكرت توا « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » التى اسعدنى الحظ وشاركت فى تأسيسها فى عام ١٩٤٧ وساءلت نفسي وانا على ظهر السـفينة وهى تسابق الريح ويحاول أن يسبقها الريح ماذا فعل الله بهذه الجمعية ؟ وكنت اعلم ان السيدة الزا ثابت « المديرة » فى أوروبا تقضى بعض الوقت مع ذويها فى سويسرا ، الواقع اننى اذ أذكر الجمعية فلابد ان اذكر السيدة الزا فهى الروح المحركة لها فى ضوء نشاطهـا

الدائب وارادتها الفولاذية . ولست وحدى الذى يفعل ذلك فكل من يذكر جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق لابد أن يذكر السيدة ألزا . وساءلت نفسى مرة اخرى ماذا فعل الله بهذه الجمعية فى غياب السيدة الزا ؟ وكنت متفائلا وأمنى النفس بأنه عند عودتى الى القاهرة الحبيبة استأنف نشاطى فى هذه الجمعية . وتذكرت كيف جاءت فكرة تأسيسها وكيف نفذت هذه الفكرة ، والخطوات التى سارت فيها الجمعية من أجل تحقيق رسالتها التى تبلورت بمرور الزمن ، أى بعد مرور حوالى تسعة أعوام على تأسيسها . وتفاءلت على الرغم من المعاناة التى كنت أشعر بها فى ذلك الحين ، معاناة الوحدة ومواجهة المستقبل المجهول . كنت أشعر على الرغم من نور المعرفة التى استقيتها فى بلاد العم سام اننى فى ظلام دامس . وهأنذا اتذكر الجمعية فينبثق بصيص من النور يبدد هذا الظلام الدامس . اننى اذا عدت سالما سأستأنف جهادى المحبب فى سبيل تكوين بنات مصرنا الخالدة وابنائها من سكان حى بولاق . وكنت اقول لنفسى ان هذا اذا تحقق فاننى سأكون قد حققت واحدا من الهدفين اللذين كرست لهما حياتى . اما الهدف الثانى فقد كان كما يعلم القارىء البحث عن حقيقة او حقائق المجتمع المصرى المعاصر . وكنت اقول لنفسى اننى وقد تأهلت علميا وعمليا من اجل تحقيق هذين الهدفين فلا معاناة بعد اليوم . وحتى اذا صادفت هذه المعاناة فى المستقبل القريب او البعيد فاننى فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة لابد أن ارتفع بنفسى فوق امواجها العاتية او حتى غير العاتية . اننى كنت وقد قربنا من « ميناء نابلى » اعيش فى خضم هذه الامنيات المشرقة وذلك على الرغم من اننى كنت أعلم

علم اليقين بانه لامكان لى فى وزارة من الوزارات او فى مصلحة من المصالح الحكومية . فقد فعلها عباس عمار الوزير او الذى كان وزيرا لوزارة الشئون الاجتماعية ورفتنى من وظيفتى الحكومية بحجة اننى اخذت اجازة بدون اذن لمدة اكثر من خمسة عشر يوما . اى على الرغم من اننى عندما اعود الى القاهرة الحبيبة لن اجد لى منصبا . وقلت لنفسى « الارزاق على الله » وانه « لن يعدم الاسد أن يجد فريسته انى ذهب » . عبارة قالها « جمال الدين الافغانى » عندما اضطر لكى يترك مصرنا الخالدة منفيا وابى ان يتفضل عليه احد بشىء قبل ان يبرح البلاد . تمثلتها وانا اعلم علم اليقين اننى احد تلاميذ تلاميذ تلاميذ جمال الدين الافغانى . ولكن نحن شباب مصر فى ذلك الحين كان لنا من امثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الله النديم والشهيد محمد عبيد وغيرهم ، واكثرهم لم نرهم فى حياتهم ، قدوة حسنة . وقبل أن نصل الى ميناء نابلى وكانت السفينة قد سارت فى المحيط الاطلنطى عشرين يوما وواحدا ، اخترقت السفينة بوغاز « جبل طارق » . ولم تكن المرة الاولى التى مرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز . فقد مررنا ونحن ، الركاب وانا ، ذاهبون فى عام ١٩٤٨ الى المملكة المتحدة ، ومرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز مرة ثانية ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا فى عام ١٩٥١ الى المملكة المتحدة ايضا . وهذه هى المرة الثالثة التى تمر السفينة الاتية من مدينة نيويورك ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا الى البحر الابيض المتوسط ليذهب كل منا الى حال سبيله . وكان حال سبيلى مدينة الاسكندرية عروس هذا البحر . وفجاة تذكرت فى ضوء

خبراتى المتجددة تاريخ الاندلس منذ ان فتحها العرب المسلمون فى عام ٧١٠ ميلادية . تذكرت الامجاد وتذكرت المحن ، اقصد امجاد هؤلاء العرب المسلمين ومحنهم . وتذكرت انه لم يأت عام ١٤٩١ ميلادية حتى كان نزيف المحن الذى سببته جراح أعداء الدويلات العربية فى الاندلس قد بلغ بهذه الدويلات نهاية المطاف . لقد دام حكم العرب المسلمين فى الاندلس نحوا من ثمانية قرون . الاندلس هذه ، كانت قد اصبحت مهجرا لعديد من القبائل العربية ، وكانت قد شهدت حركة « تعريب » نموذجية وعملاقة ، وكانت قد تحولت الى مايشبه الجامعة الفكرية والمنارة العلمية ألتى تتلمذت عليها قوى اوروبا الجديدة ،كما ذكرت سابقا ، التى قادت عصر البعث والاحياء . وقد تم هذا الانتصار وقد تذكرت ذلك وانا استعرض هذه الامور فى ذهنى ، مع الاسف الشديد ، لحساب غلاة الرجعيين فى الكنيسة المسيحية ، وكانت بحور الدم الانسانى التى جرت بدافع اعاصير الحقد الاسود والجهالة وسوء التقدير ، وكانت اداة سفك الدماء الزكية محاكم التفتيش التى اغرقت ظلما وعدوانا ليس فقط كل العرب الاندلسيين بل كذلك حضارتهم الانسانية فى الاندلس . وفى ضوء تلك الظروف العاتية لم يستمر تطور أنوار العلوم على اختلافها بل على العكس يذكر التاريخ ان آثار « العلامة ابن خلدون » ، مثلا ، كانت معلومة فى الاندلس فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن من المؤكد انه لم ينتقل شيئا من ابن خلدون عن طريق الاندلس ، ويرجع ذلك على حد قول ، كما اذكر الان « البروفسور ناثانيل سميث » الى احراق الكتب العربية عند اجلاء العرب عن الاندلس فى عام ١٤٩١ ميلادية . اذ من

المعلوم أن « الكاردينال كسيمنس — Can'Fessor — « الملكة ايزابيلا » كان قد امر باحراق الكتب العربية عام ١٤٩٩ ميلادية ، عندما بدأ حملته الشرسة لابادة كل ماهو عربي فضلا عن ابادة كل من هو مسلم سواء كان من سلالة عربية أو كان من سلالة اسبانية . تذكرت كل ذلك واكثر . وكان وقع ماتذكرته أليما . وكانت دهشتي عظيمة عندما لاحظت انني تذكرت في المرة الثالثة عندما مرت السفينة التي كنت اركبها ببوغاز جبل طارق . طبعا انني كنت اذكر في كل مرة « طارق ابن زياد » قائد العرب ، كما كنت اذكر كلمته المشهورة. ولكن التفاصيل فيما يتعلق بمحنة العرب في الاندلس ووقع هذه التفاصيل في نفسي وآثارها التاريخية والثقافية الاجتماعية والسياسية لم اكن اعيرها التفاتا . وبدا لي ان اهتمامي بهذه الامور في المرة الثالثة كان دليلا على مستوى النضج الفكري الذي وصلت اليه . او لعل ذلك كان يرجع الى التجارب التي مررت بها وانا في الولايات المتحدة وبخاصة ماتعلق منها من موقف حكومتها وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي على رأس حكومات الغرب الاوروبية وبعض الحكومات الاخرى التي كانت تمد يدها الى حكومة الولايات المتحدة وهي تستجدي عن طريق « مشروع مارشال » أو « مشروع النقطة الرابعة » . وكان هذا الموقف ، الذي ارجو ان لا يخفى على القارىء ، موقف الذي كان يرى بحق او بغير حق انه اولى بأن يرث المستعمرات أو ما يشبه المستعمرات التي كانت تحت نير دول أوروبا ، وان يكون كلمته في هذا العالم هي العليا .

وبينما كنت في خضم هذه الذكريات اخوضها ، فوجئت بالسيدة الاميريكية العجوز المتصابية ، زوجة

الرجل الذى قيل عنه انه يصحبها والذى لم اره طوال هذه الفترة ولم اعرف شيئا عنه الا أنه رجل يحيط به الغموض ، وقد جاءت الى وهى تحمل « كارتا » لايوجد فيه سوى اسم زوجها وقالت لى ان هذا الكارت من زوجها وهو جواز مرور الى السفارة الاميريكية بالقاهرة اذا رغبت فى ان اذهب اليها طالبا شيئا ما انا فى حاجة اليه . وقد اخذت منها الكارت ونظرت اليها نظرة عاجلة وشكرتها ، وذهبت وكأن المحيط قد بلعها فلم ارها بعد ذلك ابدا . ولما كنت قد تركت الولايات المتحـــدة فى حالة نفسية وعقلية ووجدانية لم اكن احسد عليها ، فقد مزقت الكارت قطعا صغيرة ورميتها فى البحــر الابيض المتوسط . وانا حتى اللحظة الحالية لا اذكــر ما الذى كان مكتوبا على هذا الكارت . ولا اذكر اســم الزوج الغامض ولا اذكر ان كانت مكتوبا عليه هويتــه او اى شىء آخر . ان كل ما اذكره ان حجم الكارت كان حجما غير عادى . فلم يكن مثل حجم الــكروت العادية التى يحملها من كان مثلى . ولست نادما على مافعلت ، بل على العكس كنت وانا أمزق الكارت وكأننى كنت امزق الخداع والنفاق والقوة العنيفة اللاانسانية والافكار السوداء التى تجد مكانا فى المناخ الثقــــافى الاجتماعى فتفرق بين الانسان واخيه الانسان وتجعل من الانسان سيدا احيانا ومن الانسان عبدا احيانا أخرى ، ومع ذلك يحس الانسان منا ان هذه السيدة وزوجها ومن على شاكلتهما يرون أنهم احسن الناس واعظمهم . تراهم يرون ثقافتهم انها احسن الثقافات وأنها فى كل لحظة موضع اعجابهم وافتخارهم . وهم اذ يدعون الى الحرية والديمقراطية او الى المساواة فانك تحس احساسا صادقا ان هذه الدعوة مزيفة وان القيم التى من ورائها

قيم هشة تنفر منها قيمنا المصرية التى مهمـــا كانت الظروف فهى تحرص على كرامة الانسان بصرف النظر عن لونه او عقيدته . واذا كنا نحن المصريين نحرص على الاصالة فان امثال هذه السيدة وزوجها الغامض الذى عاش معنا على السفينة ولم يره احد ، وكأنه الخفـاش الذى لا يظهر الا فى الظلام ، يحرصون على كبر الحجم والفخامة والفردية وكرامة المال والاغنياء . فالمال بكل صوره ومهما كان مصدره علامة عندهم على النجاح فى الحياة . واذا كنا نحن المصريين نرى ان « أستاذ الجامعة» رجل ناجح فهو يعتبر عندهم رجلا فاشلا اذا ماقورن برجل الاعمال عندهم او حتى اذا قورن بسائق«اللورى» الذى يحصل عادة على دخل مالى أكبر من الدخل المالى الذى يحصل عليه استاذ الجامعة عندهم . وفجـأة تذكرت ماقيل لى عن احد الفنادق فى « ولاية فيرمونت » احدى ولايات انجلترا الجـــديدة الذى كتب على بابه بالخط الواضح « ممنوع دخول الكلاب واليهود » . تذكرت هذه الواقعة وانا والذين على السفينة على بعد مسيرة ليلة واحدة من ميناء نابلى . وتداعت ذكـرياتى عن خبرتى عن هؤلاء اليهود . وهى خبرة بالضـــرورة محددة سواء أكانت خبرة نظـــرية أم خبرة واقعية . وتداعى هذه الذكريات جاء كنتيجة مبــاشرة لتسلمى كارت زوج السيدة الاميركية التى حرص دكتور موريس ساندرز ان يقدمنى لها او يقدمها لى ، وانا لا اذكر أيهما الآن أى وقت كتابة هذه السطور ، عندما فاجـــانى بحضوره على سطح السفينة لوداعى قبل ان تقلع ، وانا اغادر مجتمع الولايات المتحدة نحو بلادى ، بوقت قليل . كان الكارت ومايحمل من مغزى السبيل الى ان اتذكـر مساوىء مجتمع الولايات المتحدة العديدة . وكـــان

السبيل ايضا الى تذكر ماحصل ليهود هذا المجتمع من نفوذ فى ميادين المال والصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما وبعض الكليات ومنها كليات الخدمة الاجتماعية مثلا . تذكرت واقعة دعوة البروفسور موريس لى الى تناول الشاى مع بعض الاشخاص الذين بدا لى ، بعد ان حدث ماحدث وذكرته قبل ذلك ، أن نصف عـددهم وربما اكثر من ذلك كانوا من اليهود والصهاينة ، وتذكرت ماذكره لى البروفسور موريس من ان رجال المـال من هؤلاء اليهود فى مدينة بوستن لكى يزيدوا من «الكوتا» بالنسبة للطلبة اليهود واساتذة الجامعة مثلا كانوا يتبرعون سنويا للجامعة بالمال الكثير الذى قد تبلغ قيمته مليون دولار . وكانوا يتبرعون للجامعة بتكاليف بناء معبـــد لليهود فى حرم الجامعة اسوة بالكنائس الموجودة بالحرم وربما بما يزيد على هذه التكاليف . وتذكرت هـؤلاء اليهود الصهاينة فى فصول الدراسة بالجامعة وفى محيط الطلبة على الرغم من قلة عددهم نسبيا . تذكرت الاساتذة الذين كانوا يتعمدون نفاقهم والتقرب منهم . وتذكرت ماكان فى رأيى أفدح عندما دفعنى حب الاستطلاع افتح الحجاب الذى كانت أمى تحرص على ان البسه فـوق ملابسى الداخلية وثرت على ذلك عندما ذهبت الى المدرسة الابتدائية وبدأ التلاميذ بقيادة مدرس الالعاب الرياضية بالمدرسة اول فصل للالعاب الرياضية وخجلت من ان يرانى التلاميذ بعد خلع ثيابى وانا البسه فصممت على خلعه الى الابد . وبعد مرور الايام وعندما كبرت فتحت هذا الحجاب لارى مافيه ، وقد دهشـــت لاننى رأيت « نجمة داود » مرسومة فى ثناياه مرتين . وقد رسمت هذه النجمة على الغلاف الموضوع فيه الحجاب مرتين أيضا . وقد ذكرنى ماقرأت عن ذلك فى كتاب « منبع

اصول الحكمة للبونى » الذى يشتمل على اربع وسائل مهمة فى اصول العلوم والحكمة ! تأليف « الامام ابى العباس احمد بن على البونى » المتوفى سنة ٦٢٢ هـ « ١٢٢٥ م » ، ومن هذه الرسائل شرح ما يسميه « الجلجلواتية الكبرى » ولها طريقتان : الصغرى والكبرى . وقد تضمنت الطريقة الكبرى ٣٦٦ بيتا من الشعر . ويعتبر البونى هذه القصيدة دعوة مباركة وبها يتصرف الطالب فى كل مايرومه من خير وشر وخواصها لا تحصى وتصاريفها لا تستقصى وهى تبدأ بخمسة ابيات من الشعر كنت مازلت احفظ نصها وهى :

بدأت ببسم الله ربى ومالكى
مطالع اسرارى بسرى اعلنت

فاسماؤها العظمى بها الروح تهتدى
الى سر اسرار بباطنها انطوت

وصليت ياربى على اشرف الورى
محمد المبعوث للخلق عممت

وافضل مخلوق وخاتم رسلها
بسيفك قد زاح الضلالة والغلت

صلاة وتسليما عليه وآله
وصحب وكل التابعين ومن حوت

وتنتهى بخمسة ابيات من الشعر كنت أيضا مازلت احفظ نصها وهى :

فيا قارىء الاسم المعظم قدره
عليك بتقوى الله تنجو من الفلت

بها العهد والميثاق والوعد والوفا
وبالمسك والكافور والند ختمت

وابيات شين وشين تشفعت
بها الاسرار عظام تجمعت

وبعد فصـــل الله ربى دائمـــا
على المصطفى ما طار طير وغـردت
وآل واصـحاب كـــرام أئمـــة
بهم زالت الاكدار عنـــا وزحزحت

وكان البونى فى كتابه هذا يشرح ابيات قصيدة الطريقة الكبرى المشار اليها ويبين آثارها كعقيـــدة تتلى بعد حفظها او بعد تلاوتها ، وكان يرى حفظها اولى وانفع . ومن هذه الاثار ، وهذا ماكنت قد تذكرته قبل ان نصل الى نابلى بساعات ، انك اذا اردت ان تطـرد الجن من بنى آدم فاطلق بخور اللبان الذكر والجـاوى ونوى الخرنوب واقرا القصيدة سبع مرات فان الجن يرحلون من تلك البقعة ولا يعودون اليها ابدا . واذا اردت تسليط الجن على غريب فاكتب مثمن « حجـاب » على قطعة من الحرير الاحمر واكتب حوله توكيلا للخـدام بما تريد فعله للغريم مع اسمه وأسم امه واقرا القصيدة ثلاث مرات ثم اجعلها فى مكان ضيق مظلم فانهم يتبعونه بالاذى حتى يموت فاتق الله تعالى ! كنت اقـــرا هذه الكتب وانا اعلم انها لاتساوى الحبر الذى كتبت به ولكن كان حب الاستطلاع يتملكنى ، ولم اكن اعلم شيئا كثيرا او قليلا عن « النجوم » التى كانت تملأ الاحجبة المنشورة فى هذا الكتاب وفى غيره من الكتب المماثلة . وقـــد تذكرت بهذه المناسبة احد عشر بيتا من القصيدة تعتبر سر « قسم البرهتيه » وهو القسم المعول عليه من قديم الزمان ، وكان القدماء يسمونه بالعهد القديم والميثاق العظيم والسر المصون والكنز المخزون والعهد الاكـــبر والكبريت الاحمر . تكلم به الحكماء الاول ثم « السيد سليمان بن داود » عليهما السلام ثم « آصف برخيائم الحكيم قلفيربوس » ثم من تتلمذ له الى يومنا هذا ! وهو

قسم عظيم لا يتخلف عنه ملك ولا يعصيه جنى ولا عفريت ولا مارد ولا شيطان وكل طالب لم يكن عنده هذا القسم او لم يكن له علم به فعلمه اجذم . كنت اتذكر هذا كله وانا فى ضوء عقيدتى لا اصدقه . ولكن حب الاستطلاع كان لدى قويا فما أن وقع فى يدى كتاب البونى الا وجدتنى اكاد احفظ مافى كل صفحة فيه . وكان هذا الكتاب ضمن مكتبة جدى لابى « الشيخ احمد عويس » الذى انتهى الى ابن عمى محمود شقيق ابى « عبد المنعم » . فأخذت اطالع مافى الكتاب وكنت مازلت فى المدرسة الثانوية ونجحت فى حفظ القصيدة المشار اليها « ٣٦٦ بيتا » عن ظهر قلب . وهانذا اتذكر بعض ابياتها وبعض آثارها وبخاصة ماتعلق بالاحد عشر بيتا التى كانت تعتبر سر « قسم البرهتيه » التى كانت تتضمن اربعة وعشرين اسما منها اسم« غياهاكيدهولا» الذى كما يقول البونى فى كتابه ان من خواصه ان من كتبه مائة مرة مع قوله تعالى « والق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى » (٢٠ ك طه : ٦٩) ، وقوله « قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين » (١٠ ك يونس : ٨١) حروفا مفرقة حول « وفق » معين مرسوم فيه ثلاث من نجمات داود ، فاذا حمل الشخص هذا الوفق وكان مسحورا بطل عنه السحر ومن اراد الوصول التام الى ماوصل اليه السادة الاخيار فليختل تماما بشروط الخلوة ويكثر من ذكر اسم « غياهاكيد هولا » فانه يحصل مايريد ! وانا الآن اذ اكتب هذه السطور بعد مرور اكثر من خمسة وعشرين عاما لم اكن ادرك مدى تغلغل هذه الافكار التى لايقرها الدين الخالص ولا العلم فى ضوء منهجه والمعرفة التى

تصل الى الانسان عن طريق تطبيق هذا المنهج . ولم أكن ادرك السموم التى كانت تتغلغل فى نفوس قارئى مثل كتاب البونى دعك ممن كانوا ولا يزالون يؤمنـون بما فيها . صحيح اننى فى ضوء تربيتى الدينية الصحيحة على يد استاذى صاحب الفضيلة الشيخ محمود خطاب قد تطهرت او كدت ان اتطهر من هذه الترهات ، ومع ذلك فقد كان هناك مايوحي من تصرفات هذا الاستاذ الكبير وبعض اتباعه من المشايخ بأن قراءة « الاوراد » وان تنير مضمونها كانت مسالة حتمية على المريدين ان يقوموا بها . ومهما يكن من الامر فاننى الآن وليس قبل ذلك أرى ان « التحدى » الثقافى اليهودى بين شعوب قراء اللغة العربية والمسلمين منهم بخاصة قد بدا منذ عهد قديم جدا ، وان هذا التحدى كان يهدف الى ان يسدل الغشاوة تلو الغشاوة على عقول هؤلاء ومن يلوذون بهم أو يحترمونهم ويطلبون منهم العون . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى اذ ذكرت موضوع تغلغل هذه الافكار التى لا يقرها الدين الخالص ولا العلم ، فاننى اقصـد بالعلم هنا « العلم العصرى » وليس كما يدعى الدجالون من امثال البونى بأن مايسطرونه هو علم ايضا يسمونه « علم السميا » والمعروف ان لفظ السميا أصله « شيم » وهو لفظ عبرانى « معناه اسم الله تعالى » . وكان ركاب السفينة على مشارف ميناء « نابولى » فذهب من ذهب منهم يستطلعون ، وبقيت وحدى لا ابرح مكانى فتذكرت الفترة التى قضيتها فى « كوم امبو » ، وتذكرت مقابلتى للدكتور « هيرمان مانهايم » فى لندن وماحدث فيها ونتيجتها ووجدت نفسى ابتسم ساخرا . وقفز الى ذهنى ماقرأت عن العالم « البرت انشتين » فى كتاب « فؤاد صروف » عن (اساطين العلم الحديث طبعة عـام

١٩٣٦ » الذي كان مقتنعا بوجوب خدمة « القضية اليهودية » وانتهى به الامر وهو العالم العالمي العبقري الى ان تصبح « النزعة اليهودية » فى نظره حقيقة حية .
ولعل انشتين وغيره من عباقرة اليهود في فروع المعرفة المختلفة : في الموسيقى وفي الفنون التشكيلية وفي العلوم الطبيعية والكميائية والعلوم الانسانية وغيرها وغيرها ان يلتمس لهم العذر فى ان ينحازوا وهم اليهود الى قضيتهم . وانا فى حدود خبراتى المحدودة لا يمكن الا ان اتذكر الافلام التى اظهرت وحشية « هتلر »واتباعه فى حرق اليهود بالجملة نساء ورجالا وشبابا واطفالا . والمجازر التى لاقوها فى خلال التاريخ لا تعد ولاتحصى . ولعل « قصة الحائط طبعة عام ١٩٥٣ » الذى الفهـا « جون هيرسى » ان تؤرخ بعض ماعاناه يهود « وارسو » الذين كانوا يعيشون فى « حارتهم » فى مدينة « وارسو » ببولاندا فى اثناء الحرب العالمية الثانية . لقـد سجل جون هيرسى فى هذه القصة الشجاعة ودفء المحبة فضلا عن الروح التى لا تقهر التى تحلى بها اهل « حـارة اليهود » هؤلاء وهم يتحدون الموت وجها لوجه . إن اليهود كشعب قد عانوا مافى ذلك من شك ، وعبقريوهم قد ساعدوا الانسان لكى يتسلط على الطبيعة وعلى المجتمع مافى ذلك من شك أيضا . ولايمكن الا ان اذكر « الدكتور زالنجر » احد اساتذة « قسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا » فى كلية الاداب بجامعة بوستن وهو يشرح لنا عن مآثر كل من « دوركيم » و « مـاركس » و « فرويد » فى ميدان العلوم الانسانية ومحاولاتهم لفهم ليس فقط الظواهر الانسانية او المواقف الاجتمـاعية ولكن ايضا انماط السلوك البشرى . كان يقارن كل واحد

بغيره ويظهر النقص فى ماحاولوا ان يصيغوا من نظرياتهم كما كان يظهر بوضوح وجلاء الاسهامات الرائعة التى أداها كل واحد منهم فى هذه الميادين . ان زالنجر كان يهوديا وان العلماء الذين كان يقارن بعضهم ببعض كانوا من اليهود ايضا . وكان استاذا امينا . ولعله ، وهذا من حقه ، اراد ان يفاخر ببني عقيدته أو جنسه . ومع ذلك فكنت تراه منصفا عادلا . ذكرت ذلك وأنا أكاد ارى ميناء نابلي رأى العين ، ولكن زالنجر ذكرنى بأحد الاساتذة الزائرين وكان هندي الجنسية ويحاضر فى كلية اللاهوت بجامعة بوستن .وكان هذا الاستاذ الهندي على عكس زالنجر ، فقد علم بأننى مصرى مسلم وطلب منى الحضور الى احدى حلقات البحث التى يشرف عليها ، وكانت تتناول موضوع « القرآن الكريم » وانا شخص لاادعى ولم ادع ولن ادعى اننى اعلم اكثر من الذين على شاكلتى عن القرآن الكريم . كنت ارى فى نفسى وانا لا اتواضع باء العارفين . فلم تكن علوم القرآن من علوم التفسير والفقه واسباب النزول أو حتى التلاوة والحفظ وغير ذلك من اختصاصاتى . ولكنى مررت فى اثناء رحلتى العمرية بفترة كنت أحاول ان اتعمق قليلا فى هذه العلوم لكى أكون على بينة من امرها ولكى اعرف الغث منها والثمين ، كانت اهدافى التى حاولت ان احققها ، ولاازال ان اعرف الدين الاسلامى الخالص . وما ابعدنى من تحقيق هذه الاهداف وما اصعب هذا التحقيق . وذهبت إلى حلقة البحث فى الموعد المحدد وكان الكتاب الذى بين يدى الاستاذ المشرف هو « معنى القرآن المجيد طبعة عام ١٩٥٣ » ترجمة تفسيرية لـ « محمد مار ماديوك بيكثول » . كان هذا الكتاب باللغة الانجليزية ، وكنت قد بادرت بشرائه عندما عرض للبيع . وكان الكتاب

يحتوى فضلا عن الترجمة التفسيرية على سجل بالسور وهل هى مكية او مدنية ورقم الصفحة التى تشير اليها فى متن الكتاب ، وكان يحتوى هذا الكتاب ايضا على فهرس عام بالموضوعات الهامة التى تناولها « القرآن الكريم » وارقام السور وآياتها التى تدل عليها . ومن هذه الموضوعات نجد الطفولة والزواج والطلاق والعبادات وما يتعلق بموضوعات التشريع بصفة عامة وغيرها من الموضوعات التى تهم الباحث . وعندما ذهبت الى حلقة البحث لم اكن اعرف ماذا يراد منى ومن ثم فاننى لم احضر معى هذا الكتاب او غيره من الكتب التى تهتم بالدين الاسلامى ، واعتمدت على ذاكرتى وخبرتى اذا ماوجه الى سؤال ما وانا بين الطلبة الذين كانوا يجلسون حول الاستاذ المشرف . وسألنى الاستاذ عن موضوع حقوق المراة فى الاسلام كما تنص عليها آيات القرآن الكريم . وكان هذا الموضوع مدونا فى الكتاب الذى بين يديه بالفهرس العام . ولما كنت لم اسعد بتجربة حفظ القرآن كله باللغة العربية وانما حفظت منه بعض الاجزاء، التى لا اجرؤ على ترجمة آية من آياتها الى اللغة الانجليزية ، فاننى طلبت من الاستاذ المشرف أن يعطينى الكتاب الذى فى يده لاطلع على الفهرس لكى اقرا على الحاضرين كل الايات المتعلقة بموضوع السؤال . ولدهشتى وجدت أن سجل السور والفهرس العام بالموضوعات الهامة التى تناولها القرآن الكريم قد أزيلا من الكتاب . واستفسرت عن سبب ازالتهما فلم ينطق الاستاذ بكلمة ، وذكرت له وللطلبة ان كتابى الذى اشتريته به هذا السجل وهذا الفهرس وانه بغيرهما لا يستطيع احد التعرف على الاجابة باللغة الانجليزية التى ترغبون فى الحصول عليها واقترحت تأجيل هذه

الاجابة الى موعد آخر يحدده الاستاذ المشرف لكى احضر معى كتابى « السليم » فوعد الاستاذ بأن يجيب هـذا الاقتراح ولكنه لم يفعل . وهنا كان الفرق عندى بين زالنجر « اليهودى » وبين الاستاذ المسـيحى الزائر « الهندى » الذى كان يحاول تشويه الحقائق عن عمد وذلك باعاقة الباحث عن الوصول الى هذه الحقائق كما هى . وكان ماحدث وما كان يحدث مما ذكرت من قبل دروسا افدت منها الكثير . وتأكد لى انه اذا كان العلماء فى ميادين العلوم المادية على اختـلاف عقـائدهم وايديولوجياتهم يتفقون ، فان العلماء فى ميادين العلوم الانسانية ينتظرهم وقت طويل لكى يتفقوا . وهذا لا يعنى ابدا ان نسلب حق هؤلاء العلماء فى أن يتباينوا ؛ ولكن المحك فى التباين لابد أن يكون فى ضوء تطبيـق المنهج العلمى والافادة من ادواته فى جمع الحقائق على اسس سليمة . أن العالم المتخصص فى العلوم الانسانية قد يختار موضوع بحثه فى ضوء ايديولوجية معينـة وعندما يفسر نتائج هذا البحث قد يفسرها فى ضـوء ايديولوجية معينة ، ومع ذلك فان العبرة فى الافادة مما وصل اليه من تفسير . ويقصد بالافادة هنا الوصول الى التغيير المرجو . والعالم اذا كان متخصصا فى العلوم المادية أو اذا كان متخصصا فى العلوم الانسانية عليه أن يتبع آداب المهنة فيكون حريصا كل الحرص على الوصول الى الحقيقة ويكون أيضا حريصا كل الحرص على ايصالها الى الآخرين ، وان يكون أمينا عندما يرجع الى مراجع من سبقوه وعند عرضه لما وصل اليه من نتائج .

ووصلت السفينة الى ميناء نابلى وكان الوقت فى الصباح فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكان على ان ابيت فى احد الفنادق ليلة واحدة

لكى ادرك سفينة اخرى فى صباح اليوم التالى اى فى يوم ٢٨ من شهر مايو عـــام ١٩٥٦ لتنقلنى ومن معى ووجهتها ميناء الاسكندرية لنصل اليها فى يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ان المرحلة العلمية التى تركت من اجلها بلدى واسرتى الصغيرة فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، والتى توجت بتحقيق الآمـــال ، اصبحت على وشك الانتهاء . وتركت افكارى وتداعيها وعشت فى الحاضر لكى امارس النظر الى ظواهر مجتمع مدينة نابلى والمواقف الاجتماعية لاعضائه او بعض اعضائه والعلاقات الاجتماعية التى تبدو امامى سواء كنـت فى الشارع او فى الفندق وسواء كانت تمسنى من قريب او تمسنى من بعيد او لا تمسنى . وفى خلال الثلاثة ايام التى سارت السفينة من ميناء نابلى الى مينـــاء الاسكندرية لم يكن اهم افكارى سوى ماكان يدور حول مصرنا الخالدة وما كان يدور حول اسرتى الصـغيرة . وكنت اعلم من الصحافة واجهزة الاعلام الاخـرى فى الولايات المتحدة ، ثم بعد ذلك فى اثناء الرحـلة على السفينة من ميناء نيويورك وهى فى طريقها الى مينـاء نابلى ان الامر فى مصرنا الخالدة قد اصبح على الرغم من الخلافات بين اعضاء مجلس الثورة فى يد حديدية هى يد « جمال عبد الناصر » الذى اصبح يسخر منـه « انطونى ايدن » رئيس وزراء انجلترا فى ذلك الحين ويهاجمه فى خطبه وكلماته ويصفه بـ « الدكتـاتور الصغير » الذى يعمل على هدم المصالح البريطانيـة فى منطقة الشرق الاوسط . وتذكرت توا ان الحـكومة المصرية قد اعلنت ونحن فى عرض المحيط اعترافهـا بالصين الشيوعية . كان ذلك فى منتصف شهر مايو عام ١٩٥٦ ، ويومها سعدت بالخبر وتأكدت ان تصرفات

الحكومة المصرية قد اصبحت حرة سواء كانت هذه التصرفات خارجية او داخلية . ولكنى لم اكن على يقين كامل او حتى ناقص من رضاء الشعب المصرى الخالد عما كان يجرى من أمور داخلية ، وان كان يقينى قد بدأ يقوى من حيث حرية حركة الحكومة المصرية فى سياستها الخارجية . فاحتكار توريد الاسلحة من الغرب قد اصبح فى خبر كان ، ومهاجمة حلف بغداد واستمرار مقاومته أصبحا من صميم هذه السياسة . وهاهو ذا اعتراف الحكومة المصرية بالصين الشيوعية قد اصبح حقيقة واقعية . والسد العالى لم اسمع عنه كثيرا فى ذلك الحين ، وان كنت اعرف ان المشكلة التى كانت تقف فى سبيل تحققه هى مشكلة المشاكل ، اقصد مشكلة التمويل التى اصبحت هى المعركة فضلا عن التنافس بين الشرق والغرب . ولم اكن اعرف شيئا عن حجم الاستثمارات المطلوبة لهذا المشروع ، ولم اكن اعرف ايضا ان كان من الممكن ان تعتمد مصر ذاتيا ليكون هذا التمويل من النقد المحلى والاجنبى . كانت معلوماتى عن ظروف مصرنا الخالدة الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ضئيلة ، وذلك لان مصادر هذه المعلومات كانت ضئيلة ايضا . وان كنت اعلم شيئا فاننى علمت وانا فى بوستن عن طريق خطاب ارسله لى صديق من القاهرة ان معظم الاشخاص الذين كنت اتعامل معهم وعلى رأسهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى آخر وزارة شكلها حزب الوفد قبل قيام الجيش بحركته فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، قد تواروا عن الانظار ولم يكن لهم نصيب فى الاسهام فى تدبير الامور . وقد علمت أيضا ان الحكومة المصرية قد وضعت مشروعا لدستور جديد سيقوم

الشعب المصرى بالاستفتاء عليه وعلى رئاســة جمـال عبد الناصر للجمهورية فى يوم ٢٥ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ ، اى بعد ان اكون قد عدت الى بلادى . وقـد ذكر كاتب الخطاب المرسل من القاهرة الى بهذا الشـأن انه قد نص ولاول مرة على « ان مصر دولة عربية وهى جزء من الامة العربية . وان دين الدولة الاسلام » . وقد احسست عندما قرات هذا النص بخيبة امل كبيرة. فانا فى ضوء دراساتى فى « معهد الدراسات الافريقية» بجامعة بوستن تأكدت من ان مصر اقرب الىافريقيا من العرب . وان النص كان يجب ان يكون « ان مصر دولة افريقية » وكنت اقول ان المستقبل هو مستقبل افريقيا التى كانوا يقولون عنها ولا يزال البعض يقـول عنها « افريقيا السوداء » . وكنت اقول أن المصالح الحيوية لمصر المستقبل هى مصالح افريقيا المستقبل ، وحاجة مصر الى افريقيا مثل حاجة افريقيا الى مصر . وعلاقتنا بالعرب فى ضوء الخبرات التى تمخضت عنها التجارب منذ انشاء « الجامعة العربية » فى عام ١٩٤٥ تكفى لكى تقرر ان تكون علاقات اقتصـادية وسياسية فحسب . وكنت ارى فى ذلك الحين ان اللغة والدين لا يكفيان لتكون مصر عربية وجزءا من الامة العربية . فهناك التاريخ وهناك السمات الثقافية ومصادرهما وهناك قـــدم المجتمعات واستمرارها . واذا كنت اقول ان مصر دولة افريقية فانا مع التاريخ ولست ضده ، واذا كنت لم اقل ان مصر جزء من « قومية افريقية » فانا على صواب . كنت اقول كل ذلك لنفسى فلم يكن معى احد اتبـادل الراى معه . وهاندا فى طريقى الى مصر الطيبة ارجو وامنى النفس بالمجد الاثيل لها ورفعة السلطان لشعبها. فالشعب قد عانى من الحكام الاجانب منذ عام ٥٢٥ ق.م

اى منذ ان غزاها « قمبيز » الفارسى وحتى اعلنت الجمهورية واصبح « الرئيس محمد نجيب » اول رئيس جمهورية مصرى لها فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ وكانت تدور افكار اخرى حول اسرتى الصغيرة . حول زوجتى التى عانت معى ومنى ماعانت وصبرت ماصبرت وابتسمت خلسة عندما تذكرت « لمبة الجاز » التى كنت استذكر دروسى فى ضوئها حتى تيسر لى الانتقال الى شقة يكون التيار الكهربائى من الشروط التى كان يجب ان تتوفر فيها . كم عانت زوجتى من هذه « اللمبة » الى ان انتقلنا الى المسكن الجديد فى خلال شهر يونيو عام ١٩٤٠ عندما انتقلت للمرة الثانيـة الى مؤسسـة الزفاف الملكى . لقد عانت كثيرا ، فمـرة قد يكون « شريط » اللمبـة قد يحتاج الى « المقص » لكى تكون حافته مستقيمة لانه اذا كانت معوجة كان الضوء الذى تشعه اللمبة مشتتا فلا يوفر الراحة عندما كنت اقرأ او اكتب ، ومرة قد تكون كمية « البترول » غير كافية، ومرة قد تكون المرآة المركبة خصيصا فى اللمبة لكى تعكس الضوء فتضاعفه غير نظيفة النظافة المطلوبة ، ومرة قد تكون الزجاجة التى تركب عادة فى قطعة مستديرة تصنع من النحاس الرقيق وتسمى « العدة » فى حاجة الى اعادة مسحها لكى يخرج الضوء من اللمبة صافيا .
وكانت ابتسامتى المختلسة دلالة واضحة على مـدى خجلى من نفسى اذ كنت وهى السيدة التى كانت ترعى امى الحبيبة وخمسة اطفال انقدها نقدا مرا وانا غافل ولا ارى فى ضوء التفسير الخاطىء لكل مايدور حول المرأة المصرية من تراث ثقافى الا حقوقى كرب الاسرة . لم اكن التمس لزوجتى الاعذار على الرغم من عمق تدينى فى ذلك الحين . اننى طبعا كنت اؤدى كل واجباتى نحوها

ونحو باقى اعضاء اسرتى فى حدود قدراتى ، ولكننى كنت التعامل معها كما كان رجال اسرتى الممتدة « اسرة التوجيه » يتعاملون مع زوجاتهم واناث الاسرة على وجه العموم . وكانت ابتسامتى المختلسه تظهر بوضوح ان « التدين » اذا صح يجب ان يكون سلوكا وان يكون على أساس الدين الخالص . ان المسألة ليست مجرد آراء بل يجب ان تكون اتجاهات . اي ان تدينى لايفيد كثيرا اذا كان يعتمد لاظهاره على آرائى ولم يكن جزءا من شخصيتى التى اذ تواجه المواقف الاجتماعية العديدة تسلك أنماط السلوك التى تقرها تعاليم الدين الخالص . وكانت ابتسامتى المختلسة نقطة مضيئة فى حياتى المقبلة، فقد عاهدت نفسى على ان تكون معاملتى لزوجتى فى المستقبل نموذجا كريما للمواطن الصالح الذى يعمل بما يعلم ، والذى يرى ان العلم النظرى والتطبيقى كل عضوى لا يتجزأ . فقد راعنى ماوجدت او قل ماكتشفت فى ذلك الوقت المبكر من « ازدواجية ثقافية » تسود فى المجتمع المصرى ، بل ايضافى المجتمعات الانسانية الاخرى على تباين ثقافاتها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولكنى كنت متاكدا من ان عوامل هذه الظاهرة اقصد ظاهرة الازدواجية الثقافية تتباين عوامها من مجتمع لآخر تباين بمصادرها فى المجتمعات الانسانية وتباين تاريخ هذه المجتمعات من حيث الطول والقصر ومن حيث الحادثات التى مرت بها وما ان وصلت الى هذه النتائج اذا بى اهتز وجلا وخشية . كان القلق على مصير ابنائى يملأ على كيانى . وكنت اتساءل عما اذا كانوا سيشعرون بما انا فيه من عذاب هذا القلق . لقد اصبح احمد الآن فى سن الثانية والعشرين من عمره فماذا كان يدور بخلده نحوى ياترى ؟

الآن وقد اتممت مهمتي مكللا بالنجاح فهل هذا يرضيه ياترى ؟ الم يكن يرى ان الثمن الذى دفعه من شبابه ومن آلامه وقلقه وانماط معاناته الاخرى ثمنا باهظـا ياترى ؟ انه لم يكن يدرى ابدا اننى كنت مدفوعا بقوى لم اكن اراها لكى افعل مافعلت . انه كان قدرى . ولقد دفعت انا ايضا الثمن اضعافا. ولكن هل كان يعلم احمد العزيز ذلك ياترى ؟ وكنت اسائل نفسى عما املت عليه مشاعره وعواطفه نحو النوع الآخر ؟ خل خفق قلبه بحب احدي الانسات ؟ وكنت ارى ان هذا حقه ، او ان ظروفه الجامعية والدور الذى كان يقوم به بوصفه الاب الاصغر او الزوج الاصغر قد حالت دون ان يرى نفسه فى مرآة قلوب العذراى من « اهل الحتة » او حتى من غيرهن ؟ وماذا عن سيره فى دراسته الجامعية . انه الآن فى « كلية الهندسة » فهل كان يسير فى دراسته سيرا عاديا؟ واذا لم يكن ذلك كذلك فمن كان المسئول عن ذلك ؟ هل كان هو المسئول او كنت انا المسئول ؟ ان والدى مات وكنت لما ابلغ سن السابعة عشرة من عمرى . ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن وانا اواجه امواج الحياة بحلوها ومرها وتواجهني امواج الحياة بحلوها ومرها ، وكنت وحدى . فهل اعتبرنى العزيز احمد مثالا يحتذى او راى فى تصرفاتى غير ذلك ؟ انه لا يعرف ابدا كم احبه وكم احترمه . ولكن هذا امر خارج عن الموضوع الذى كان يشغلنى ويقلقنى واهتز من اجله وجلا وخشية . كنت وانا فى مدينة بوستن لا ادع شيئا مايشغلنى عما كنت بصدده . كنت اعزى نفسى فاقول لها ان الزمان قد جندنى لاؤدى واجبا . كنت اقول لها اننى وقد اصبحت احد الجنود فى معركة الدراسات العليا فهذا قدرى . الم تكن اهدافى سامية سمو اهداف

التحصيل العلمي ؟ الم تكن هذه الاهداف خيراً من اهداف المعارك الحربية التي يقتل فيها الملايين من البشر باسم الوطنية تارة والحرية تارة أخرى وغيرها من المبادىء والمثل العليا التي كان يتشدق بها ولا يزالون تجار الحروب الذين كانوا يناصرون زعيما ضد آخر ؟ اما معركتي فقد كانت من اجل ان اعمل عملا صالحا . وكنت في ذلك الحين وحتى الآن أي حتى كتابة هذه السطور صادقا مع نفسي ولم اكن اتوقع ان اكون واهما ابدا . فهل كان العزيز احمد وامه واخوته يرون ماكنت ارى او كانوا يرون انني باسم اهداف معركتي انني كنت شخصا انانيا لايرى في مرآة الحياة الا ذاته ، او كانوا يرون انني انتقم لنفسي فقد احسست عندما مات ابي انه خذلني ، فقد مات وكنت يافعا لا ادري عن الحياة الا النذر القليل ، وقد مات وتركني وحيدا لا اخا لي ولا اختا ؟ وماذا عن العزيزة الغالية « آمال » لقد اصبح عمرها تسعةعشر عاما بل يزيد على ذلك ؟ بالهف نكسي عليك ايها العزيزة آمال . كم كنت اود ان اكون بجوارك وانت في هذه السن الفضة ؟ اتحدث اليك وتتحدثين الي ونتبادل الضحكات والنكات واعرف عنك مكنونات قلبك وتعرفين عني مكنونات قلبي . وكنت اتساءل ماذا كان موقفها من العزيز احمد وماذا كان موقف العزيز احمد منها ؟ هل كانا يتعاملان معاملة الحب والاحترام وتبادل النصائح والمشورة ؟ هل كانا يتخاصمان ولكل منهما دواعيه او بلا داع ؟ لم اكن ادري شيئا من ذلك وان كان قلبي عندما كنت أفكر واحاول ان استطلع الغيب يدق دقا عنيفا عنيفا . اين امي التي كانت للجميع البلسم الشافي ؟ اين امي التي كانت ، وقد حرمت من الابنة ، ترى في آمال لا ابنة لي بل كانت

تراها اختا لي وابنة لها وتعاملها وكأنها كذلك . كانت امي تخفي ان تكون آمال ابنتها التي تأمنها على اسرارها فالابنة عندنا نحن المصريين « حبيبة امها » لقد ذهبت امي وتركت آمال وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ! آنسة صغيرة رقيقة كانت تعيش احلامها في المستقبل القريب والبعيد وكانت ترى ان لها حقوقا فهي تحرص على هذه الحقوق وتكاد ان تنسى ان عليها ايضا واجبات . وكنت ارى ان من حقها ان تنسى هذه الواجبات لانها عاشت في حضن امي من غير ان يطلب منها اداء واجبات واني لها ان تؤدي واجبات وهي في هذه السن وتعيش في هذا المناخ الذي يشع لها الحب العميق من ذلك المصدر الذي لم ينضب الحب فيه ابدا ، قلب امي ؟ وكنت وانا على السفينة والاسكندرية عروس البحر الابيض المتوسط على مقربة نصف يوم اتذكر « العزيز سمير » والعزيزة « تيسير » و « العزيز مسعد » اتذكرهم وانا اشعر بالذنب نحوهم فقد كان سمير العزيز في السابعةعشرة من عمره او اقل من ذلك بقليل وكانت تيسير في الخامسة عشرة من عمرها اما العزيز مسعد فقد بلغ سن الثالثة عشرة . كنت اشعر بالذنب لانني كنت متأكدا من انهم كانوا عبئا كبيرا على زوجتي العزيزة وعلى احمد العزيز . كانوا في مسيس الحاجة الى الرعاية وبخاصة وقد كانوا في المراحل الاولى من الدراسة . واذا كنت أعلم بأن العزيز احمد كان يدرس في الجامعة وان العزيزة آمال كانت تستعد لامتحان « شهادة الثانوية العامة » فانني كنت أعلم ايضا ان الاعزاء سمير وتيسير ومسعد يستعدون لامتحان شهادة « الاعدادية » ان الثلاثة على الرغم من تباين الاعمار يستعدون لامتحان معين . وكان التفكير في هذا الموقف

وحده يجعلنى اتصبب ، على الرغم من هواء البحر المنعش ، عرقا . وكان الامل املى ان تكلل مساعى الجميع بالنجاح وعندما أعود اليهم احاول ان اواجه النتائج . وكنت اقول لنفسى بصوت خافت احيانا وبصوت مسموع احيانا اخرى ان المهم هو ان ينجحوا ولاحاول بعد ذلك ان اواجه النتائج . المهم ان ينجحوا جميعا . وكنت الوم نفسى واتهمها بالجنون اذ تركت هؤلاء الابناء وحدهم الى مصيرهم وكانوا مازالوا فى عمر الزهور . ماذا كان قد حدث اذا لم اكن قد تركتهم وحدهم وسافرت لفترة حوالى اربعة وثلاثين شهرا .؟ وكنت ارد على هذا السؤال بانه سؤال غير ذى موضوع. لقد حدث ماحدث وتم الامر . وان اهم من الاجابة عنه ان انظر الى الامام واواجه فى شجاعة ماجنته على افكارى وآمالى ومبادئى . اننى لو كنت قد انصت الى مطلب استاذى البروفسور موريس ، وكان قد طلب الى ملحا ان اعمل فى الولايات المتحدة ، لكنت مازلت هناك اكسب الكثير من الدولارات ؛ ولم يكن من نصيب زوجتى وابنائى سوى ما ارسل لهم من نقود وكان من المتوقع ان تكون نقودا كثيرة . اى اكثر مما كنت ارسلها لهم وانا القاضى مرتب المنحة الشهرى وقدره ١٥٠ دولارا فقط . كنت ساعمل وانا حاصل على درجة الدكتوراه والتقاضى اضعاف مرتب المنحةمافى ذلك من شك . وكنت اذا لبيت دعوة البرت موريس اعيش حياة ارغد واكثر يسرا . ان معظم نقودى على قلتها كنت اصرفها على شراء كتبى ولم اكن اشبع من شراء الكتب . لم اشتر ملابس او اشياء غير عادية ابدا . ولكنى كنت اشترى الكتب القديمة والجديدة على السواء . كنت كالصحراء التى اذا ما اغرقتها بالماء شربت الماء فى التو واللحظة .

وكانت كتبي مائي وكنت انا الصحراء التي لم تكن تشبع من هذه الكتب اى من هذا الماء .. ماء الحيـــاة .. حياتي . لم ألب مطلب البروفسور موريس أو مطلب د ه في البقاء في مجتمع الولايات المتحدة لعـــوامل عديدة منها بل ربما يكون همها الحرص على كيان اسرتي الصغيرة . ومع ذلك فقد لاحظت وانا اقترب من ميناء الاسكندرية ان اهم ماكان يقلقني كانوا هؤلاء « الرفاق الثلاثة الاعزاء » سمير وتيسير ومسعد . كانوا أعزاء على قلبي وعقلي ، وكان كل مايمكن ان اعطيهم ، فضلا عن واجباتي كأب ، هو الحب والاحترام . وكنت ارجو ان يكون ما اعطي كافيا . وكنت متفائلا فقد تعلمت بأن عطاء الحب للناس الغرباء واحترامهم كان عطاء مجزيا فما بالك وهؤلاء هم دمي واعصابي واحبائي . وكنـــت متأكدا من النجاح ، ولكنني كنت متأكدا ايضا من ان الضرورة كانت تحتم على الصبر اى ان احبس نفسي عن الجزع ما استطعت الى ذلك سبيلا . وفي لحظـــة رأيت أن السفينة قد رست على الميناء العتيد . فسارعت الى حجرتي لكي اضع حاجياتي في اماكنها في الحقـــائب الثلاثة . وكانت معي حقيبة من الورق مملوءة بالاقمشة التي لا اعرف نوعها ولا أعرف ثمنها ، كان قد أعطـــاها لي الزميل شلبي لكي اوصلها الى صديق له لم اكـــن اعرفه ولم يكن يعرفني . وحملت الحقائب وصـــناديق الكتب الى ظهر السفينة ومعي الحقيبة المصنوعة مـــن الورق بما فيها . وما أن مكثت برهة الا وسمعت صوتا يناديني باسمي مشفوعا بلقب « الدكتور » ولاول مرة أسمع ذلك . واذا كنت قد دهشت للمناداة على اسمي فلم يكن للقب الدكتور تأثير ما في نفسي . كانت الدهشة تملأ على كياني فلم أر او اسمع شيئا آخر غير عادي.

واجبت من ناداني وعرف مكاني وسرعان ماجاء الرجال يحملون امتعتى كلها بما فيها كتبى . وكنت أول من غادر السفينة وكان المنادى مندوب صاحب الحقيبة المصنوعة من الورق اقصد صاحب هذه الحقيبة بما فيها من اقمشة ، وكان الرجال الذين جاءوا يحملون امتعتى هم الذين ارسلهم ليفعلوا ذلك . واخذ الرجل الحقيبة منى وبعد ان ذكر اسم صديق الزميل شلبى وخرجت من الجمرك بأمتعتى ومن بينها كتبى وكأننى خرجت من حمام ! ولم يقف فى سبيلى احد فقد يسر المندوب الطريق امامى ، وركبت « الحنطور » ومعى الامتعة والكتب الى محطة السكة الحديد ، ثم ركبت القطار الى مدينة القاهرة الحبيبة . وبدأ القطار فى السير فى الموعد المحدد وكنا فى الضحى . وكنت فى بيتى بعد ظهر يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وحاولت وانا فى القطار ان لا اتحدث مع احد ولكننى لم اتمكن من ذلك . وكانت الاحاديث المتداولة بينى وبين الركاب، على تفاهتها ، بردا وسلاما . فقد مر الوقت الطويل وكأنه لحظات . وبدات استعد نفسيا للقاء احبائى واعزائى : زوجتى واحمد وآمال وسمير وتيسير ومحمد .

كتاب الهلال يقدم

محمد على الكبير

بقلــم
شفيق غربال

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٨٦

رقم الايداع : ٤٧١١ / ٨٦
الترقيم الدولى : ٧ - ٢٥٨ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN